النص الكامل

الطبعة القانونية الأولى
والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي

لقاءٌ في بَغْداد

الأجيال
للترجمة والنشر

Agatha Christie

They Came to Baghdad

لقاءٌ في بغداد

بغداد هي الموقع الذي وقع عليه الاختيار لعقد اجتماع سري يضم قادة الدول العظمى بعد الحرب العالمية الثانية، غير أن هذه المعلومة تسربت -لسوء الحظ- فوصلت إلى منظمة سرية تسعى إلى إفشال هذه القمة.

تجد فكتوريا جوردن نفسها في وسط هذه الأجواء المثيرة. إنها فتاة جريئة تحب المغامرة، ولكنها تحصل على قدر من المغامرة يفوق كلَّ توقعاتها حين يقع عميلٌ سري جريحٌ أمتعته الأخيرة في غرفتها بالفندق!

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر من كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفي مليون نسخة!

WWW.LILAS.COM

الناشر وصاحب الحق الحصري
بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

الفصل الأول

خرج الكابتن كروسي من المصرف بطرح امرئ صرف شيكاً واكتشف أن لديه في حسابه مبلغاً أكبر قليلاً مما كان يظن.

وغالباً ما يبدو الكابتن كروسي مسروراً بنفسه، فقد كان من ذلك النوع من الرجال. أما بالنسبة لجسمه فقد كان قصيراً قوي البنية، ذا وجه أحمر قليلاً وشارب عسكري منتصب الشعيرات. كان يختال قليلاً في سيره عندما يمشي، وربما كان في ملابسه شيء قليل جداً من الزينة والألوان الناقرة، وكان مغرماً بالقصص المضحكة، ويحظى بشعبية بين الرجال الآخرين. رجل مرح، عادي ولكنه لطيف، وغير متزوج. ليس فيه ما يبهر أو يثير الانتباه، وهناك في الشرق أكوام من أمثاله.

كان الشارع الذي خرج إليه الكابتن كروسي يسمى شارع السوق، لسبب وجيه جداً هو أن معظم مصارف المدينة توجد فيه. كان الجو داخل المصرف بارداً مظلماً فيه شيء من رائحة الهواء الراكد، والصوت البسيط فيه هو صوت العدد الهائل من الطابعات التي تطقطق في خلفية المشهد.

أما في شارع البنوك في الخارج فقد كان الجو مشبعاً تملؤه زوابع الغبار، ويطغى فيه الضجيج الرهيب المتنوع. فقد كان هناك الزعيق المستمر لأبواق السيارات، وصيحات الباعة من كل جنس ولون. وثمة مشاجرات صغيرة بين مجموعات قليلة ممن يُخيَّل للمرء أنهم مستعدون لقتل بعضهم بعضاً، ولكن سرعان ما تراهم أصدقاء في الواقع. رجال ونسوان وأطفال كانوا يبيعون كل شيء من الأشجار إلى الحلويات والبرتقال والموز ومناشف الحمّام والأمشاط والشفرات، وغير هذا من البضائع التي تُحمل بسرعة في الشوارع على الصواني. وفوق كل ذلك كان يُسمَع صوت العويل الرفيع الكئيب لرجال يقودون الحمير والخيول بين مجرى السيارات.

كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً في مدينة بغداد.

أوقف الكابتن كروسبي صبياً يركض بسرعة حاملاً ملء يده من الصحف واشترى واحدة منها، ثم انعطف عند زاوية شارع البنوك وخرج إلى شارع الرشيد، وهو الشارع الرئيس في بغداد ويمتد نحواً من أربعة أميال متوازياً مع نهر دجلة.

ألقى الكابتن كروسبي نظرة سريعة على عناوين الصحيفة، ثم دسها تحت إبطه ومشى نحواً من مئتي متر، ثم انعطف ليدخل زقاقاً صغيراً قاده إلى خان ضخم، وعند النهاية البعيدة للخان فتح باباً عليه لوحة نحاسية ليجد نفسه في مكتب هناك.

ترك موظف عراقي شاب مرتب الشكل آلته الطابعة وتقدم منه بابتسامة ترحيب قائلاً: صباح الخير يا كابتن كروسبي. بماذا يمكنني أن أخدمك؟

- هل السيد داكين موجود؟ حسناً، سأصعد إليه.

عبّر أحد الأبواب، ثم صعد درجاً ذا انحدار حاد جداً، ثم قطع ممراً، وعند نهايته قرع باباً فجاءه صوت يقول: ادخل.

كانت الغرفة عالية السقف شبه فارغة، وكانت فيها مدفأة نفطية عليها إناء ماء، بالإضافة إلى مقعد طويل أمامه طاولة قهوة صغيرة ومكتب ضخم بالٍ إلى حدٍّ ما. كان المصباح الكهربائي مضاء، وقد تم استبعاد ضوء النهار بحرص. وخلف المكتب البالي جلس رجل ذو وجه متعب ينقصه الحزم... وجه امرئ لم يفلح في هذه الحياة وهو يعرف ذلك ولم يعد يهتم له.

تبادل الرجلان النظرات: كروسبي المرح الواثق بنفسه، وداكين الكئيب المرهق، وأخيراً قال داكين: مرحباً يا كروسبي. هل عدت لتوك من كركوك؟

أومأ الآخر برأسه بالإيجاب، ثم أغلق الباب خلفه بحذر. كان الباب يبدو بالياً بدوره، لم يُحسَن طلاؤه، ولكن به صفة واحدة غير متوقعة، وهي أنه محكم الإغلاق دون فتحات أو شقوق أو فراغ في أسفله... كان -في الحقيقة- باباً كاتماً للصوت.

ومع إغلاق الباب تغيرت قليلاً شخصية كل من الرجلين؛ فقد أصبح الكابتن كروسبي أقل جرأة وثقة، فيما ارتخى كتفا داكين أكثر من ذي قبل وأصبح سلوكه أقل تردداً. ولو قُدّر لأحد أن يكون في الغرفة مستمعاً لحديثهما لدهش وهو يكتشف أن داكين هو الذي كان في موقع السلطة.

سأل كروسبي: هل توجد أية أخبار يا سيدي؟

قال ماكين: "نعم"، ثم تنهد. كانت أمامه ورقة كان -لتوه- منشغلاً في فك رموزها. وقام بتنقيط حرفين آخرين ثم قال: سيتم انعقاده في بغداد.

ثم أشعل عود ثقاب وأشعل الورقة وراقبها وهي تحترق. وعندما أصبحت رماداً نفخ برفق فطار الرماد وتبعثر، ثم قال: نعم، لقد استقر رأيهم على بغداد، في العشرين من الشهر القادم. وعلينا أن نحافظ على السرية التامة.

قال كروسبي بهدوء: لقد كانوا يتحدثون عن الأمر في السوق... ولثلاثة أيام.

ابتسم الرجل الطويل ابتسامته الشيمة وقال: سري للغاية! لا يوجد شيء سري للغاية في الشرق، أليس كذلك يا كروسبي؟

- بلى يا سيدي. ولو أردت رأيي لقلتُ إنها لا توجد أسرار في أي مكان. كثيراً ما لاحظتُ خلال الحرب أن حلاقاً في لندن يعرف أكثر من القائد العام.

- ولكن الأمر لا يهم كثيراً في هذه الحالة، فإن تم ترتيب الاجتماع ليكون في بغداد فسرعان ما سيصبح الأمر معروفاً بالضرورة، وعندها تبدأ المتعة... أعني متعتنا الخاصة.

سأل كروسبي بارتياب: أتظن أن هذا الاجتماع يمكن أن يتم أساساً يا سيدي؟ هل يثري العم جو القدوم حقاً؟

بهذا القدر من قلة الاحترام كان كروسبي يشير إلى رئيس قوة أوروبية عظمى! ورة ماكين وهو يتأمل: أظنه يثري الحضور هذه المرة يا كروسبي. نعم، أظن ذلك. وإذا ما نجح الاجتماع... (أعني إن نجح دون عوائق)... فعندها يمكن أن يعني ذلك إنقاذ كل شيء. لو أمكن فقط الوصول إلى تفاهم ما...

ثم توقف. ولكن كان كروسبي ما يزال يبدو متشككاً قليلاً، فقد قال: وهل... اعذرني يا سيدي، هل الوصول إلى تفاهم من أي نوع مسألة ممكنة؟

- بالمعنى الذي تقصده أنت -يا كروسبي- قد لا تكون مسألة ممكنة. إن كان الأمر مجرد جمع رجلين يمثلان مفهومين فكريين مختلفين جداً فربما انتهى الأمر كله كما ينتهي عادة... بزيادة في الشكوك وسوء الفهم. ولكن لدينا الآن العنصر الثالث. إن كانت قصة كارمايكل الخيالية تلك صحيحة...

ثم سكت فقال زميله: ولكن من المؤكد أنها لا يمكن أن تكون صحيحة يا سيدي؛ فهي شديدة الخيالية!

بقي الآخر صامتاً بضع دقائق. كان يتخيل -بكل وضوح- وجهاً جدياً قلقاً، ويسمع صوتاً هادئاً يصعب تصنيفه وهو يقول أشياء خيالية لا تُصدَّق. كان يقول لنفسه كما قال لرفيقها: "إما أن يكون أفضل رجالي وأكثرهم مصداقية قد فقد عقله، أو أن يكون هذا الأمر صحيحاً!".

قال بنفس صوته الرفيع الكئيب: إن كارمايكل يؤمن بأن الأمر صحيح. كل ما استطاع العثور عليه أكد فرضيته، وقد أراد الذهاب إلى هناك ليكشف المزيد... ليحصل على دليل. لا أدري إن كنتُ قد

تصرفت بحكمة أو غير ذلك عندما تركته يذهب. فإذا تم بعد، فلن يوجد ما يمكن الاستناد عليه إلا روايتي أنا عما قاله لي كارمايكل، وهي -بدورها- قصة قالها أحدهم له. هل يكفي هذا؟ لا أظن ذلك. إنها -كما قلت- قصة خيالية جداً، ولكن إن جاء الرجل نفسه إلى هنا، إلى بغداد، في العشرين من الشهر القادم... ليحكي قصته الخاصة، قصة شاهد عيان، ولكي يقدم دليلاً...

قال كروسبي بحدة: دليلاً؟!

أومأ الآخر برأسه وقال: نعم، لديه دليل.

- كيف عرفت؟

- الصيغة المتفق عليها. جاءت الرسالة من صلاح حسن.

ثم اقتطف من الرسالة بحذر ما يلي: «جمل أبيض محمّل بالشوفان سيأتي عبر الممر الجبلي». وتوقف قليلاً ثم مضى قائلاً: وهكذا فقد حصل كارمايكل على ما ذهب من أجله، ولكنه لم يخرج دون أن تحيط به الشكوك. إنهم يسعون في أعقابه، وأي طريق يسلكه سيكون مراقباً، والأخطر من ذلك بكثير أنهم سيكونون بانتظاره... هنا، في البداية على الحدود، وإن نجح في عبور الحدود فسوف يُضرب طوق حول السفارات والقنصليات. انظر إلى هذه.

بحث بين أوراقه، ثم أخرج ورقة وقرأ بصوت عالٍ: "إنكليزي مسافر بسيارته من إيران إلى العراق أطلقت عليه النار فقُتل، ويُفترض أن ذلك من عمل قطاع الطرق... تاجر كردي نزل من الجبال مسافراً جنوباً نُهب له كمين وقُتل... كردي آخر اسمه عبد الحسن يُشتبه بأنه مهرب دخان قتله الشرطة... العثور في طريق واندروز على جثة رجل

تبين فيما بعد أنه سائق شاحنة أرمني". لاحظ أنهم جميعاً متقاربون في الصفات العامة: الطول والوزن والشعر والبنية... كلها قريبة من صفات كارمايكل. إنهم لا يريدون أي مجازفات. لقد خرجوا للقضاء عليه، وبمجرد أن يصبح في العراق سيكون الخطر عليه أشد أيضاً. بستاني في السفارة... خادم في القنصلية... موظف في المطار... في الجمارك... في محطات القطار. كل الفنادق مراقبة... طوق أمني مضروب بكل إحكام.

رفع كروسبي حاجبيه وقال: أتظن أن أمرهم اتسع إلى هذا الحد يا سيدي؟

- ليس عندي أي شك في ذلك. حتى في معسكرنا توجد محطات تسرب المعلومات، وهذا أسوأ ما في الأمر. كيف لي أن أتأكد من أن الإجراءات التي نتبعها من أجل إيصال كارمايكل سالماً إلى بغداد ليست معروفة أصلاً من قبل الجانب الآخر؟ إن إحدى القواعد الأساسية لهذه اللعبة -كما تعلم- هي أن تشتري كل جهة شخصاً محسوباً على الجهة الأخرى وتدفع له المال.

- هل يوجد أحد... تشتبه فيه؟

هز داكين رأسه ببطء نافياً، فتنهد كروسبي وقال: وهل تواصل عملنا في هذه الأثناء؟

- نعم.

- ماذا عن كروفتن لي؟

- تحت المراقبة على حضوره إلى بغداد.

- الجميع قادمون إلى بغداد. حتى العم جو قادم كما تقول يا سيدي، ولكن إن حدث أي شيء للرئيس أثناء وجوده هنا فستشتعل حرائق الانتقام.

- ينبغي أن لا يحدث شيء. هذا هو دورنا... أن نمنع حدوث أي شيء.

عندما ذهب كروسبي انحنى داكين فوق مكتبه، وتمتم بين أسنانه: لقد جاؤوا إلى بغداد...

وعلى رزمة ورق المسوّدات أمامه رسم دائرة وكتب تحتها: «بغداد»، ثم أخذ ينقّط تحتها ليرسم جَمَلاً، وطائرة، وباخرة، وقطاراً صغيراً ينفخ دخانه... وكل ذلك يتجه نحو الدائرة. ثم رسم في زاوية الورقة شبكة عنكبوت، وفي وسط شبكة العنكبوت كتب اسماً: «آنا شيل»، وتحت ذلك وضع علامة استفهام كبرى.

بعد ذلك أخذ قبعته وغادر المكتب. وفيما هو يمشي في شارع الرشيد سأل رجلٌ ما صاحبه: مَن هو هذا الرجل؟

- ذاك؟ آه، إنه داكين. إنه يعمل في إحدى شركات النفط، وهو رجل لطيف ولكنه لم ينجح أبداً، فهو خامل جداً، ويقولون إنه يشرب الخمر. لن ينجح أبداً. لا بد أن تكون متحمساً طموحاً حتى تنجح في هذه المنطقة من العالم.

* * *

- هل حصلتِ على التقارير الخاصة بعقارات كروفتهورف يا آنسة شيل؟

- نعم يا سيد مورغانثال.

وضعت الآنسة شيل الهادئة الغديرة الورقة أمام رئيسها. همهم وهو يقرأ ثم قال: هذا مقنع كما أظن.

- أظنه كذلك بالتأكيد يا سيد مورغانثال.

- هل شوارتز هنا؟

- إنه ينتظر في المكتب الخارجي.

- أرسليه لي على الفور.

ضغطت الآنسة شيل على جرس... كان واحداً من ستة أجراس، ثم قالت: هل ستحتاجني يا سيد مورغانثال؟

- لا، لا أظن ذلك يا آنسة شيل.

انسلت آنا شيل من الغرفة بهدوء. كانت شقراء ذات شعر بلاتيني، ولكنها لم تكن شقراء ساحرة الجمال. كان شعرها الكتاني الباهت مُسرّحاً مباشرة من جبينها إلى الخلف ليجتمع في لفافة مرتبة عند عنقها، وكانت عيناها الزرقاوان الفاتحتان الذكيتان تنظران إلى العالم من خلف نظارة سميكة. أما وجهها فكان ذا قسمات دقيقة متناسقة، ولكنه يفتقر لأي تعبير. لم تعتمد في شق طريقها في هذا العالم على فتنتها، بل على كفاءتها المجردة؛ فمقدورها أن تحفظ غيباً أي شيء مهما كان معقداً، وتستذكر الأسماء والتواريخ دون

العودة إلى دفتر ملاحظات، وكان بوسعها تنظيم ملاك مكتب كبير بطريقة تجعله يعمل كآلة أحسن تزييتها، وهي رمز للتكتم والمحافظة على الأسرار. ورغم أن طاقتها كانت منظمة منضبطة، إلاّ أنها طاقة لم تفتر أبداً.

وقد كان أوتو مورغانثال، رئيس شركة مورغانثال وبراون وشيبرك (وهي شركة صرافة عالمية)، يدرك تماماً أن ما يدين به لآنا شيل كان أكبر مما يستطيع المال تسديده. فقد وثق بها كل الثقة، وكانت ذاكرتها، وخبرتها، وأحكامها، وعقلها البارد المتزن... كل ذلك كان لا يُقدَّر بثمن. وقد دفع لها راتباً ضخماً، وكان من شأنه أن يزيده ضخامة لو طلبت ذلك.

ولم تقتصر معرفتها على عمله، بل تعدت ذلك إلى تفصيلات حياته الخاصة. وعندما استشارها بخصوص قضية زوجته الثانية تصحنه بالطلاق، واقترحت عليه المبلغ الدقيق للنفقة التي يدفعها لزوجته. لم تُظهر شفقة أو فضولاً، فما كان ليصفها بأنها من ذلك النوع. لم يكن ليظن أن لها أية مشاعر، ولم يخطر له أبداً أن يتساءل عما تفكر به، بل إنه كان سيندهش لو قيل له إن لها أي أفكار أخرى غير تلك المتعلقة بالشركة وبمشكلات أوتو مورغانثال.

ولذلك كله فقد دهش تماماً عندما سمعها تقول وهي تهيأ لمغادرة مكتبه: أرغب بإجازة لمدة ثلاثة أسابيع إن كان ذلك ممكناً يا سيد مورغانثال، بدءاً من الثلاثاء المقبل.

قال وهو يحدق إليها: سيكون ذلك مريكاً... مريكاً جداً.

- لا أظن أن ذلك سيكون صعباً جداً يا سيد مورغانثال،

فالآنسة وايغيت قادرة تماماً على التعامل مع الأمور. سأترك لها دفتر ملاحظاتي مع تعليمات كاملة، وبوسع السيد كورنوول أن يعنى بعملية اندماج شركة آرشر.

سأل وهو ما زال متململاً: أرجو أن لا يكون ذلك لمرض أو عارض ما؟

إنه لا يستطيع تخيل الآنسة شيل مريضة. حتى الجراثيم تحترم آنا شيل وتبتعد عن طريقها.

- آه، لا يا سيد مورغانثال. أريد الذهاب إلى لندن لرؤية أختي هناك.

- أختك؟

لم يكن يعرف أن لها أختاً. لم يكن قد تخيل أن للآنسة شيل أية عائلة أو أقرباء، فهي لم تذكر شيئاً من ذلك. وها هي الآن تشير إلى أخت لها في لندن! لقد كانت معه في لندن في الخريف الماضي، ولكنها لم تُشِرْ أبداً - وقتها- إلى أن لها أختاً.

قال بشيء من المشاعر المجروحة: لم أعرف أبداً أن لك أختاً في إنكلترا؟

ابتسمت الآنسة شيل ابتسامة باهتة جداً وقالت: آه، بلى يا سيد مورغانثال، وهي متزوجة برجل إنكليزي ذي صلة بالمتحف البريطاني. من الضروري لها أن تخضع لعملية جراحية شديدة الخطورة، وهي تريدني أن أكون معها، وأنا أرغب بالذهاب.

رأى أوتو مورغانثال أن خلاصة القول هي أنها قد حزمت أمرها على الذهاب، فقال متذمراً: حسناً، حسناً، ولكن عودي في أقرب وقت ممكن. إنني لم أرَ السوق متذبذباً أبداً بهذا الشكل من قبل. هذه الشيوعية القذرة! يمكن أن تندلع الحرب في أية لحظة، وأكاد أحس -أحياناً- بأنها الحل الوحيد. البلد كله مشغول بها... مشغول بها تماماً، والرئيس مصمم الآن على الذهاب إلى هذا المؤتمر التعيس في بغداد. إنه شرك خادع برأيي؛ فهم يسعون جاهدين للنيل منه. بغداد... من بين كل الأماكن الغريبة المستهجنة!

قالت الآنسة شيل على سبيل التهدئة: آه، أنا واثقة أنه سيحظى بحماية ممتازة.

قال السيد مورغانثال: "ألم يقتلوا شاه إيران في العام الماضي؟ كما قتلوا برنادوت في فلسطين. إنه جنون... هذه هي حقيقة الأمر؛ جنون". ثم أضاف بحزن: ولكن لا غرابة؛ فالعالم كله مجنون!

* * *

الفصل الثاني

جلست فكتوريا جونز معكّرة المزاج على مقعد في حدائق فيترجيمس. كانت غارقة تماماً في التأمل... بل يكاد المرء يقول إنها غارقة في المحاكمات الأخلاقية المتعلقة بالمساوئ الكامنة في استخدام المرء لمواهبه الخاصة في الوقت غير المناسب.

كانت فكتوريا مثل الكثيرين منا؛ فتاةٌ ذات محاسن ومساوئ. فأما في جانب المحاسن فقد كانت كريمة ودودة شجاعة، وربما أمكن اعتبار ميلها الطبيعي للمغامرة ميزة يمكن تصنيفها في أيٍّ من جانبي المحاسن أو المساوئ في هذا الزمن الذي يضع اعتباراً عالياً للأمن. أما عيبها الأساسي فكان ميلها للكذب في اللحظات المناسبة وغير المناسبة على حد سواء، وكان ولعها الدائم الهائل بالخيال على حساب الحقيقة ولعاً لا يمكنها مقاومته. كانت تكذب بطلاقة وبسهولة وبحماسة، ولئن تأخرت فكتوريا عن موعد (وهو ما كان يحدث غالباً) فلن تكتفي بأن تتمتم بعذر عن توقف ساعتها (الذي كان فعلاً كثير الحدوث) أو بعذر عن حافلة تأخرت على غير عادتها، بل كانت تفضّل تقديم التفسير الكاذب الهائل إن ما أخرها كان فيلاً هارباً من حديقة الحيوان تمدد في الطريق الذي تسلكه الحافلة، أو حادثة سطو

خاطفة لعبت هي فيها دوراً في مساعدة الشرطة .. فالعالم المقبول بالنسبة لفكتوريا سيكون ذلك العالم الذي تكمن فيه النمور في ساحة ستراند ويملأ فيه رجال العصابات الخطيرون شوارع المدينة!

وكانت فكتوريا فتاة نحيلة ذات جسم مقبول، ولكن كان يمكن -عملياً- وصفُ ملامحها بأنها قبيحة؛ فقد كانت ملامح صغيرة ومرتبة، ولكن كان فيها شيء من الحدة اللاسعة، إذ كان «وجهها النطاطي» -كما وصفه أحد المعجبين بها- قادراً على نوبي تلك الملامح الساكنة في تقليد ساخر لا يكاد أحد ينجو منه.

وقد كانت موهبتها الأخيرة هذه هي التي قادتها إلى موقفها الحالي الصعب؛ فقد كانت فكتوريا طابعة عند السيد غرينهولتز، مدير شركة غرينهولتز وسايمنز في شارع غريزهولم غربي لندن. وقد كانت تحاول «قتل وقت» صباح ممل، وذلك بالترفيه عن زميلاتها الطابعات الثلاث وصبي المكتب، عن طريق تقديم عرض حي تؤدي فيه فكتوريا دور زوجة السيد غرينهولتز وقد جاءت لزيارة زوجها في مكتبه. وقد أطلقت فكتوريا العنان لنفسها بعد أن اطمأنت إلى أن السيد غرينهولتز قد ذهب إلى محاميه. صاحت بصوت عالٍ متحبب: لماذا تقول إننا لن نشتري تلك الأريكة الفخمة يا دادي؟ لقد اشترت السيدة ديفناكس واحدة منجدة بالساتان الأزرق. تقول إن المال يخصك؟ فلماذا -إذن- اصطحبتْ تلك الفتاة الشقراء إلى العشاء والرقص؟ إيه! أتظن أنني لا أعلم؟ فإذا أخذت أنت تلك الفتاة، فإنني -بالمقابل- اشتريتُ أريكة منجدة على أجمل طراز ومعها الطنافس والوسائد الذهبية. وعندما تقول إنه لم يكن إلاّ عشاء عمل فإنك تكون مغفلاً جداً... نعم، وتأتيني وأحمر الشفاه على قميصك!

ولذلك اشتريت الأريكة، وطلبت معطف فراء جميلاً جداً يشبه فروُه فرو المنك، ولكنه ليس فرو المنك فعلاً، وقد اشتريته بثمن رخيص، وكان صفقة جيدة...

كان مستمعوها -في البداية- مسحورين بتقليدها الساخر، ولكنهم انخرطوا الآن فجأة بالعمل، مما جعل فكتوريا تتوقف وتلتفت إلى حيث كان السيد غرينهولتز واقفاً عند مدخل الباب يراقبها. وعندما لم تجد شيئاً مناسباً تقوله اكتفت بالقول: آه!

تمدم السيد غرينهولتز، ثم نزع معطفه بقوة وتقدم إلى مكتبه الداخلي حيث صفق الباب بقوة خلفه، وعلى الفور -تقريباً- رنّ جرسه رنتين قصيرتين ورنة طويلة، وكان ذلك استدعاء لفكتوريا.

قالت إحدى صاحباتها بشكل لا داعي له: "هذا الجرس لك يا فكتوريا"، ثم التمعت عيناها بالفرح الذي يأتي من مصائب الآخرين. وقد ساهمت بقية الطابعات في هذا الشعور بأن علّقن قائلات: "لقد وقعتِ يا فكتوريا" و"لقد تلقيتِ حمّاماً ساخناً!"... أما صبي المكتب، وهو طفل كريه، فقد اكتفى بأن مرر سبابته أمام حنجرته موحياً بالذبح ومطلقاً صوتاً منذراً بشر مستطير.

أخذت فكتوريا دفتر ملاحظاتها وقلم الرصاص ومضت إلى مكتب السيد غرينهولتز بكل ما يمكنها استجماعه من ثقة، وعندما دخلت عليه تمتمت وهي تركز عليه نظرةً صافية شفافة: لقد طلبتني يا سيدي؟

كان السيد غرينهولتز يخشخش بثلاث ورقات من فئة الجنيه ويبحث في جيوبه عن قطع نقود معدنية أخرى، وقد قال لها: ها أنت

في إذن لقد تحدثت منك ما يكفي أيها السادة هل يرين أي سبب خاص يمنعني من أن أدفع لك آخر أسبوع بدل الإشعار وأعرفك في هذه اللحظة؟

كانت فكتوريا (البيضة الأبيض) قد فتحت فمها لتوها تشرح كيف أن صحة أمها التي تعاني في هذه اللحظة من هشاشة عظام كبرى قد أثرت على معنوياتها إلى الحد الذي جعلها عديمة العمل تماماً، وكيف أن رأيها هو كل ما تعتمد عليه الأم المذكورة، ولكنها عادت وأغلقت فمها وغيرت رأيها بعد أن نظرت نظرة أخرى إلى وجه السيد غريبهولتر الصارم.

وبدلاً من ذلك قالت بكل انطلاق وعفوية: إني أعني معك كل الاتفاق أعتقد أنك محق تماماً، إن كنت تفهم ما أعنيه

بدا وكأن السيد غريبهولتر قد فوجئ قليلاً، إذ لم يكن معتاداً على تعامل الناس مع حالات الفرد بمثل هذه الروحة الرضية المهذبة، ولكي يخفي دهشته قام بترتيب مجموعة من المرد المعدنية على المكتب أمامه ثم أخذ يحدث مجدداً في جيوبه وتمتم بشكل يكاد يقفز المبلغ تسعة بنسات

قالت فكتوريا بتلطف: لا تهتم بذلك ادفعه بها إلى السيدة أو اشتر لنفسك بها بعض الحلويات

- كما لا يبدو أن لدي أية طوابع أيضاً

- لا يهم، إني لا أكتب رسائل أبداً

قال السيد غريبهولتر، ولكن دون كثير من الدهشة: يمكني إعطاء في جميع البنك لاحقاً

لا، شكراً سيدي، ولكن هذا غير تقويدي بكتاب تركه؟

عاد الغضب إلى السيد غريبهولتر وسأل بحدة: ولماذا يجب علي احتفاظك كتاب تركه؟

- هذا هو الإجراء المعتاد

سحب السيد غريبهولتر ورقة وكتب عليها بضعة أسطر على عجل ثم مدها إليها وقال: هل يكفيك هذا؟

نظرت الآنسة جونز على الورقة شهرين كطابعة احترافية واحدة منهم بالأحطاء، وهي لا تحسن النهجئة وقد تم إنهاء خدماتها بسبب تبطيئها للوقت أثناء ساعات العمل

كشرت فكتوريا وقالت: لا أكاد هذه تكون تركيه!

- يكن المقصود أن تكون كذلك

- أعني أن عليك القول -على الأقل- إنني لبقة ومترنة ومحترمة، هل كنت بالحسبة، وربما أمكنك أن تضيف أني كريمة

صاح السيد غريبهولتر: كريمة؟!

نظرت فكتوريا بطرف بنظرة بريئة وقالت بهدوء: كريمة

تذكر السيد غريبهولتر العديد من الرسائل التي أملاها على

فكتوريا وطبعتها، فقرر أن الوقت قبل شحنه الشحمل سحب الورقه يمزق ومزقها وكتب رسالة جديدة

لقد عصف الأنسه جوبر معي لمده شهرين كطبعه أخرى، وهي تغادر الحمل نتيجة العائلي في بلاك المكتب

- كيف تجدين هذا؟

- كان بالإمكان أن يكون أفضل، ولكنها تفي بالغرض

• • •

كان دنك -إذن- هو موضوع تأملات فكتوريا حين جلست وهي حقيبتها راتب أسبوع (إلا تسعة بنسات) على مقعد في حديقه فيرجيس التي كانت قطعة مستطيله من الخضرة تحيط بها الأشجار ويطل عليها مخزن عالي البناء

كان من عادة فكتوريا في كل يوم لا مطر فيه أن تشتري شعيره حين بالحس والبدوره من أحد الأكشاك، وأن تأكل دنك الغداء البسيط في هذا الجو شبه الريفي واليوم، وهي تقضم وجبتها متأمله، كانت تقول نفسها أشياء أخرى إن لديها وقتاً وتكتاً لكل أمر وإن المكتب لم يكن المكان المناسب لتقييد روحه رب العمل إن عليها في المستقبل أن تكبح تلك الحيويه الطبيعيه التي قادتها إلى محاولة إضفاء الحياة والبهجة على وظيفه مملله، وهي هذه الأثناء ستكون متحررة من تلك المؤسسه التي كانت تعمل بها، وقد ملأها توقع الحصول على عمل في مكان آخر بإحساس لذيذ من الترقب

لقد كان فكتوريا تشرح دائماً عندما تكون على وشك تولي وظيفه جديده، وكانت تشعر دوماً بأن المرء لا يدري أبداً ما الذي يمكن أن يجدّ من أمور

وراحت آخر ما بقي لديها من وقت الخير على ثلاثة من عصافير الدوري الجائعه التي راحت تتصارع فور إلقائه على وشك الطعام، وقد أن الكسب توزيع الطعام حتى انتهت لوجود شاب يجلس على الطرف الآخر من المقعد، كانت فكتوريا قد انتبهت لوجوده بشكل مبهم أصلاً، ولكنها لم تكن قد لاحظته حتى الآن، فقد كان يحمل معطفاً بالحلول المستعيب الجيده وقد محا ما لاحظته الآن من الشاب (ولكن براويه عينه فقط)، فقد كان شاباً وسيماً أشقر ذا وجه يوحي بالحزم وعينين شديدتي الزرقه خُيّل إليها أنهما كانتا تراقبانها منذ بعض الوقت بإعجاب خفي

لم يكن لدى فكتوريا كوابح تمنعها من مصادقه شباب غريبه في الأماكن العامه، فقد كانت تعبر نفسها حكماً ممتازاً على الشخصيات وقدرة سمحاً على كبح أي تعبير عرفي وقح من جانب الرجال

ابتسم له بشكل مكشوف، فاستجاب الشاب (مثل دمية متحركه جذب المرء خيوطها) قائلاً مرحباً، هذا مكان رائع من تأثين دوماً إلى هنا؟

- كل يوم تقريباً

لم يتحمس خطي في المجيء إلى هنا أبداً من قبل أكان ذلك الذي أكلته هو خطأك؟

نعم

لا أحسبك أكلت ما يُشبعك. كنت مسعور جوعٍ ولم تأكل شيئاً سوى ما أكلت. هل رأيت بالدهاب لتناول العشاء في مطعم في شارع ثوتنهام كورت؟

لا، شكراً لقد أكلت، ولا أستطيع تناول المزيد الآن

توقعت منه أن يقول "هل ذهبت في يوم آخر؟"، ولكنه لم يقل ذلك، بل اكتفى بأن سهد ثم قال "اسمي إدوارد، ما هو اسمك؟"

فكتوريا

ولماذا أسماك أهلك على اسم محطة القطارات؟

- ليست فكتوريا محطة قطارات فحسب، إذ توجد الملكة فكتوريا أيضاً

- معهم، نعم، ما هو اسم عائلتك؟

- جوبر

قال إدوارد محاولاً تجربة الاسم على لسانه "فكتوريا جوبر" الاسمان غير متناسبين

أجابت فكتوريا بحماسة "أنت محق تماماً لو كان اسمي حبي لكان ذلك رائعاً، حبي جوبر، ولكن اسم فكتوريا يحتاج إلى اسم آخر يوحي بالطبقات العليا، فكتوريا سافيل وست مثلاً، هذا ما يحتاجه المرء؛ شيءٌ يملأ بطقطقة الفم

قال إدوارد باهتمام يوحي بالتعاطف "يمكنك إلحاق اسم آخر مع اسم جوبر

- مثل بدفورد جوبر

- أو كريسبروك جوبر

- أو سيت كلير جوبر

- أو لوسدبل جوبر

ثم يقطع هذه اللعبة تسليه الأنظر إدوارد إلى ساعته، حيث هب فجأة برعب "يجب أن أهرع عائداً إلى مديري البنك، هم وعدوا عمك أنت؟

- لقد تركت عملي؛ طُردتُ هذا الصباح

قال إدوارد باهتمام حقيقي "آه، إني آسف لذلك

- لا سدد عواطفك، فأنا غير آسفة أبداً على ذلك، وهذا لسبب واحد، وهو أني سأحصل على عمل آخر بسهولة، وفوق ذلك فقد كان الأمر ممتعاً حقاً

ثم بدأت تأخير إدوارد أكثر بأن سردت له وصفاً حياً للمشهد الصباحي الذي جرى معها، معيدة بشكل شجاعة "سيدة غريبهولمز" وإدوارد يصغي وهو يهز رأسه الأسود، وأخيراً عندما أنهت رائعة حظها يا فكتوريا "يجب أن تكوني ممثلة

شتت فكتوريا هذا الإطراء بابتسامة سعيدة وقالت "لا، لن

لأفضل لإدوارد أن يركض إلى عمله إن كان لا يرغب بأن يُعرف هو لآخر

قال "نعم ولن أكون قادراً على الحصول على وظيفة جديدة بنفس الشهرة التي ذكرتها" ثم قال وهي صورة شيء من الحسد لا بد أن من الرائع أن يكون المرء طابع اختراع جيد

اعترفت فكتوريا بصراحة قائلة "أن بعض طبيعة اختراع جيد في الواقع، ولكن من حسن الحظ أن أسوأ طابعات الاختراع يمكنهم الحصول على عمل في هذه الأيام بعض يحصلن على الأقل- على عمل في التعليم أو في المؤسسات الخيرية" فهداء المجلات لا يسعهما دفع رواتب عالية، ولديك فهما بأحقاد موجودات من أمثالي إنهي أفضل تلك الوظائف التي تكون مع المؤسسات عالية الثقافة، فتلك الأسماء والعبارات العلمية تطيعه إلى "الحد الذي لا يشعر المرء معه بالخجل جداً من عدم معرفته بنهجتها" لأن أحداً لا يعرف بهجتها أصلاً! ما هو عملك؟ أحسب أنك خرج من الخدمة العسكرية هل كنت في القوة الجوية الملكية؟

بحماس جيد

أكنت طياراً مقاتلاً؟

- صحيح مرة أخرى لقد كانوا متحمسين جداً معي هناك، ولكن المشكلة أنها لسنا على تلك الدرجة من الذكاء أعني أن المرء مع يكن بحاجة لأن يكون ذكياً في القوة الجوية لقد وضعوني في مكتب فيه الكثير من الملفات والأرقام، ويتطلب الكثير من التفكير، فقد

كنت متأكداً أن الحرب قد بدأ وكأن كل شيء كان دون أي هدف على الإطلاق، ولكن هذا هو الموجود إن معدل ضبط المعلومات قليلاً لا يدرك المرء معه لا يُحس حيث أبداً

أرسلت فكتوريا برأسها متعاطفة، وتابع إدوارد يقول بمرارة لم يعد على علاقة بالواقع ولا اطلاع له على ما يحدث من أمور أبداً كان الأمر على ما يرام أثناء الحرب، حيث كان بوسع المرء أن يعرف مواجهة رغم كل المعلومات لقد حصلت على وسام الطيران مثلاً ... هذا الأداء فربما كان بوسعي اعتبار نفسي شخصاً لا يقدم ولا يؤخر

- ولكن لا بد أن يوجد

لقد توقفت في وسط جملتها وقد شعرت بأنها غير قادرة على أن تصوغ في كلمات فداحتها بأن تلك الخصائص التي جعلت لأصحابها أوسمة الشجاعة والنسر لا بد أن يكون لها موضع في مكان ما من عالم سنة ١٩٥٠

قال إدوارد بعد شعر نفسي بعض الشيء "أن لا أكون ناقماً مضيداً في أي مجال لأفضل أن أسرع بالذهاب أكون هل تصدقين أنني هل سيكون من موضعه الشديدة أن أطلب منك

وعندما ضحكت فكتوريا هي دهشة وهي تدمدم ويحمر خجلاً خرج إدوارد آلة تصوير صغيرة وقال "أحب كثيراً أن أحذ تلك صورة؟ قد تصير قيمة إلى يوماً ما

هنت فكتوريا بحبه أول محبة إلى بغداد؟!

- نعم ولا أنسى أن لم أكن دائماً الآن مع أنني كنت متحمساً تماماً لهذه السفرة صباح اليوم! وهذا هو السبب في قبولي بهذه الوظيفة في الوقت الحاضر لكي أخرج من هذا البلد

- ما نوع هذه الوظيفة؟

- وظيفة مطيعة تماماً لقائده، وشعره، ومن إلى ذلك رئيسي اسمه الدكتور راشون. تسلّق حائط من الألقاب خلف اسمه، وهو ينظر إليك بمعاطفه مقرفصة من خلال نظارته. إنه حريص جداً على السمو برفعة الأخلاق وعلى نشر ذلك جهد استطاعته، ولذلك فهو يفتتح مكتبات في أماكن بعيدة. ويريد افتتاح مكتبة في بغداد الآن بعد أشرف على ترجمة أعمال شكسبير وملتون إلى العربية والكردية والفارسية والأرمنية، وهو ما أراه أمراً سخيفاً؛ لأن المجلس الثقافي البريطاني يقوم بنفس المهام تقريباً في كل تلك المناطق. ومع ذلك، فهذا هو الواقع. هذا يوفر لي وظيفة، ولذلك عليّ أن لا أتذمر

ما هي طبيعة العمل الفعلية؟

إنه لا يعدو أن يكون بمثابة خادم مطواع للرجل في مهمة المطاف أشتري الطوابع، وأجري المحولات، وأملأ استمارات حوالات السفر، وأتأكد من حزم كل تلك الكتب الشعرية المطبعة، وأركض من هنا إلى هناك. وبعدها، عندما نصل إلى هناك يُفترض بي أن أقيم صداقات. شيء أشبه بتشجيع الحركات السياسية السجينة والثقافة الأمم كلها في موجة واحد من أجل الرفعة والسمو

كيف سيره إدوارد بردار كيف ناضطراب، ثم قال: إنه عمل كريه جداً بصراحة، أليس كذلك؟

لم تكن فكتوريا قادرة على تقديم الكثير من العزاء. ومضى إدوارد قائلاً: ولكنك إن لم تكن لديك مانع من تصويري لك؟ صورة جيدة وصورة واحد سطرين ساشره الي. نعم، هذا رائع

فاضطرت آلة التصوير مرتين وأظهرت فكتوريا ذلك الرضا الذي يظهره شابة أدركت أنها نالت إعجاب رجل

قال إدوارد: ولكن من المؤسف حقاً أن أضطر إلى المغادرة بعد قليل. إنني سعيد عارم على التحدي عن هذه الرحلة. ولكن أحسب من غير الممكن أن أعاود ذلك في محطة لاحقة. ليس بعد كل تلك الاستمارات الكريهة والتأشيرات وغير ذلك. لن يكون ذلك تصرفاً لائقاً، أليس كذلك؟

قالت فكتوريا بحزن: قد لا يكون الأمر على تلك الدرجة التي تصفها من السوء

أجابها إدوارد بارتياب: نعم. الأمر الغريب هو أنني أحس بأن في هذه المسألة شيئاً مريباً في مكان ما

شيئاً مريباً؟

نعم، شيء واقف ما. لا تسأليني لماذا، فليس لدي أي سبب. إنه من تلك المشاعر التي تنتاب المرء أحياناً، انتابني مرة بعض الشعور إزاء ويت المحرك الأبيض في طائرتي، فبدأت أبحث

والفشل، وبالفعل كنت هناك جالسة بعيدة عنه في مقعد الاحتياطي بسرعة المضمار

كنت أتمنى أن يتحدث إليّ عن مفهومه عن السعادة عكتوريا، ولكنها فهمت الفكرة بعامة فقد كنت مشغولة بما فعله السيد راتليدج؟

- لا أرى كيف يمكن أن يكون كذلك. أعني أنه محترم جداً ومثقف، وينتمي إلى تلك الجمعيات الفكرية ... وربما علاقته وثيقة بكبار رجال العلم وعلماء الكتاب لا ... مجرد شعور جيد، مسيّل للرمي ... وكان حين ذهبت الجنس ... بعد ... قائمة ... بيض

وكذلك ...

- ما الذي ستفعلينه؟

أجابت فكتوريا بتجهم. سأذهب إلى وكالة عيدويك في شارع غلوستر وأبحث عن وظيفة أخرى

- وداعاً يا فكتوريا

وداعاً يا إدوارد، أتمنى لك حظاً موفقاً

- لا أحسب أنك ستفكرين بي أبداً مرة أخرى

بلى، سأفكر

لكنك تختلفين كل الاختلاف عن أية فتاة عرفتها من قبل

كنت أتمنى فقط

وقفت ... فكتوريا ... إدوارد ... الهراء يجب ... ح

... في شارع بيكاديلي في قلب لندن ... في مكتب وزير ... عن مستقبله ... في مكانه ... فقد ... ولم ... كان ... حقاً ما ... في موقف يشبه موقف روميو وجولييت ... فجأة ... واحداً! قلبان محبان يُمزق بينهما

يجب أن أكون ... وهي تنفض ذات الخبر عن جاكتة ... في نفس ... خرجت من حديقة هايد جيمس ... شارع غلوستر كنت قد ... إلى ... أنهما ... وقع ... ؟ قد ... شك ... أريد ... القرار الثاني الذي اتخذته فكتوريا فكان يعني ... إدوارد سيكون ... في بغداد، فليس أمامها ... أن تذهب إلى بغداد أيضاً. وكان الأمر الذي يشغل ... الآن هو كيف يمكن ... أن يراودها شك في ... يمكن ... شكر ... ياجر ... قد كانت ... متعلقة ... شعبيته

لست ... لا ... في ... السفر إلى بغداد بطريقة ما

• • •

الفصل الثالث

وجب فندق الساعي بالآنسة آنا شيل بكل العنايه التي يبديها الصدق بربون عديم نافع لأهميه، فقد سأل الفندقيون عن الصدق عن صحه السيد مورغانثال وأكدوا أن ما عليها سوى أن تحرمهم إذا لم يعجبها الجناح الذي خصصوه لها ذلك لأن آنا شيل كانت تمثل الدولار.

يذكر الآنسه شيل ملابسها وأحرف اتصالاً هاتفياً مع رقم في منطقه كنسبفس، ثم استقب المصعد إلى الطابق السفلي لتخرج من خلال الباب الدوار وتطلب سيارة أجرة. أتت السياره فاستقلتها وأمرها بالتوجه إلى محل كارتييه للحلي في شارع بوند.

وفيما خرجت سياره الأجره من مدخل الفندق إلى شارع ستراند نظر إلى ساعته -فجأه- رجلٌ أسمر طويل القامه كان يقف ناظراً إلى واجهات المحلات، ثم لوح بسياره أجره كانت تمر قريباً منه بتحسن بحظ بعد أن قضى ساعه طويله من الوقت فيه عن سيدة كانت تحمل أكياساً وتلوح لها بالمنديل.

انطلقت سياره الأجره في شارع ستراند تاركه السياره الأولى

على مرمى النظر، وعندما توقفت السيارتان تماماً لإشارات الضوئيه عند منعطف ساحه ترافلغار نظر الرجل الذي استقل سيارته الثانيه من نافذه السيارة وأشار بيده بإشاره خفيفة، فاشتعل محرك سيارته وجعله كالب تقف في الشارع بجانبي عند نوس الأدميرالية وانطلق إلى الشارع خلف سيارة الأجرة الثانيه.

استؤنف السير من جديد، وقبل سلك سيارة الأجرة التي تستقلها آنا شيل الطريق المتجه يساراً إلى شارع بول مول، انعطفت تلك السيارة الأخرى التي يقل الرجل الأسمر بسيارته، مستمره في الالتفاف حول ساحة ترافلغار. كانت السياره الخاصه (وهي رمادية من نوع ستاندرد) قد أصبحت الآن قريبه من سيارة آنا شيل، وكان فيها شخصان، شاب قبيض البشرة جامد النظرة خلف عجله القياده، وسيده ابيضة الثياب إلى جانبه. تبعت سيارة الستاندرد سيارة آنا شيل في بكاديلي، ثم في شارع بوند، وهناك توقفت سيارة الأجرة حيث خرجت منها الفتاه ودفعت بمرح وتصوره نقديه شكراً جزيلاً لذلك.

تعقب السيارة، وقفت الفتاه في الشارع تنظر حين حين وآخر- إلى واجهات المحلات. توقف سير السيارات عند أحد المفارق، وتجاوزت الفتاة سيارة ستاندرد التي كانت تقلها وسيارة آنا شيل معاً، حتى وصلت إلى محل كارتييه ودخلته.

دفعت آنا شيل الأجره بسخاء ودخلت محل الحلي بدورها، وهناك قضت بعض الوقت وهي تنظر إلى قطع مختلفة من الحلي، وفي نهايه الأمر وقع اختيارها على الياقوت الأزرق والألماس، ثم كتب

شيكاً بثمنه وعندما رأى مدير المحل الاسم على الشيك ابتسم أسلوبه بمزيد من العناية وقال: يسعدني أن أراك ثانية في أي وقت يا آنسة شيل هل السيد مورجانثاو هنا؟

لا

- كنت أتساءل عن ذلك، لأن لديه هنا مجموعة رائعة جداً من الياقوت السحري الأزرق، وقد أعرف اهتمامه بهذا النوع من الياقوت هل تعانين في رؤيتها؟

عرضت الآنسة شيل عن عدم مصاحبته، ثم أنهت ما يعتقد الموقف من إعجاب بالياقوتة ووعدت بذكرها أمام السيد مورجانثاو ثم خرجت ثانية إلى شارع بوند، فلم تعرف الشابة التي كانت تنظر إلى قرط من الحلي عن عدم قدرتها على اختيار ما تريده ثم خرجت هي الأخرى

كانت السيارة الرمادية قد انعطفت شمالاً في شارع كراون ودخلت إلى ميدان بيكاديلي، وكانت الآن تدخل ثانية شارع بوند من جديد ولكن الشابة لم تظهر ما يفيد معرفتها على السيارة

انعطفت آنسة شيل إلى شارع آركيد، ثم دخلت محلاً لبيع الأزهار، وهناك طلبت عشرات من الورود حمراء اللون، وآنية من زهور البنفسج الفرنسية الضخمة، وعدداً من أزهار الميمنت، وآنية من أزهار الميموزا، ثم أعطت البائع عنوان تيرسفيلد وطلبت إليه أن يدفع سكيف دينت اثني عشر جنيهاً وشلنين عشر شلناً يا سيدي

دفعت ثمن المشتريات وخرجت وسألت الشابة التي كانت قد دخلت محل الأزهار نفسه عن ثمن باقة من الورد، ولكنها لم تشترها

عبرت آنسة شيل شارع بوند وصعدت في شارع بيرلنجتون، ثم انعطفت إلى شارع سافيل رو، وهناك دخلت محلاً للحياكة كان متخصصاً بأزياء الرجال، ولكن القائمين عليه كانوا يوافقون على تفصيل بدلة نسائية لزبائن خاصين في بعض الأحيان

استقبل السيد بومورد الآنسة شيل بكل ما يستحقه زبون خاص القيمة، وتم استعراض الأقمشة المناسبة لليدلة قال السيد بومورد بمكر لحسن الحظ- أن أعطيت موعده الجيد التي تتميز بها صادراتنا الخاصة. متى ستعودين إلى نيويورك يا آنسة شيل؟

- في الثالث والعشرين من هذا الشهر

يمكننا -إذن- تدبر الأمر بشكل جيد. أحسب أنك ستعودين بالباخرة، أليس كذلك؟

بلى

وكيف هي الأمور في أمريكا؟ إن الأمور محزنة جداً هنا محزنة جداً بالفعل

هز السيد بومورد رأسه أسفاً كعجوز يشتكي حاله مريض ثم قال: لم يعد بالأمور طعم إن كنت تفهمني، ولا يأتي أحد ممن يقدرون جودة العمل حق قدرها أندرين من سيفصل لك بدلتك

يا آنسة شيل؟ إنه السيد لانسينك؛ عمره اثنان وسبعون عاماً، وهو الوحيد الذي أستطيع حقاً أن أثق بتصنيفه لثياب ربات المتعهرين كل الباقين

ثم مضى السيد بولفورد الباقين بإشارة من يده السمينة وقال الجودة... هذا ما كانت هذه البلاد مشهورة به. الجودة! ما من شيء رخيص... ما من شيء مبهرج. وعندما انخرطت في الإنتاج الجماهيري الكبير لم تخسر هذه حقيقة. هذا من اختصاصي بلدك أنت يا آنسة شيل. وإني أقول ثانيه إن ما ينبغي أن نركز عليه هو الجودة. أن نأخذ وقتنا في صنع السلعة ونعتني بها ونُحرجها بحيث لا يمكن لأحد في العالم التفوق عليها. والآن، في أي يوم يجري القياس الأول لبدلة، في مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم؟ في الحادية عشرة والنصف؟ شكراً جزيلاً

شقت الآنسة شيل طريقها عبر ثنايا المصانع القديمة الكئيبة وخرجت ثانيه إلى ضوء النهار. نزعت لسيارة أجرة وعادت إلى فندق السافوي، واقتربت سيارة أجرة أخرى من الجانب الآخر من الشارع وهي تقل رجلاً أسمر ضئيل الجسم، ثم أحدث نفس طريق السيارة السابقة، ولكنها لم تعطف إلى فندق سافوي، بل انعطفت خلفه، وهناك صعدت إلى السيارة امرأة قصيرة مكتنزة الجسم كانت قد خرجت -لتوها- من المدخل الخاص بالخدمات في الفندق

هادا حصل معك يا لويزا؟ هل فتشتِ حقيبتها؟

- نعم، لا يوجد شيء

تناولت آنا شيل غداءها في المطعم، حيث تم حجز مائدة لها عند الباب. وقد انتظر وليس النادل في المطعم بضعة أمتار من مائدة السيد أوتو مورغانثال

بعد الغداء أحدثت آنا شيل مفتاح حقيبتها وصعدت إلى جناحها كان السرير قد رُتّب، وقد وُضعت مناشف جديدة في الحمام، وكان كل شيء مرتباً بعناية. ذهبت آنا إلى الحقيبتين الصغيرتين اللتين تحويان أمتعتها، وكانت إحداهما مقفلة والأخرى غير مقفلة. ألقت نظرة على محتويات الحقيبة المفتوحة، ثم أخرجت مفاتيحها من حقيبة يدها وفتحت الحقيبة الأخرى. كان كل شيء مرتباً ومطوياً كما طوته هي، ولم يتم -ظاهرياً- لمس شيء أو إعادته. كانت حقيبة جلدية صغيرة موضوعة في أعلى محتويات الحقيبة، كما كان هناك آلة تصوير صغيرة وفيلمان في داخل الحقيبة. أما الفيلمان فكانا ما يزالان محزومين معاً، مرتبت آنا ظهرها على مقعد الحقيبة ثم قلبته للأعلى، وابتسمت بكل هدوء. فالشعراء الوحيدة التي كانت موضوعة هناك ثم بعد موجودة. قامت برش شيء من البودرة على الجلد اللامع لحقيبة الصغيرة ثم فحصتها فوجدت أن الحقيبة ظلت مطبقة لامعة. لم تكن عليها بصمات. ولكنها كانت قد أمسكت بتلك الحقيبة في ذلك الصباح بعد أن وضعت هي شعرها قليلاً من الكريم لتصده وتعريه به، ولذلك ينبغي أن تكون على الحقيبة بصمات... بصماتها هي

ابتسمت ثانية وقالت لنفسها: عمل متقن، ولكنه ليس متقناً بما فيه الكفاية!

وبسرعة وضعت بعض ملابس في حقيبة صغيرة وعرجت بشقته إلى الطابق السفلي حيث تم استدعاء سيارة أجرة لهما. وقد طلب من السائق التوجه إلى الرقم ١٧ في ساحة إيلمرلي هاردر

كانت شقة إيلمرلي هاردر ساحة هادئة مسحة هدوءاً في كيـــنس دفعت أنا أجرة السيارة وأسرعت صاعدة بدرج وصولاً إلى الباب الأمامي للبيت المقصود. فرحب الجرس فضغطت به الباب بعد دقائق امرأة كهلة ذات وجه يبتسم بالأرياب. ولكن سرعان ما تعرجت أساريرها لـــم مرحبة كم سترحب الآنسة إيفي برؤيتك! إنها في المكتب في مؤخرة المنزل. لم تكره هدوءك هي وحدها التي كانت تبقي على معنوياتها جيدة

مضيت أنا بسرعة عبر الممر المظلم وفتحت باباً عند نهايته كانت غرفة صغيرة قديمة ولكنها مريحة، وفيها مقاعد بنية ضخمة مجلدة بالجلد. فرحت المرأة التي كانت تجلس على أحد تلك المقاعد وقالت آنا، حسني

إيفي

بدت العرائن القبلات بكل حب، ثم قالت إيفي لقد تم ترتيب كل شيء. سأدخل هذه البنت التي أرجو

فاطمئنك أن قائلة هذا الجهاز، سيكون كل شيء على ما يرام تماماً

* * *

وجلس الآنسة الضئيل معطفه المطري إلى أحد الأشياء المعلقة في مجلس كـــنس وأدار قرص الهاتف على رقم معين

أهذه شركة غراموفون دولفالا؟

نعم

معك سائدرز بكلمة

سائدرز صاحب المهر؟ أي مهر؟

مهر دجنه. قدم تقرير عن ذلك المهر بعد وصف هذا يصاح من بيوبورث. ذهب إلى محلات كارتيه حيث اشترت خاتم ياقوت وألماس كلف مئة وعشرين جنيهاً، ثم ذهبت إلى محل للأزهار واشترت منه ثلاثة عشر جنيهاً وثمانية عشر شلناً من الأزهار. ثم سافرت إلى مقصه في منطقه بورنماوث. ثم طلبت حجرته معطف وشورة في محلات بوبورد وأوزري. لم يأتي من هذه الشركات والمحال تم تعرف عن المشتريات مشوهة، ولكن تم فحصها بعنايه مفصلاً. ثم تفتيش غرفته في الفندق، فلم يُعثر على شيء يثير الريبه. بعد حقيبة جلديه صغيره، دخل حقيبه سفر تحتوي على أوراق تتعلق بالمصالح شركة بيرنج مع شركة ورنشتين، وليس في ذلك ما يثير الريبة هناك الله تصوير وفيلم ثم يُستخدما بعد كما يبدو. وسبب اختفاء وجود سجلات وثمانيه على الفيلم قد يأسيدانهما. ولكن ليس أن الفيلم الأصليين كانا هادئين ولم يُستخدما بعد. أخذت الشرطة حقيبة صغيره وذهبت إلى أختها في ١٧ إيلمرلي هاردر. وقد دخلت أختها هذا المساء مقصه في منطقه بورنماوث لإجراء فحص داخلي،

ومن التأكد من ذلك من الصحيفة نفسها ومن دفتر مواعيد الجراح أيضاً وبعد زيارة أخرى بريئة تماماً وليس فيها ما يثير الشكوك ولم يبدُ عليها أي ارتباك أو انتباه لملاحظتها وقد توقعتُ أنها ستمضي هذه الليلة في المستشفى وقد أبقت على عرفها في فندق سافوي ستكون عودتها إلى بيوبورك بو سطة الباخرة التي حجزت فيها مقعداً في الثالث والعشرين من الشهر

توقف الرجل الذي أسمى نفسه «سانديرز صاحب الشهر» ثم أضاف ملاحظة استدراكية بدا وكأنه لا يريد تسجيلها رسمياً ولكن سألني عن رأيي لعب إن الأمر كله خدعة وتمثيل! لو كان ما تفعله هو إلقاء الأموال داخل اليمين وداخل الشمال اثنا عشر حبهاً وثمانية عشر شلناً على الأرصفة فقط؟ أمر عجيب!

* * *

الفصل الرابع

يمكن الإسهاب كثيراً في وصف ما تحتي به فكتوريا من بهجة وانطلاق، بحيث لا يحظر بها بالخطه وحده يمكنه تمثل في الحصول على ما تريده أيها امرأة لا تعرف اليأس، ولقد كان من المؤسف بالتأكيد أن يسيء لها في اللحظة التي وقعت فيها في حب ذلك الشاب الوسيم أنه على وشك المغادرة إلى مكان يبعد سحراً من ثلاثة آلاف ميل، ولو كان ذاهباً إلى بيرمنغهام أو بروكسل لهان الأمر

أما أن يكون وجهته بغداد فقد رأت فكتوريا أن ذلك عائد بحظها التعس! ومع ذلك، ورغم صعوبة الأمر فقد بدت الذهاب إلى بغداد بشكل أو بآخر مشت في شارع بوسهام كورت وهي تحيل في دهنها الطرق والوسائل الممكنة بغداد ما هو السبيل الممكن في بغداد؟ يقول إدوارد إنه «الثقافة» أيمكنها يا ترى أن تصبح لجنة الثقافة بشكل ما؟ اليونسكو مثلاً؟ كاتب اليونسكو ترسل الناس دوماً إلى كل مكان في هذه الدنيا، وأحياناً ترسلهم إلى أجمل الأماكن. ويمكن فكتوريا فكرت بأن من ترسلهم اليونسكو هم في

العادة ... متوفاة دون شهادات جامعية التحق بهذا المعهد في وقت مبكر

قررت فكتوريا أخيراً أن تلائم بأني قبل السفر توجهت بحقوانها نحو حدي وكالات السفر، وهناك قدمت طرح أمتعتها وقد علمت أن السفر إلى بغداد لا ينطوي على أية مخاطر، إذ يمكن للمرء أن يسافر جواً، أو بالقطار البحري الطويل إلى البصرة، أو بالقطار إلى حلب ثم بالباخرة إلى بيروت ثم عبر الصحراء بالسيارة يمكن للمرء الذهاب عبر مصر، كما يمكن له الذهاب بالقطار طوال الطريق إذا ما عزم على ذلك، ولكن مكتب كانت صعبة وغير مؤكدة في الوقت الحاضر وتكلف مدة صلاحيتها تقضي عندما يستلمها المرء، خلاصة القول أن الوصول إلى بغداد لا يشكل أية صعوبة أبداً طالما أن لدى المرء مبلغاً يتراوح بين ستين جنيهاً وثمانين جنيهاً في جيبه

وبما أن فكتوريا لا تملك الآن إلاّ ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات (إلا تسعة بنسات)، بالإضافة إلى خمسة جنيهات وثلاثي عشر شلناً في صندوق توفير البريد، فإن سفرها بالطريقة البسيطة المستقيمة كان أمراً مستحيلاً

قامت بتحريات حول إمكانية حصولها على وظيفة معلمة جوالة، ولكنها فهمت أن هذه الوظائف يكثر حولها التنافس وتتطلب فترات انتظار طويلة. بعد ذلك قامت فكتوريا بزيارة وكالة عبدريث حيث حيتها الآنسة سيمبسر وهي تجلس بثقة خلف مكتبها، حيتها

كمن يحيي شخصاً كُتب عليه طول التردد إلى هذه الوكالة بين الحين والآخر

"انهض! لأنسة جونز.. لا تقولي إنك تركت خدمتك من جديد بعد كنت آمل حقاً أن تكون هذه الوظيفة الأخيرة"

قاطعتها فكتوريا بحزم قائلة "وظيفة مستحيلة تماماً، لا يمكنني أن أشرح لك ما اضطررت إلى مجابهته فيها"

احمرّت وجنتا الآنسة سيمبسر الشاحبتان على نحو جميل وقالت "أمل أن لا يكون أرجو فعلاً أن لا يكون إنه لم يبدُ لي حتى من ذلك النوع من الرجال، ولكنه رجل قطُّ بعض الشيء ستتضح رجولته لا يكون

قالت فكتوريا "لا، الأمر على ما يرام"، ثم اختالت لإخراج لبسته بعض شجاعة وأضافت "أستطيع الاعتناء بنفسي جيداً" ثم قسمت بأنها لبنانية الجريئة

راجعت الآنسة سيمبسر سجلاتها ثم قالت "جمعية سيت أوزورد تساعد الأمهات تريد طباخة، ولكنهم لا يدفعون الكثير بالطبع"

سألت فكتوريا بسرعة "أتوجد أية فرصة في الحصول على عمل في بغداد؟"

قالت الآنسة سيمبسر بدهشة محببة "في بغداد؟!"

رأت فكتوريا أن رد فعل الآنسة سيمبسر يوشك أن يوحي بأنها

طلبت وظيفه في المطب الجنوبي. قالت إنني أود كثيراً الذهاب إلى بغداد.

- لا أكاد أرى. أتقصدين الذهاب بوظيفة سكرتيرة؟

بأية وظيفة كانت، ممرضة أو طباخة أو للعناية بمجنون بأي شكل كان.

هزت لأنه سيدر رأسها بيأس وقالت: أخشى أن لا يكون لدي الكثير من الأمل في ذلك. كانت هي سيدة بالأمس لديها ابنتان صغيرتان وطلبت اصطحاب أحد معها إلى أستراليا.

ضحك فكتوريا أسرالي بإشارة من يده وهضب قائلة: إنها ستعلم بأي شيء تعامل أجرة الطريق فقط... هذا كل ما أحتاجه.

ثم أجاب على الفصول في عيني سيدر بأن قالت شقوحه إن لديّ قريبة هناك. وقد سمعت عن وجود وظائف جيدة دخل مرتفع، ولكن على المرء طبعاً أن يذهب إلى هناك أولاً.

وعندما خرجت فكتوريا من وكالة غيلدريك كررت قائلة لنفسها: نعم، لا بد للمرء أن يذهب إلى هناك.

وقد ظهر عامل إزعاج جديد لفكتوريا، فكلما هو معتاد عندما يركز المرء انتباهه فجأة على اسم أو موضوع معين، بدا لها أن كل شيء قد تواطأ فجأة ليعرض فكره بغداد على وعيها. هي صحيفة المساء التي اشترتها رأت فقرة قصيرة تقول إن الدكتور باوشوب جوبر، عالم الآثار الشهير، قد بدأ التنقيب عن مدينة موريك الأثرية

هي تقع على بعد مئة وعشرين ميلاً من بغداد. وأن إعلاناً في الصحيفة على ذكر خطوط الشحن البحري إلى البصرة أومن هناك بالقطار إلى بغداد والموصل وغيرهما من المدن. وفي الصحيفة التي ورثت بها أرصفة درج الجوارب استرعت انتباهها بضعة أسطر تتحدث عن الظلمة في بغداد. وكان فلم "نص بغداد" يُعرض في دار السينما العربية. وفي المكتبة العامة التي يتردد عليها كبار المستعربين وجدت فكتوريا عدداً من المجلات التي تتحدث إلى وجهها. كانت تُعرض سيرة حياة جديدة لهارون الرشيد، خليفة بغداد.

وبدا لها أن بغداد قد أصبحت فجأة - في بؤرة اهتمام العالم كله. ومع ذلك، فحتى الساعة الثانية إلا ربعاً من بعد ظهر ذلك اليوم لم تكن قد سمعت ببغداد، ولم تكن قد فكرت فيها أبداً بالتأكيد.

كانت احتمالات الوصول إلى هناك ضعيفة، ولكن لم تكن حتى فكتوريا فكرة بالاستسلام. كان لها عقل خصب ونظرة متفائلة ومن ثَمَّ إذا ما أردت عمل شيء فستجد دوماً طريقة ما لعمله.

وقد استغلت ليلتها في وضع خاتمة بالطرق التي يمكن اتباعها وقد جاء في القائمة:

المحادثة مع وزارة الخارجية؟

وضع إعلان؟

المحادثة مع الهيئة الدبلوماسية العراقية؟

ماذا عن شركات النفط؟

أو شركات شحن النفط؟

المجلس البريطاني؟

مكتب سفريدج للاستعلامات؟

مكتب تقديم المشورة للمواطنين؟

ولكنها اضطرت للاعتراف بأن أياً من هذه الحقول لم يكن واعداً، وعندها أضافت إلى القائمة

وضع اليد بطريقة أو بأخرى على مئة جنيه؟

* * *

تأخرت فكتوريا في النوم بسبب جهود التركيز الذهني الكثيف الذي بذلته في البيت السابع، وربما بسبب قناعتها اللاشعورية بأنها لم تعد مضطرة للحضور إلى المكتب في يوم التاسع صباحاً

استيقظت في الساعة العاشرة وخمس دقائق، فقفزت عاشرة من سريرها وبدأت بارتداء ملابس الخروج، وقد كانت تجري أحر عملية تمشيط لشعرها الأسود المسترسل عندما رن جرس الهاتف فذهبت إليه لتجد على الخط الآخر لأحد سيارات وهي في حالة انفعال: أنا في غاية السرور لأني وجدتك يا عزيزتي، إنها حفلة واحدة من أغرب المصادفات

صاحت فكتوريا بغم؟

إنها مصادفة سعيدة كما قلت. لقد كسرت امرأة تدعى السيدة كليب ذراعها، وهي سوف تسافر إلى بغداد بعد ثلاثة أيام، وهي تحتاج إلى من يساعدها في رحلتها. لقد تحمست بك على الفور

بي لا أعلم حتماً- إن كانت قد لجأت إلى وكالات أخرى

- أنا في طريقي إليها. أين هي؟

- في فندق السافوي

وما هو اسمها السخيف الذي قلته؟ ترييب؟

- لا، بل كليب يا عزيزتي

ثم اختتمت لأنه سيسير حديثها بالقول (وكان من شأن ذلك أن يفسد كل شيء) وهي أمريكية

السيدة كليب في السافوي؟

بل السيد والسيدة كليب. لقد كان الزوج هو الذي اتصل بي عندما

قالت فكتوريا لمحدثتها: "أنت رائعة . وداعاً" ثم نظفت أسنانها بسرعة باستخدام فرشاة وهي تتمنى لو أنها لم تكن على هذا القدر من البين، ثم مشطت شعرها ثانية بحيث يبدو أقل شقاراً وأكثر ملاءمة لدور ملاك الرحمة ودور المستر الخير، ثم أخرجت حوضية التي كتبت لها السيد جريبولز وهرب رأسها أسفاً وهي تنظر بها وقالت لنفسها: ينبغي أن أكون أفضل من ذلك

ترك فكتوريا من الحافلة رقم ١٩ في غرين بارك ودخلت فندق ريتز. كانت فكتوريا قد استعادت من نظرة سريعة ألقتها من فوق كتف مرأة نفراً صغيرة في الحافلة، وبذلك فقد دخلت غرفة المكتب في الفندق وكتبت لنفسها بعض أسطر المديح السخيف برغم أنها حاولت

من اليدي سيتيا براديبري التي كتبت الصحيفة تقول إنها قد غادرت إنكلترا لتوها في طريقها إلى شرقي أفريقيا. كانت فكتوريا ... وهي رائعة في التمريض، وبالغة الكفاءة في كل شيء."

غادرت فندق ريتز وقطعت الشارع ثم مشت قليلاً في شارع البيكادلي حتى وصلت إلى فندق بالدوين، المعروف بأنه مأوى لكبار رجال الدين وأرامل الطبقة الريفية العليا. وهناك كتب موجزة من أسطر لا أكثر كانت أقل من التوصية السابقة فخامة ومظهرية. ثم استقلت الحافلة رقم ٩ مسلحة بتلك التوصيات ومضت إلى فندق سافوي.

وفي قسم الاستقبال سألت فكتوريا عن زوجة هاملتون كليب، وأعطت اسمها باعتبارها قادمة من وكالة عبلدريك. وفيما كان الموظف على وشك رفع سماعة الهاتف توقف فجأة ونظر أمامه قائلاً: ها هو السيد هاملتون كليب.

كان السيد كليب أمريكياً بالغ الطول شديد النحول رمادي الشعر، وكان أسلوبه ينم بالتهذيب والانتباه المتمهل للكلمات.

أخبرته فكتوريا باسمها وأشارت إلى وكالة التوظيف فقال آه، نعم يا آنسة جونز. الأفضل أن تصعدي ساشره وترى السيدة كليب إنها ما تزال في جناحنا في الأعلى، وأنها تجري مقابلة مع شابة أخرى، ولكن ربما كانت الشابة قد ذهبت الآن.

اعتصر دعرٌ شديد قلب فكتوريا. أيقدّر لأمينها أن تكون على هذه الدرجة من القرب، وعلى هذه الدرجة من البعد أيضاً؟

صعد الاثنان بالمصعد إلى الطابق الثالث، وفيما هما يسيران في الممر المفروش بالسجاد السميك خرجت فتاة من أحد الأبواب عند نهاية الممر وجاءت باتجاههما. وقد انتاب فكتوريا نوع من الهلوسة التي رأت معها أنها هي تلك الفتاة التي تضرب، وفكرت في أن ذلك ربما كان بسبب بدلة الضابط المصممة بدوياً والتي كانت تعاني ما تنسى فكتوريا أن ترتديه شخصياً. وقالت لنفسها فيما يشبه الهذيان إن الوحشية الأنثوية العربية. كما أن من شأن البدلة أن تناسب جسمي تماماً، بل من نفس الحجم. لكم أتمنى أن أراها هنا بالقرب!

مرت الشابة أمامهما. كانت تضع قبعة مخملية صغيرة مائلة قليلاً على شعرها الأشقر بحيث يخفي وجهها جزئياً، ولكن السيد هاملتون كليب التفت لينظر إليها بشيء من الدهشة. ثم ما لبث أن قال هامساً: ما هذا... من كان سيخيل هذا؟ آن شيل.

ثم قال كمن يشرح لمصرفه الحريص بأن سعر جونز لقد دهشت إذ عرفت أنه كان قد رأيها في نيويورك منذ أسبوع فقط، وهي سكرتيرة لواحد من أكبر المصارف العالمية هناك.

توقف عن الكلام عند باب في الممر. كان المفتاح مثبتاً في القفل، وبعد طرقه صغيره على الباب فتحه السيد هاملتون ودخل جانباً ليسمح بدخول فكتوريا إلى الغرفة.

كانت السيدة كليب تجلس على كرسي مرتفع المسند قرب النافذة، وقد خطف عند دخولهما كتاب اقرأ قصيره في خفة الطير

ذات فيلين صغيرين حادثين، وكانت ذراعها اليسرى ملفوفة بجبيرة من الجص

عزفها روحها على فكتوريا فهتفت بحماس: آه، لقد كان الحادث كله مؤسفاً. لقد كنا هناك نستمع برفقة لندن، وكانت كل خططنا مكتملة وتذاكر محجوزة لحضور مسرحية لريدرز التي ستعرض في العراق يا لها من خسارة، فأنا لم أرها منذ عرضها الصباحي، ويخيفني أن أقع كان ذلك في كيبك وسط وقت أول درجة حجرية، وها أنا ذا كما ترين هنا في المستشفى وجبرا الكسر صحيح أن الأمر ليس مرهقاً جداً، ولكني خسرت بعض الشيء كما ترين ولا أدري كيف سأتدبر أمر السفر وزوجي خروج مرتبط بعمله تماماً ولا يستطيع تركه قبل مضي ثلاثة أسابيع على الأقل، ولذلك اقترح عليّ أحد ممرضة معي إلى هناك ولكني - بالحقيقة - لن أحتاج إلى ممرضة بمجرد وصولي هناك؛ فابنتي ستقوم بواجبها القيام بكل ما هو ضروري، بالإضافة إلى أن اصطحاب ممرضة سيعني دفع أجور عودتها أيضاً، ولذلك فقد فكرت في الاتصال بوكالات التوظيف لأرى إذا كان بوسعي العثور على ممرضة تأتي معي مقابل أجور سفرها فقط

قالت فكتوريا: أنا لستُ ممرضة بالضبط

قالت دنيث: بوسعه استطاعت فيها أن تروي بأنها ممرضة في الواقع ثم أضافت: ولكن لدي الكثير من الخبرة في التمريض

أخرجت التوصية الأولى وقالت: وقد حدثت بذلك الخبرة من العمل مع المبدي سيئ التدبير لأكثر من عام، وإن كنت مرغمين

يستجار به أفضل سكرتيرة أو مراسلات، فإني عملت سكرتيرة لعمي لعدة أشهر

ثم أضافت بتواضع: إن عمي هو أسلف لانغر

عندك أسفت إدنه، كم هو مضحك

ورأت فكتوريا أن كلا الزوجين قد أعجبا بها بالتأكيد (وهو ما كان يبغي أن يحصل بعد كل ما بذلته من عناء!)

أعجب السيدة كيب التوصيتين لزوجها وقالت بتأثر: يبدو دنيث رائعاً جداً بعثة من السماء، إن حضورك كان استجابة لكثير من أدعيتنا، وفكرت فكتوريا أن ذلك كان فعلاً استجابة لدعاء كثير، ولكنه دعاؤها هي وليس المكان

سألت السيدة كيب: ألست داهية بوسعي وضعه هنا، أم سيعني مغادرتك؟

لقد سبب فكتوريا في حيرة حماستها بتوفير التوصيات، أنها قد تضطر لتغيير أسباب سفرها إلى بغداد، أم وقد أخذتها السيدة كيب على حين غرة فقد كان عليها أن تمثل ارتجالاً وبسرعة، تذكرت الخبرة التي قرأتها بالأمس طالب سوف تلتحق بعمي هناك الدكتور بارنسفوت جونز

حقاً؟ عالم الآثار؟

نعم

سألت فكتوريا: لعلمه ان كانت قد بالغت في إطرائه نفسه

بالعديد من الأعمام المصريين المشهورين، ولكنها مضت قائلة إنني شديدة الاهتمام بعملي، ولكني لا أمتلك بالطبع أية مؤهلات خاصة، وبذلك كان من المستحيل أن تدفع بعثة الآثار أجور سفري، فهي ليست في وضع مالي جيد. ولكن إن استطعتُ السفر على حسابي الخاص أمكنني الالتحاق بهم والقيام بدور مفيد معهم.

قالت السيدة كليب: لا بد أنه عمل ممتع جداً، ولا شك أن بلاد الرافدين حقل هائل للأنشطة الآثارية.

التفتت فكتوريا إلى السيد هاملتون وقالت: أخشى أن عمي الأسقف مسافر إلى سكوتلاندا في الوقت الحاضر، ولكني أستطيع إعطاءك هاتف سكرتيرته، فهي في لندن حالياً، ورقمها هو ٨٧٦٩٣. ستجدها هناك ما بين الساعة... (التفتت فكتوريا نظرة إلى الساعة على رف الموقد) ١١,٣٠ ص فرق، إن كنت تريد الاتصال بها وسؤالها عني.

قالت السيدة كليب: آه، إنني واثقة.

ولكن زوجها قاطعها قائلاً: الوقت قصير جداً، فتلك الطائرة تغادر بعد قليل. هل لديك جواز سفر يا آنسة جونز؟

- نعم.

حمدت فكتوريا الله على أن جواز سفرها كان محدداً بسبب إجازة قصيرة قضتها في فرنسا في العام الماضي. أضافت قائلة: لقد أحضرته معي خشية الحاجة إليه.

قالت السيدة كليب بامتعاض: هذا ما أسميه التصرف العملي.

وثم كاتب موجه به مرشحه حول مهمة الوظيفة ثم استعادها كل، فقد بدا واضحاً أن فكتوريا بما تملكه من مؤهلات جيدة وأعمام وجواز سفر جاهز، قد حققت المراد.

قالت السيدة كليب وهي تأخذ التذاكر والتأشيرات المطلوبة: سوف أتحدث إلى صديقنا السيد بيرجس في شركة أمبريكان كارجو، وسوف يتولى هو تأمين كل شيء. ربما كان من الأفضل أن تأتي عصر اليوم بحيث يمكنك أن ترتّبي كل ما يحتاج إلى ترتيب.

وهذا ما وافقت فكتوريا على القيام به.

وعندما أغلقت باب الغرفة خلفها سمعت السيدة كليب تقول لزوجها: يا لها من فتاة بطيئة مستفزة! إنها محظوظة حقاً.

تلطفت فكتوريا وتركت وجهها يحمر خجلاً، ثم عادت إلى شقتها وركبت نفسها قرب الهاتف مستعدةً لتلقي التهنئة الجميلة المتوقعة لسكرتيرة الأسقف المتقاعدة من جانب السيد كليب. بالتأكيد لقدرانها، ولكن بدا واضحاً أن السيدة كليب قد أصيبت بشحوب فكتوريا المستفيضة إلى الحد الذي لا تريد معه رؤية نفسها بتلك الصفات الذميمة. فلم تكن الوظيفة لتصدر في نهاية الأمر - بضعة أيام من وقف السفر.

بعد ذلك بنصف الأوراق وتوقيعها والحصول على التأشيرات الضرورية، وطلب من فكتوريا أن تقضي الليلة الأخيرة في منزل

سافوي بحيث تكون قريبة جاهزة عندما السيدة كليب في النهوض عند الساعة السابعة من صباح اليوم التالي والذهاب إلى مركز خطوط الطيران ومن ثم إلى مطار هيثرو

• • •

الفصل الخامس

مهادي على شط العرب بمركبٍ الذي عند الأهوار فبل يومين كان الثلج سريعاً، ولم يكن الرجل الذي يدفع المركب بحاجة إلى القيام بمجهد يُذكر. كانت حركاته هادئة بطيئة، وعيناه نصف مغمضتين، ومن بين أسنانه كان يغني بكل رقة موالاً عربياً جريحاً لا ينتهي

سري بميل يا جملي،

هذي إلك يا بن علي

وهكذا كان عبد السيمان (وهو من عرب الأهوار) قد قطع النهر في مناسبات سابقة لا تحصر لها مروراً إلى البصرة. وكان في المركب رجل آخر، ورجل ذو هيئة غالباً ما تُرى في هذه الأيام وقد خطف الشرق والغرب في ثيابها بشكل يدعو إلى الشفقة، فقد ارتدى فوق رداءه الطويل من القطن المخطط سترة جاكيته مزركشة قديمة ممزقة، وحشر تحت السترة الباهتة وشاحاً أحمر بهت لونه، وعلى رأسه بدت من جديد غرة القماش العربي، الكوفية التي لا بد منها بتويتها الأبيض والأسود التي يشبه النعال الحريري، الأسود

كان يسرح بعينيه الشاردتين دون تركيز على ما حول النهر، وسرعان ما بدأ هو لآخر يدمدم بنفس اللحن. كان رجلاً كآلاف الرحال الذين يصادفهم المرء في بلاد الرافدين. لم يكن فيه ما يوحي بأنه إنكليزي وبأنه يحمل معه سراً يبقى أصحاب بقود في كل بلد في العالم قريباً إلى الجنون بينه وبين إيصاله، وإلى كتمه وكتم أنفاس من يحمله.

عاد بدنه يسترخي الأسابيع الطويلة الماضية بشكل مشوش الكمين في الجبل. يردده الشيخ وهو يهوي فوق الوادي. قافلة الجمال. الأيام الأربعة التي تضاف هائماً على وجهه في الصحراء الجرداء، ويصحبه رجلان يحملان «سيسيا» محمولة. الأيام التي قضاها في الخيمة السوداء، وتوحاله مع فيبة عزة التي يرتبط معها بصداقة قديمة. كانت كلها أياماً صعبة، أيام محفوفة بالخطر. وهو يتملص مره بعد مرة من الطوق الأمني الذي يم بشره بسحبت عنه واعتراض سبيله.

«هنري كارمايكل» عميل إنكليزي، عمره في نحو الثلاثين، شعره بني، عيناه سوداوان، طوله ١٧٦ سم. يتكلم العربية والكردية والفارسية والأرمنية والهندوستانية والتركية، بالإضافة إلى العديد من اللهجات المحلية. له صداقات مع رجال القبائل خطيرة.

ولد كارمايكل في كاشمار حيث كان أبوه موظفاً حكومياً، وكان لسانه قد درج وهو طفل على العديد من اللهجات وأساليب الكلام المحلية. كانت مربيته (وخدمه فيما بعد) من قوميات مختلفة، وله صداقات في كل مجاهل الشرق الأوسط تقريباً.

لم يكن صلاته وعلاقاته تحصره إلاّ في العدد الكبير. وقد عرف الآن سوهو يقترب من البصرة- أن المحطة الخرجة تبعته منذ أرض. لا بد له عاجلاً أو آجلاً من الدخول ثانية إلى محيط البصرة، ومع أن تعداد كان وجهه النهائية، فقد قدر أن من تحكمه أن لا يأتي إليها مباشرة. في كل بلد في العراق كانت تنتظره بيوت وأماكن بحث دراستها وتحديدها في أشهر عديدة. وقد تم الاتفاق على أن تترك تقدير الخطر أن يحدد أين سيحط رحاله. إذا صح التعبير. لم يكن قد أرسل أي خبر لرؤسائه، حتى من خلال القنوات غير المباشرة التي كان بوسعه استخدامها بذلك، فقد كان يعلم أن كانت المحطة البعيدة (التي تقضي بأن ينتظره العشرة في الموعد المحدد) قد فتشت كل موضع فيها. فقد عرف أعداؤه بذلك الموعد عرف العلة يوماً في ذلك الأمر القاتل غير المفهوم في البصرة.

وقد بلغ الأمر به حداً جعل مجاوزه من المحطر تتعاظم الآن فهي في البصرة، حيث الخطر الذي يوحي بالأمان، أحس بثقة غريزية بأن الخطر سيكون أكبر مما تعرض له خلال مجازفات رحلته الخطيرة. وأن يأتي يفشل في المرحلة الأخيرة أمر لا يكاد يستطيع التفكير فيه.

وفيما كان العربي المجور يجدّف بشكل إيقاعي، قال دون أن يلتفت: لقد اقتربت المحطة يا بني، الله يحفظك.

نسي الملاحظة. لو أنه كان ذا دماء شرقية لا غربية، كيلا يقلق على فرص النجاح والفشل، وكيلا يحسب المخاطر مرات عديدة.

وهو يسأل نفسه إن كان تخطيطه سليماً يتم بعد الرؤية، وحتى يقول نفسه بثقة أهل الشرق إن شاء الله سأنجح!

بمجرد ترديد الكلمات مع نفسه غمرته سكينة المدينة وتسلطها بالسحر، وقد رحب بهذا الشعور أن عليه أن يدرب من التعارب بعد التخطيط، وأن يمشي في شوارع المدينة تحفّ به نظرات الأهلين الخائفة من يكون بوسعه أن ينجح لأن هذا شعور الشرقي، ولم يكتب فقط بالظهور بمظهر الغربي

انعطف الغارب بهدوء إلى يمين البهر، وهناك كانت جميع أنواع القوارب والمراكب مربوطة على الشط، وكانت قوارب أخرى تدخل قبل مركبهما وبعده كان منظراً جميلاً يكاد يماثل مناظر البندقية، حيث المراكب بمقدماتها المنتصبة المزركشة والأنوار الهادئة الساطعة بداخلها كانت هناك مئات من المراكب مربوطة بعضها فوق بعض

سأل العجوز يسرعه لقد جاب التخطيط، هل توجد مرسيات مهيأة لك؟

- نعم، التخطيط أن خطتي قد وُضعت، لقد جاءت ساعة مغادرتي

- فليسهل الله لك طريقك، وليكمل في عمرك

جمع كارمايكل حوله أنواعه المتنوعة وسحب الدوجات الحجرية الرقيقة إلى الرصيف الذي كان يتشر حوله الناس الذين يجتمعهم الفقر عادة في الموانئ: صبية صغار، وشلة بريئة يجلسون قرب صوت

يصاحبهم، ومشاة عاديون في تأملاتهم يسيرون على غير هدى ويسقطون بصوت عالٍ من وقت لآخر، وهم ينحنون ومسابحهم معلقة في أيديهم وفي الجانب الآخر من الشارع، حيث المحلات والمقاهي، يمشي بعرض الشارع تيارٌ "المدينة" يرتدون بدلات أوروبية سيئة أتوها قليلاً إلى الخبرة، كما كان هناك أوروبيون أيضاً، من الإنكليز والأمريكان ولم يبد أي اهتمام واضح أو مقصود لمجرد أن غريباً من جنس جنسهم قد صعد لتوه من القارب إلى الشاطئ

مشى كارمايكل بكل هدوء في الشارع كمن لا هدف له، وعيناه تستوعبان المشهد بالقدر المناسب تماماً من الفرح الطفولي بما يراه حوله، ويبين فيه وأخرى كان يفعل دون إصدار صوت مبالغ به، بل لمجرد وضع نفسه في إطار المشهد حوله

وهكذا اقترب الغريب من المدينة، ووصل النهر في أعلى نقطة فيه ودخل السوق، وهنا كان الجو كله حركة وضوضاء، كان رجال القوارب يمشون ويدفعون الآخرين عن طريقهم، والنهر المجاورة على طريقها وأصحابها يصيحون بصوت عالٍ مثلهم تماماً، والأطفال يشجرون ويصرخون ويركضون خلف الأوروبيين وهم يتدون بأمل بخشيش مدام، بخشيش مسكين، مسكين

هنا كانت متجات الغرب والشرق تُعرض بلمع حتى إلى حب الزائر من الأسبوع، وصحون وفاخر وأباريق شاي، وأوان من النحاس المطروق، وتحف فضية، وساعات وخيمة، وأكواب

مطلية بالحناء، وسجاد دو نقشات بهيجه من إيران، وصناديق ضخمة من الكويت، ومعاطف وسراويل وملابس أطفال مستعملة، ولُعَبٌ مجلية الصبغ، ومصابيح زجاجية ملونة، وكوم من الأباريق والجرار الفخارية كل ما تنتجه الحضاره من البضاعة الرخيصة جباً إلى جنب مع السلع المحليه

كل شيء طبيعي جداً واعتيادي لقد بدا هذا القفر من النشاط والعوضي غريباً لكارمايكل بعد الفترة الطويلة التي قضاها في العصار غير المأهولة، ولكن ذلك كله كان كما ينبغي له أن يكون. ولم يستطع أن يعير أي أمر غير طبيعي أو أي أثر بالاهتمام بوجوده، ومع ذلك فقد كانت غريزته غريزة امرئ عرف مسلوب طويله معنى أن يكون مطارداً، وقد أشعرته غريزته الآن بعدم ارتياح ستوليك [illegible] غامض بالخطر لم يستطع العثور على أي شيء خارج عن المألوف لم ينظر إليه أحد، كما كان واثقاً أن أحداً لا يتبعه ولا يضعه تحت المراقبة، ومع ذلك كان يتنابه ذلك اليقين الذي يصحب تعريفه بوجود الخطر

التفت ودخل في زقاق مظلم إلى يساره، ثم استدار إلى زقاق آخر شمالاً، وقد وصل إلى مدخل خان يتصعب بين الأكشاك دخل من الباب إلى باحة الخان الداخلية التي كانت محاطه بالمحلات من كل جانب، ثم ذهب إلى محل منها كان يعلق قطعاً من القرو أشبه بالمعاطف المصنوعة من جلد خراف الشمال وقف هناك يتحص الفروات بدقه كان صاحب المحل يقدم القهوة لأحد زبائنه، وكان الزبون رجلاً طويلاً ملتحياً ذا حضور رائع يلف قماشاً أحمر حول طربوشه مما يدل على أنه كان حاجاً عاد لتوه من مكة

وقف كارمايكل هناك بلامس الفروة، ثم سأل "بكم هذا؟"

- سبعة دنانير

هذا كثير

قال الحاج "سيرسل لي السجادات إلى منزلي؟"

أجابه التاجر "متأكد. هل ستشتري هذا؟"

نعم، فجراً إلى كربلاء

قال كارمايكل "كربلاء مدينتي لقد مرت خمس عشرة سنة منذ آخر زيارة لي للحسين آخر مره"

قال الحاج "إنها مدينة مقدسة"

قال التاجر وهو يلتفت إلى كارمايكل "توجد فروات أرخص في الغرفة الداخلية"

إني أحتاج فروة بيضاء من فروات الشمال

قال التاجر وهو يشير إلى باب في الجدار الداخلي "عندي واحدة منها في الغرفة الأخيرة"

لقد نصب الصعبة بالطريقة المثلى عليها "حديث كأي حديث يمكن أن يُسمع في أي سوق، ولكن السبيل كان مفتوحاً بسماع كل المكالمات الأساسية كانت موجوده "كربلاء" "الفروة البيضاء"

إلا أن كارمايكل وهو يعبر داخلاً إلى الغرفة الداخلية، رفع بصره إلى وجه التاجر، وعرف فوراً أن الوجه ليس هو الوجه الذي

توقع رؤيته ورغم أنه لم ير ذلك الرجل مجدداً إلا مرة واحدة من قبل، إلا أن ذكرته الحادة لم تكن مخطئة. يوجد شبه بين الاثنين، بل شبه كبير جداً، ولكنه لم يكن نفس الرجل

توقف ثم قال بشيء من الدهشة الحقيقية: بن صلاح حسن راس؟

لقد كان أخي، وقد مات منذ أيام، وأنا أتولى شؤونه الآن

نعم، ربما كان هذا أخاً، فالشبه قريب جداً. ومن المستبعد أن يكون الأخ أيضاً مُسجلاً من قبل القسم؛ فالأخوة كانت صحيحة دون شك. ومع ذلك فقد دخل كارمايكل الغرفة المجاورة بالفعل، وهنا أيضاً كانت الفوضى مكدسة على كل سطح، فلا قهوة، ومطحن سكر بحاسبه، وأواني إبريق مليئة من المطبخ، وأكوام من المطررات والصناديق بملصقاتها وأغلفة شاي دمشقية مطعمة بالصدف

كانت هناك قدرة بيضاء ملصقة بعناية بمقدمتها على هيئة شاي صغيرة. ذهب كارمايكل نحوها وأخذها، وكانت تحتها علبة كرتونية فاخرة اللون قليلاً كانت تبدو بمحتوياتها، وكانت الصفحة التي تحتوي على الشاي والأوراق الشرعية موضوعة في جيب صدر البدلة. لقد دخل إلى المحل غريباً مجهولاً، ولن يلبث أن يخرج منه سيداً اسمه وسر ويبدو من سرعة كروس بلاسير في الشحن بمحل سمعي بصري الذي عذب به سيداً لقد كان يوجد رجل حقيقي بهذا الاسم ويبدو بالفعل إلى هنا بلغ الحرص، وكان ذهب الرجل الداخلي

يتجاوز محترم ومعروف. كل شيء يسير -إذن- وفق الخطة. وبدأ كارمايكل يشعر أخيراً بشيء يشبه الارتياح، فكل شيء على ما يرام

ولو كان الأحمر قد وقع على المسدس كسلاح لكان مهمة كارمايكل قد انتهت هنا وفي هذه اللحظة، ولكن للسكين فوائدها وأهمها عدم إصدار أصوات

على الرغم -أمام كارمايكل- وصعب ذلك كبيرة بالفعل، وكانت تلك الدقائق قد تشعب حديث بينه وبين رجل أمريكي كان جالساً لاحقاً، وهكذا تحركت الساعة السكين على طول السطح اللامع للكونتر. تحركت على ذلك القهوة صوبه كاملة، مشروبه ولكنها وصحة الرجل الذي انسل من بين الثياب المعلقة خلف كارمايكل وسكين قطيرة السحبة التي استلها لتوه من بين ملابسه. وكان من شأن ثلث السكين أن تتوقف بعد لحظة في ظهر كارمايكل

استدار كارمايكل بسرعة أكبر، وشرع ضحك قصير استطاع به يجرح الرجل جرحاً، وطارت السكين عبر الغرفة حتى صطدم كارمايكل نفسه بسرعته وهو من فوق الرجل الممدد، ثم اندفع خارجاً عبر غرفته بحثاً عن سكين أخرى، حيث سمع الوجه بتحديد المصعوق بسحر والدهشة بهدوء بجرح السكين، ثم خرج عبر المحل يندفع من جديد إلى سوق المرتفعات، ثم عاد في اتجاه آخر، وعاد لأن يمشي دون هدف، أية علامة بمجموعة في يده بعد توقيعه بمحفظة مزاجير هادئ

وهكذا حتى على غير هدى تقريباً، متوقفاً بين حين وآخر

ليتحصن بصناعة معينة أو ليلتمس عملاً، بينما كان دهره يعمل بشكل محموم. لقد انهارت الحظة! وها هو مرة أخرى بمفرده في أرض عدوة. وقد كان مدركاً لمغزى الشيء لما حدث قبل قليل

إن ما يحتاجه لم يكن أعداء الذين يلاحقونه، ولا أولئك الأعداء الذين يسدون عليه سبل الوصول إلى العصر، ولكن كان ثمة أعداء عليه أن يحتاهم داخل المؤسسة نفسها؛ لأن كلمات السر قد عُرفت وجاءت الإجابات جاهزة صحيحة. وقد جاء توقيت الهجوم دقيقاً في نفس اللحظة التي يكون فيها قد استُدرج للشعور بالاطمئنان. ربما لم يكن من الممكن وجود حماية من الداخل لا بد أن هدف الأعداء كان دوماً: محاولة إدخال أحد عناصرهم إلى داخل المؤسسة أو ربما شراء الشخص الذي يحتاجونه. إن شراء رجل مسألة أسهل مما قد يجعل المرء... ويمكن للمرء أن يُشترى بأشياء أخرى غير المال

حسناً، لقد حدث ذلك، بغض النظر عن طريقة حصوله. هو قد عاد للهروب والتنقل... لا معين له إلا إمكاناته الذاتية، دون مال، ودون مساعدة من شخصيةٍ أخرى، وبمظهره الذي قد يتعرف به، بل ربما كان أحدٌ يتجه في هذه اللحظة نفسها

ثم ينتفض، فما فائدة الالتفات؟ إن من يتعرفونه لم يكونوا مختبئين في هذه اللحظة. استمرّ في المشي بهدوء ودون هدف، ولكنه خفف سلوكه الكسول الظاهر. كان يدرس احتمالات محيطه. وأخيراً خرج من السوق وعبرَ الجسر الصغير فوق الماء، وظل يمشي إلى أن رأى تلك الفوحة الكبيرة الممكن به فوق المدخل «العصفية البريطانية»

نظر بسرعة ويسره إلى الشارع. لم يبدُ أن أحداً يعيره أي انتباه. وبدا له أنه من السهل جداً أن يصل إلى العصفية البريطانية. فكّر للحظة، فكّر بعصفية فتران... عصفية فتران منصوبة وفيها طعم لجبن المعزى. تلك العصفية أيضاً يراها المارة بسهولة ويسر!

ولكن لا بد من الإقدام على المجازفة. لم يرَ شيئاً آخر بوسعه أن يفعله، فدخل البوابة

* * *

الفصل السادس

جلس ريتشارد بكر في المكتب الخارجي لمقصف الجمعية منتظراً فراغ القنصل من عمله

كان قد نزل البر من المركب المسمى (ريدبيان كوين) في ذلك الصباح و شرف على إخراج أمتعته من الجمرك . وكان حل تلك الأمتعة من الكتب، كما تم حشر بعض ثياب النوم والصحف بين الكتب وكأنما كان ذلك استدراكاً منه

كان المركب قد وصل في وقته المحدد، وبعد أن ريتشارد كان قد أمضى موعد عودته بيومين (بحسب من التأخير الذي كان معتاداً في المراكب الصغيرة من طراز (ريدبيان كوين) لذلك فقد وجد أمامه يومين قبل أن يضطر لاستكمال طريقه عبر بغداد إلى وجهته النهائية، وهي تل أشنرد، موقع مدينة موريك الأثرية

وكان قد وضع خطته أصلاً لتمضيه خلال هذين اليومين، فقد أثار فضوله دوماً ذلك التل الشهير عند جنوبي أثار قديمة غرب شاطئ الكويت، وقد جاءته هذه الفرصة من السماء للبحث في ذلك التل

ذهب إلى فندق المطار وسأل عن كيفية الذهاب إلى الكويت فقيل له إن طائرة تغادر في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، وإن بوسعه العودة في اليوم التالي، وهكذا كان كل شيء واضحاً ميسوراً . وبعد الإجراءات الشكلية التي لا بد منها، كتأشيرة الخروج وتأشيرة الدخول إلى الكويت، ومن أجل تجاوز ذلك كان عليه أن يذهب إلى القنصلية البريطانية. وقد سبق لريتشارد أن التقى في إيران -قبل بضع سنوات- بالقنصل العام الحالي لبريطانيا، السيد كلايتون، ورأى أنه سيكون من المفرح أن يراه لأن مرة أخرى

كانت للقنصلية مداخل عدة، بوابة كبيرة لدخول السيارات، وبوابة صغيرة أخرى عبر الطريق يليها بحديقة القنصلية خروجاً إلى البحر يمتد على طول شط العرب. أما المدخل الرسمي (للأغراض الرسمية) فكان على الشارع العام

دخل ريتشارد، وأعطى بطاقته إلى الموظف المناوب فقيل له إن القنصل العام مشغول حالياً ولكنه سيفرغ قريباً، ثم تم إدخاله إلى غرفة انتظار صغيرة إلى يسار الممر الذي يخترق القنصلية من مدخلها وصولاً إلى الحديقة في الطرف الآخر. وكان في غرفة الانتظار أصلاً عدة أشخاص ثم يكد ريتشارد يجيلهم النظر، إذ بادرته كل منهم بأفراد الجنس البشري، ولعل قطعة من الفخار الأثري القديم كانت تثير فيه من الحماسة أكثر مما يثيره شخص وُلد في مكان ما في القرن العشرين بعد الميلاد

سرح بتفكيره مجدداً يفكر في بعض ملامح أحداث مارس وفي تحركات القوات الصحيفة عام ١٧٥٠ قبل الميلاد، ويتأمل من

الصعب التحديد الدقيق لشيء الذي صحاه على إحساس حي قوي بالحاضر وبإخوانه من بني البشر كان الأمر في البداية شعوراً بسيطاً بالتململ وبشيء من التوتر، ورأى أن هذا الإحساس قد جاء عبر أنفه، رغم أنه لم يكن واثقاً من ذلك. لم يكن شعوراً يمكن وصفه بكلمات محددة ولكنه كان موجوداً بالتأكيد، وقد أعاده ذلك الشعور إلى أيام قضاها في الحرب الأخيرة، أعاده إلى مناسبة معينة بالتحديد هبط فيها هو واثنان من أصحابه من الطائرة بالمظلات، وانتظر هو وأصحابه في ساعات الفجر الباردة حتى يحين موعد مهمتهم. كانت لحظة انحفرت فيها المحسوسات وسمات نفسها بكل وضوح المخاطر الكامنة لمن هم مقدمون عليه، لحظة رعب خشية أن لا يكون المرء على مستوى مهمته، لحظة يتقمص فيها الجسد إن في نجر الآن نفس ذلك الإحساس الحاد المرير الذي لا يكاد يبين... واقحة خوف!

يقع لحظات لم يتم تسجيل هذا الانطباع إلا في اللاشعور كان نصف عقله يسمي «بغداد» لإبقاء تركيزه على ما قبل الميلاد، ولكن إلحاح الحاضر كان أعظم من أن يُتجاهل

إن أحد الموجودين في هذه المرحلة الصغيرة يحس برعب قاتل!

نظر حوله، فرأى رجلاً عربياً في سترته العاكية البالية وأصابعه تعبث بكيس بحبات سبحة الكهرمان التي يحملها، ورجلاً إنكليزياً ذا شارب رمادي يميل إلى البدانة، كان من نمط التجار المحوليين وكان يسجل بعض الأرقام في دفتر ملاحظات وقد بدا عارقاً في ذلك

وموحياً بالأهمية، ورجلاً نحيلاً متعب الهيئة شديد السمرة يكمن في كرسيه إلى الخلف في جلسة هادئة ووجهه هادئ القسمات لا يوحي بأي اهتمام، ورجلاً بدا وكأنه موظف عراقي، وآخر إيرانياً كهلاً يرتدي ثياباً فضفاضة بيضاء كالثلج .. جميعهم يبدون غير مهتمين

تنطلق طلقات كهرمان السبحة في إيقاع محدد، وبدا ذلك مأثوراً بطريقة غريبة. حرك ريتشارد نفسه ليشحذ انتباهه، فقد كان نصف ناتم معرضه لنقطه محترفة، نقطة إنها شجرة مورس، الشجرة البرقية التي ابتدعها مورس بالتأكيد. كان ذا خبرة شجرة مورس؛ فقد تعامل معها كجزء من واجبه أثناء الحرب ويمكن له أن يفك رموزها بسهولة. يومه إي شاون إيون. يومه إيون؟ يا له من أمر غريب! نعم، هذا هو معناها! وقد تكررت كلمة «يومة إيون» كان ذلك هو الاسم الذي أُطلق عليه عندما التحق بكلية إيتون وهو يضع نظارة ضخمة جداً ذات رجاج سميك، وها هو الاسم الآن يرسله (أو بالأحرى يطقطقه) أعرابي حقير رث الثياب! ما هذا؟

نظر عبر الغرفة إلى العربي متأملاً كل صغيرة وكبيرة في هيئته الثوب المتسخ والسترة العاكية القديمة والوشاح الأحمر المسروح مالية بقعاً بنية بالشعرات. لا يعدو ذلك أن يكون رجلاً ممن يرى السفر صاحب مهنهم قرب الموانئ والتفت عبد الرجل بعينيه بمراع لا يدل على أي تغيير له، ولكن حبات السبحة استمرت بتطقطق الفقير هناء ساعدني مشكلة!

صبر؟ فقير؟ نعم، نائم! الفقير كارمايكل! تلك هي الصفة

التي ألحقوها باسم كاردينكل؟ لأنه وُلد في مكان بعيد عن هذا العالم.. تركستان أو أفغانستان؟

أخرج ريتشارد منديله ومسح به ثم نظر إلى تجويفه وأخذ يقرأ في صفحة صغيرة وكأنه يريد تمزيقه، وكانت نظرات العاملين تقول: «انتهت الرسالة»

بعد ذلك حدثت الأمور بسرعة كبيرة، وقد نجح ريتشارد لاحقاً في محاولة تزييفها؛ فقد مهض العربي من السترة الحاكية البالية وغير الغرفة باتجاه الباب، وبريح وهو يمر بالقرب من ريتشارد، فامتدت يده وأمسك بريتشارد لكي يوازن نفسه ثم اعتدل واعتذر ومشى باتجاه الباب

كان ما حدث بعدها متداخلاً وسريعاً بحيث بدا الأمر لريتشارد أشبه بمشهد سينمائي منه بمشهد من الحياة الواقعية؛ فقد قذف التاجر المتجول السمين دفتر ملاحظاته وبحث عن شيء في جيب معطفه، ولكن يداته وضيق معطفه على آخره منعتا توالي عن إخراج ذلك الشيء، وفي هذه الأثناء انتبه ريتشارد، قبل أن أخرج الرجل المسدس حتى هاجمه ريتشارد فأوقع المسدس من يده وانطلق المسدس لتستقر طلقة في أرض الغرفة

كان العربي قد خرج من الغرفة واستدار باتجاه غرفة المصل، ولكنه توقف فجأة ثم عاد وركض بسرعة في الاتجاه المعاكس ليخرج من الباب الذي دخل منه إلى الشارع المزدحم

خرج خادم الفندق إلى جانب ريتشارد الذي كان يقف ممسكاً

بذراع الرجل السمين، أما الآخرون الذين كانوا في الغرفة فقد وقف أحدهم مذهولاً يرتعد، وهو الرجل الأسمر ذو الإيراني الكهل يحدقان دون تحريك ساكن

قال ريتشارد: «ماذا تفعل يا رجل، ملوّحاً بالمسدس على هذا الشكل؟»

سادت لحظة صمت قصيرة، ثم قال الرجل السمين بلهجة بدوية شاكية: «اسف يا صاحبي، كان ذلك مجرد حادث عرضي، سوء تصرف مني»

«هراء، كنت تريد إطلاق النار على ذلك الرجل العربي الذي هرب للتو»

- «لا، لا يا صاحبي، لم أرد إطلاق النار عليه، أردت تحويله فقط لقد غيرت فجأة، بأنه الرجل الذي خدعني في تحفة ابتعتها منه كانت مجرد تمويه»

كان ريتشارد يكره رجلاً شديد التحرر يكره كل أنواع الفضائح، وقد دفعته غريزته إلى تقبل ذلك التفسير على ظاهره وعلاّته إذ من الذي يمكنه إثباته في نهاية الأمر؟ وهل من شأن كاردينكل الصبر أن يشكره على إثارة ضجة كبرى حول هذه القضية؟ لأرجح أن لا يشكره إن كان في مهمة سرية تتطلب الكتمان

أرخى ريتشارد قبضته عن ذراع الرجل ملاحظاً أنه أصبح يسيطر في عزلة، أما الخادم فكلم بالعربي قائلاً إن إحضار أسلحته يأتي إلى

القنصلية البريطانية أمر خاطئ جداً وغير مسموح به، وإن القنصل سيغضب كثيراً لذلك

قال الرجل اليدين "إني أعتذر مجرد حادث صغير"، ثم دس بعض النقود في يد الخادم الذي أعادها إليه بسخط، فعاد الرجل يقول الأفضل أن أخرج من هنا قبل أن أتحمل رؤية القنصل

ثم دفع مجاذ بطاقه إلى ريتشارد وقال "هذه بطاقتي، وأنا موجود في فندق الشاطئ إن حدثت أية تطورات، ولكن الأمر كان مجرد حادث في الواقع مجرد مزحة إن كنت تفهم ما أعنيه"

وتردد راقبه ريتشارد وهو يخرج من الغرفة بشيء من عدم الارتياح ويمضي إلى الشارع آملاً أن يكون قد تصرف بالشكل الصحيح، ولكن كان من الصعب على المرء أن يعرف التصرف الصحيح وهو يجهل كل شيء كما كان شأنه

قال الخادم "لقد فرغ السيد كلايبورن الآن"، فتبعه ريتشارد في الممر، وكان صوت بشير يزداد كلما اقتربا من غرفة الفصل التي كانت آخر غرفة على الجهة اليسرى من الممر

كان السيد كلايبورن جالساً خلف مكتبه، وكان رجلاً هادئاً أشيب الشعر ذا وجه دائم التفكير قال له ريتشارد "لا أدري إن كنت تتذكرني؟ لقد قابلتك في طهران قبل عامين"

- طبعاً أتذكر كنت مع الدكتور باوسمور، أليس كذلك؟ هل ستنضم إليه مرة أخرى هذا العام؟

تعني أنك ذاهب إليه الآن، ولكن حتى يومين لا عمل لي بعدها، وقد أردت السفر إلى الكويت أتمنى أن في ذلك مصلحة؟

- آه، لا، ستضيع طائرة صباح غد، ولا يستغرق الأمر أكثر من ساعة ونصف سأبرق لأركي هوب إنه المرشد المقيم لك هناك، وسوف يستضيفك عنده، ويستضيفك نحن هنا الليلة

قال ريتشارد بشيء من الاحتجاج "آه، لا أريد إزعاجكما أنت وسيدة كلايبورن، يوسفي الذهاب إلى الفندق"

- إن فندق الشاطئ ممتلئ عن آخره، وسوف يسعدنا أن نستضيفك هنا، أنا واثق أن زوجتي ستسعد بمقابلة مرة أخرى بنت ستضيف حالياً السيد كروسبي من شركة النفط وشاباً مساعداً للدكتور وتشيون جاء إلى هنا للتخليص على بعض صناديق الكتب في الجمارك هي إلى الطابق العلوي لنرى دور

ثم نهض وراقب ريتشارد خروجاً من الباب إلى الحديقة المشمسة، ثم صعد الاثنان درجاً يفضي إلى جناح المعيشة في المنزل حيث وجد جيرالد كلايبورن بابًا من السلك المشبك عند أعلى الدرج وفتح بابه إلى مدخل صغير مفتوح يطل على أرصفة سجاد جميل وعلى جانبه أثاث يدب على الذوق، وقد ارتاح ريتشارد لدخوله هذه الغرفة المبردة بعد وهج الشمس في الخارج

نادى كلايبورن زوجته التي كان ريتشارد يتذكرها كشخصية مرحة ذات حيوية فائقة، وسرعان ما خرجت السيدة كلايبورن من غرفة في نهاية الممر

هل تذكرين السيد ريتشارد بيكر يا عزيزتي؟ لقد سبق له أن زارنا برفقة الدكتور باوسفوت جونز في طهران

قالت السيدة كلايتون وهي ترحب بضيفها بالتصنع، وقد ذهبا معاً إلى الصوان واشربْ أنت بعض الشمبانيا الرائع

كانت السيدة كلايتون عندما لا يحالفها الحظ في الشراء شخصيةً تحقد لقد في حق أصدقائها ومعارفها على الشراء من الأسواق الشعبية، وكانت تهوى حيرة عائلة في قيمة الأشياء، بالإضافة إلى كونها معاونة بارعة في الشراء

قال لها ريتشارد لقد كانت تلك أفضل صفقة شراء أبرمتها في حياتي، والفضل كله يعود إلى تدخلك حتى بخبرتك الرائعة

قال السيد كلايتون يريد ريتشارد السفر جواً إلى الكويت غداً، وقد طلبتُ له إن بوسعنا استضافته هنا بعض الليلة

قال ريتشارد معتذراً ولكن إن كان في ذلك أي إزعاج

دعمته السيدة كلايتون قائلة لا يوجد أي إزعاج بالمرة صحيح أنا لا أستطيع أن أوفر لك أفضل غرفة من غرف الضيوف (ألا تكفي كروسبي بشعرها)، ولكن يسعدنا أن نرحب بك هل تهوى شراء واحد من تلك الصناديق الكوبية الرائعة لحفظ النبيذ؟ إن جيراله لا يدعني أشتري صندوقاً حتى نعلم أنه سيكون مفيداً تماماً لحفظ البطانيات الزائدة فيه

على وجهه علامات بالغة الدهشة تلاه سؤال يا عزيزي؟ حسناً،

هي أعتقد الآن يا بيكر هي العودة إلى المكسيك، ويبدو أن مشكلة قد حدثت هناك فهمتُ أن أحدهم على النار من مسدسه

قالت السيدة كلايتون أحياناً بعض الشيوخ المحليين يهبطون بالمظلات كثيراً ويحبون الأسلحة النارية بشدة

صحح ريتشارد قائلاً: على العكس، كان من أطلق النار بكميةٍ، ويبدو أن عدده كان إطلاق النار على رجل عربي ثم اختفى بهدوء وقد فهمتُ دراجة

قال السيد كلايتون لقد كنت في المعسكر إذن لم تعرف ذلك ثم أخرج من جيبه بطاقة وقد فيها يبدو أن اسمه روبرت هوب من شركة كيل للمقاولات لا أدري بعد أراد رؤيتي هل كان معلماً؟

أجاب ريتشارد ببرود لقد قال إنها كانت مجرد مزحة، وإن المسدس انطلق بالصدفة

رفع كلايتون حاجبيه وقال إن بعض المتجولين لا يحملون عادة مسدسات محشوة في جيوبهم!

رأى ريتشارد أن كلايتون لم يكن بالرجل المغفل قال له ربما كان خائفاً أن أوقفه ولمنعه من الانصراف

من الصعب معرفة ما على المرء فعله في مثل هذه الحالات من الصعب الرجل الذي اطلق عليه النار؟

لا

ربما كان من الأفضل ترك المسألة عند ذلك الحد إذن

إني أتساءل عما وراء ذلك

- نعم، نعم.. أنا أتساءل أيضاً

بدا كلايتون شارداً قليلاً، ثم قال وهو يسرع بالذهاب حتى يتسنى له أن أعود لمكتبي

اصطحبت السيدة كلايتون ريتشارد إلى غرفة الجلوس (وهي غرفة داخلية كبيرة ذات مقاعد وستائر خضراء)، ثم سألته إن كان يفضل مشروباً حاراً أو بارداً فاختار الأخير، وسرعان ما جاءه كوب من العصير المثلج

سألته عن سبب ذهابه إلى الكويت فأخبرها، وسألته عن سبب عدم زواجه فقال لها إنه لا يرى نفسه من النوع الذي يمكن أن يوفر ما يحتاجه الزواج من الاستقرار، وجواباً على ذلك سارعت السيدة كلايتون إلى القول إن ذلك هراء وأن الآثاريين يصبحون عادة أزواجاً رائعين ثم سألته إن كان أي شاب سواه يعمل في موقع الحفريات في هذه السنة، فأجابها بأن واحداً سواه أو اثنين، بالإضافة إلى زوجة الدكتور بارنسفورث طبعاً

بعد ذلك دخل الغرفة رجل قصير قوي البنية قدمته السيدة كلايتون على أنه الكابتن كروسبي، وقالت له إن السيد ريتشارد يكتب كتاباً عن الآثار ينفق ويسرح تحمساً شديداً عندما عرف ألاف السنين

قال الكابتن كروسبي: آه لم أستطع أن أفهم أبداً كيف

يستطيع علماء الآثار أن يحددوا عمر هذه الآثار بدقة، ولقد رأيت دائماً أن علماء الآثار هؤلاء هم دون شك أكثر خلق الله كذباً، ما هذا هذا

نظر إليه ريتشارد نظرة فيها شيء من السأم، فقال الكابتن كروسبي معتذراً: ولكن كيف يستطيعون معرفة عمر كل أثر؟

أخذ ريتشارد يشرح ذلك بتطيب وفناً طويلاً، وسارعت السيدة كلايتون إلى أخذ ريتشارد لرؤية حديقتها، وهناك قالت إنه لطيف، ولكن له حبيباً ليست لديه أية فكرة عن اللياقة

وجد ريتشارد فرصته -وقد انفرد بها بنفسه- مريحة جداً، وبعد أصحابه بالسيدة كلايتون كمضيفة ممتازة، ثم تحسس جيب معطفه فوجد به شيئاً، أخرجه فوجده ورقة مسحة مطوية ونظر إليها مذهولاً، فقد كان متأكداً أنها لم تكن في جيبه عند الصباح

تذكر كيف أمسك العربي به عندما ودعه إن من شأن رجل حكيم أن يبدل هذه الورقة في جيبه دون أن يحس هو بذلك بعد ذلك فتح الورقة كانت مسحة، وبدا أنها طويت ثم فتحت مراراً عديدة من قبل

كان فيها ستة أسطر ذات خط سيء، وموضوعها تركيبة من السحر جوب وبلبرغورس بشخص يدعى أحمد محمد، يصفه فيها بأنه عامل مجدٌ ونشيط وقادر على قيادة شاحنة والقيام بتصليحات ثانوية، وأنه بريء جداً وكتب مؤرخة قبل ثمانية عشر شهراً، وهو أمر لا يعتبر مستهجناً، إذ يحتفظ أصحاب بعض التركيات بها بكل حرص وتصره طويلة

قطب ريتشارد جيبه وأخذ يستعرض أحداث صباح يطريقه الدقيقه المنظمه. لقد أصبح الآن متأكداً تماماً من أن تعبير كارمايكل كان خائفاً على حياته. كان مطارداً فاندفع إلى القنصلية ليلاذ؟ ليجد الأمن؟ ولكنه وجد بدلاً من ذلك خطر الموت. لقد كان العدو (أو ممثل عن العدو) بانتظاره. لا بدّ أن هذا التاجر الجوال كانت لديه أوامر محدده بشأن حتى يُقدم على التضحيه بحياة أحد عملاء كارمايكل في القنصليه وبحضور شهود. لا شك أن الأمر كان عاجلاً وملحاً جداً إذن، وقد أنقذ كارمايكل مساعده صديق دراسة قديم، واستطاع أن يمرر إليه هذه الورقه التي يحمل بريقه في ظهرها. لا بدّ أن هذه الورقة شديدة الأهميه إذن، وإن استطاع أعضاء كارمايكل أن يمسكوا به ويجدوا أنه لم يعد يمتلك هذه الوثيقه فلا شك أنهم سيحرون حساباتهم ثم يبحثون عن أي شخص أو شخص كان يوسع كارمايكل تمرير الوثيقه إليهم.

هل يعمل ريتشارد بكر لهذه الورقه بعد؟ بوسعه أن يدفعها إلى السيد كلايبورن باعتباره ممثلاً لحكومته. لكن هل تراه يحتفظ بها في حوزته حتى يأتي الوقت الذي يطلبها كارمايكل؟

بعد لحظات من التفكير قرر ريتشارد اصطناع الحبر الأحمر. ولكنه تردد بداية- بعض الأحيان قرر نقل ورقه بكامله من رساله قديمه، وجلس يكتب نوكيه نسخ شاحبه بقدر الإمكان من ذكرت في الورقه الأصليه، ولكن بخطه هو. لكن لو كانت تلك الرسالة شيقه بما فيه الكفاية لجعلته أن يفضل من قراءتها مع أنه كان ممكناً بالطبع أن تكون رسالة مكتوبة بحبر سري مما

لم يقم بتطبيع الرسالة التي كتبها بالبخار من قبل. حدثه وتركها بين يديه، ثم طواها وأعاد فتحها عدة مرات حتى بدت في حال معقوله من القدم والاتساخ، ثم كورها ووضعها في جيبه الأصليه. قد نظر إليه لحظات وهو يفكر ويرفض العديد من الخيارات. وأخيراً استسلم وراح يطوي الورقة حتى أصبحت مستطيلاً صغيراً، ثم أخرج من حقيبته إصبعاً من المعجون (الذي لا يستغني عنه بحاجته إليه في عمله) وبدأ يدلك أحاط الرساله المطوية بطبقه من المعجون الذي لا يلبث أن يجف ويتصلب. ثم أحاطها بالمعجون تماماً بعد ذلك قام بدهك المعجون بشكل دائري، ثم سطحه حتى صار سطحاً أملس. وعندما مرّر على سطح المعجون خطاً دائرياً محفوراً بحيث أخذ شكل الختم.

نظر إلى ما فعله باستحسان. كان الشكل مصمماً محفوراً بشكل جميل لإله الشمس المدعو شمش المسلح بسيف العدالة. وقال لنفسه: لنأمل أن يكون هذا فألاً حسناً.

في تلك الليلة، عندما بحث في جيب المعطف الذي كان يرتديه صباحاً، وجد أن الورقة الملفوفه التي كتبها قد اختفت

* * *

الفصل السابع

فكرت فكتوريا مع نفسها قائلة «ها هي الحياة تفتح أمامي أخيراً. كانت تجلس في مقعدها في قاعة المطار، وما لبثت أن جاءت تلك اللحظة السحرية التي أُعلن فيها النداء "يُرجى من المسافرين إلى القاهرة وبغداد وطهران أخذ أماكنهم في الطائرة".

أسماء سحرية، رغم أنها كلمات تقصد بريقها بالنسبة إلى السيدة كليب». وقد استنتجت فكتوريا أن السيدة كليب قد قضت جزءاً كبيراً من حياتها وهي تقفز من السفن إلى الطائرات، ومن الطائرات إلى القطارات، مع استراحات قصيرة بين الرحلة والرحلة كانت تقضيها في أعلى الصدق. أما بالنسبة لفكتوريا فقد كانت تلك العبارات بعيدة دائماً عما اعتادت سماعه باستمرار "سأملي عليك رسالة يا آنسة جونز.. هذه الرسالة مهمة بالأحمر، وعليك كتابتها من جديد. الإبرين يعلو أيها الباب، من سيقعد الذي؟ سأدلك على أحسن محل يصنع الشعر. أحداث يومية مدهشة حقاً. أما الآن فبغداد والقاهرة وطهران.. كل رومانسية الشرق العظيم (وعوق ذلك كله إدوارد)!

عادت فكتوريا من شرودها إلى أرض الواقع تسمع حديث

مستخدمتها التي صاحت فكتوريا ثرثارة لا تصدق. كانت السيدة كليب تحتفظ بسجلة ملاحظاتها دائماً. وليس هناك شيء يطيب لحدّة إن كتب تمهيبي مقدمي، وأنا دائماً جدوه جداً جداً فيما كتبه.

كانت فكتوريا تصغي إلى تلك الملاحظات المُحبطة من باب واجبها، ولكن شعورها الخاص بأنها الشرق طل متوهجاً. فالمدارة والحراتيم لم تكن تعني لها شيئاً في عصرها الشاب. وصلت إلى مطار بيشور وقامت فكتوريا بمساعدة السيدة كليب على النزول من الحافلة وكانت قد مرّت أصلاً بمتاعب الجوازات والبطاقات والنقود وغير ذلك. فقالت لها السيدة كليب إنه نعم المريح. بالتأكيد. اصطحابي إياك يا آنسة جونز. لا أدري ما الذي كنت سأفعله لو قُدّر لي أن أسافر بمفردي.

رأت فكتوريا أن السفر جواً عملية تشبه الذهاب إلى وليمة مدرسية، فهناك يجد المرء لأساتذة (البعض رغم حرمهم) قريبين منه حاضرين لمساعدته في كل أمر، وهناك أيضاً تحوم المضيفات برؤوس الموحد وهن يتصرفن بسُلطة أشبه بسلطة مربية تتعامل مع طفل قاصر عصياً، فيشرحن بلطف ودقة ما يتعين على المرء فعله وقد أوشكت فكتوريا أن توقع سهم استهلال كلامهن بعبارة "والآن يا أعزائي".

وفي المطار جلس شباب يبدو عليهم التعب من موظفي الجوازات خلف مكاتبهم، يأكلون في الجوازات بسأم، ويسألون بصوت خافت عما يحمله كل مسافر من مال أو حلي. وقد أفحموا في

يث شعور بالغضب تجاه من وُجهت لهم تلك الأسئلة. ولقد شعرت فكتوريا - وهي التي تتأثر بالإيحاء بطبيعتها - بشوق ملحّ إلى وصف ذلك الديوس الرهيب الذي يمكنه بأنه بمجرد الهمسة تسوي عشرة آلاف جيه، وذلك بمجرد رؤيه التعبير الذي سيظهر على وجه الشاب الضجر . ولكي تفكيرها بإدوارد منعها من ذلك

وبعد اختيار العديد من الحوار جلس المسافرون في قاعة كبيرة بطل مشرفه على مدرج المطار، وهي الحارج كان هدير طائرة وهي تزيد سارع محركاتها يكمل رسم الجو بعام بمكان. أما السيده كليب فقد كانت مشغله الآن بمساعده في إطلاق بعلقصه سريعه على بقية المسافرين. ألا يبدو هذان الطفلان هناك في غايه الذكاء؟ ولكن سفر المرء بمفرده مع طفلين صغيرين لا يوصف أنهما بريطانيين، ولكن بدقة التي نفسها أنهما جيده التعليم، مع أنها تبدو متعبه بعض الشيء. ذلك الرجل الوسيم، يبدو كالإسكندنافي أو الإيطاليين. ما بتلك المربعات ذات اللون الصارخ التي يرتديها ذلك الرجل؟ أحسب ذلك دوراً سيئاً جداً أنه رجل أعمال! أما ذلك الرجل هناك فهو ألماني، كان يقف أمام تماماً عند بوابه الصعود تلك العائلة هناك إما تركية أو إيرانيه كما أظن. لا يبدو أن هناك أي أمريكيين أحسبهم يسافرون على متطوط بان أمريكان على الأغلب. وهي أن أولئك الرجال الذين يحدثون هناك من العاملين في شركات النفط، ماذا تقولين؟ إنني أحب النظر إلى الناس والتساؤل عن أمورهم. يقول السيد كليب لي إن لدي ولعاً بطابع الحس الشرير. يبدو لي أن من الطبيعي تماماً أن يهتم المرء بوجوه

من حي البشر. ألا تعتقدين أن معطف الفرو ذاك قد كلف أكثر من ثلاثة آلاف دولار؟

وأخيراً سهدت السيده كليب بعدما فرغت من تأمل زملائها المسافرين بداب تتمتم، ثم قالت: يؤذي لو أعرف ما الذي ينتظره جميعنا هذه. لقد مضت بنا الطائرة أربع ساعات لتسخين محركاتها ونحن كنا قد أعدنا لا يعلمون شيئاً في أمورهم؟ من المؤكد أنهم لا يلتزمون بموعدهم

أترغبين في كوب من القهوة يا سيدة كليب؟ أرى مضيفاً في نهاية الصالة هناك!

لا، شكراً يا آنسة جونز. لقد تناولت القهوة قبل الطلاق، وصدري مربكه الآن بحيث لا أستطيع تناول شيء. ولكن يؤذي أن أعرف ما الذي ننتظره؟

جاءت الإجابة على سؤالها هذا قبل أن تفرغ من طرحه! فقد اندفع فجأة الشاب المؤذي من قسم الجمارك والجوازات إلى القاعة ودخل معه رجل طويل القامة كث يدخل معه ريح قويه، وهرع موظفو المطار والحطوط الجويه حوله. وكان ثمه موظف يحمل كيسين صغيرين محتومين

اندفعت السيده كليب في حلقها ميغطه وقالت: إنه رجل ذو أهمية بالتأكيد، وقالت فكتوريا لنفسها: "وهو يعرف ذلك تماماً"

كان في ذلك المسافر الأخير ما يوحي بشيء من التحدي لإثاره الحماسة الشعبويه. فقد ارتدى ما يشبه رداء سفر رمادياً غامقاً ذا

عطاء ضخم للرأس يتدلى من الخلف، أما رأسه فكان معطى بقبعة كانت في الحقيقة- كقبعات المكسيك المريضة، ولكن لونها كان رمادياً فاتحاً وقد تدلى شعره الفضي الملتف طويلاً بعض الشيء، وكان شاربه الفضي الجميل يتكئ صعوداً عند طرفيه وهكذا أعطى شكله العام انطباعاً أعرب بي ممثل يؤدي دور قاطع طريق أشر

نظرت فكتوريا إليه بعدم استحسان، إذ كانت تكره الذين يتحدون سنت الممثلين في تصرفاتهم وقد لاحظت بسرعة أن مرتكبي الطيران كانوا يتدحرجون حوله متمتمين نعم يا سير روبرت، طبعاً يا سير روبرت، ستقلع الطائرة فوراً يا سير روبرت.

وبلفتة بردائه الفسيح عبر السير روبرت بباب المقصورة إلى أرض المطار وتأرجح الباب بقوة وراءه بحيث السيدة كليب قائلة السير روبرت من عساه يكون يا ترى؟

هزت فكتوريا رأسها حيرة، رغم أن شعوراً غامضاً قد انتابها بأن الوجه والمظهر العام لم يكونا غريبين عنها قالت السيدة كليب ربما كان شخصاً مهماً في حكومتكم

لا أظن ذلك.

كان العدد القليل من رجال الحكومة الذين التقتهم فكتوريا قد أعطوها انطباعاً بأنهم رجال يكادون يحتقرون حتى من كونهم أحياء، ولم يكونوا يتمثلون دور الواقف بسجع إلا على منصات الخطابة

قالت السيدة كليب بنبرة توبخ مربية تخاطب أطفالها والآن

جاء، ستأخذون أماكنكم في الطائرة من هنا رجاء بأسرع ما يمكنكم رجاء

كان موقفها يوحي بأن الأطفال الأشقياء قد أعاقوا كثيراً الكبار الصابرين ونهض الجميع وخرجوا إلى أرض المطار حيث كانت الطائرة الضخمة في الانتظار ومحركها يهدر كزئير أسد ضخم يعبر عن رضاه

تعثرت فكتوريا مع مضيفة لإدخال السيدة كليب ووضعها في مقعدها، ثم حشت فكتوريا بجانبها بالنجاة الممر الفاصل بين صفي المقاعد بعدما تأكدت من جلوس السيدة كليب في مقعدها بشكل مريح ورهيب حزام مقعدها، وعندها فقط أتيح لها الوقت لتلاحظ أن المرجل العقيم يجلس أمامها

أُغلقت الأبواب، وبعد جمع ثوان بدأت الطائرة تتحرك ببطء على المدرج وفكرت فكتوريا قائلة لنفسها بانفعال إنه سيطلق حقاً أليس هذا مخيفاً؟ بعد لو لم يستطع الطائرة الإقلاع عن الأرض؟ نعم لا أفهم حقاً كيف يمكنها أن تقلع!

وخلال فترة بدت دهراً كاملاً دارت الطائرة حول المدرج، ثم استدارت ببطء وتوقفت بمقعد هدير المحرك بشكل رهيب، وتم توزيع الملك والعطن، ثم تعالى الصوت أقوى فأقوى، وأشد فأشد، ثم تقدمت الطائرة مرة أخرى، ببطء في البداية، ولكنها أخذت تتسارع خاطفة أرض المطار

فكرت فكتوريا قائلة لنفسها إنها لن تصنع أبداً، وسوف تُمزق

وبكل الطائرة سارعت أكثر وبعد ثوانٍ أو نحو، قد أقلعت عن الأرض مرتفعة، ثم ارتفعت أكثر فبدو بحجم طائر صغير تائه يبحث وحائه وبوب كبوت الدمى ودمى سيارات على الشوارع، ثم ارتفعت أكثر وفجأة فقدت الأرض في الأسفل ما كانت تبدو من اهتمام، فلم تعد فيها مظاهر الحياة والإنسانية، بل غدت مجرد خريطة ضخمة منبسطة عليها خطوط ودوائر ونقاط

في داخل الطائرة حل المسافرون أحزمة الأمان، وأشعلوا لفافات التبغ، وفتحوا المجلات. أما فكتوريا فقد كانت في عالم جديد عالم طوله العديد من الأقدام وعرضه بضعة أقدام فقط، يسكنه نحو من عشرين إلى ثلاثين شخصاً وفيما عدا ذلك، لم يكن أي شيء موجوداً بالنسبة لها

اطلقت ثانية من النافذة الصغيرة فوجدت تحتها سحاباً طبقات من الغيوم كأنها وعاء العطر هذا في مكان ما تحت الغيوم كان يرقد العالم الذي عرفه فكتوريا حتى الآن اعتدت وتمالكت نفسها قالت السيدة كليب تتكلم، ونزعت فكتوريا العطر من أذنيها والتفتت إليها بانتباه

في المقعد أمامها بعض السير روبرت ونزع قبعته ذات الحواف المربعة ووضعها على الرف فوق رأسه، ثم غض رأسه بأكمله السحاب بأعلى رداته واسترخى في مقعده قالت فكتوريا بنفسها بتحير لا مبرر له إذا من الحماقة التحدث!

كانت السيدة كليب تسمره في مقعدها وأمامها مجلة مفتوحة، وكانت تلك فكتوريا بين الحين والآخر تحركة خفيفة من مرفقها،

وعندما حاولت قلب الصفحة بيدها السليمة ارتعدت المجلة ووقعت على الأرض

نظرت فكتوريا حولها، ثم رأت أن السفر جواً مسألة مملة حقاً فحب محله، فوجدت أمامها مباشرة دعاية تقول افعل تريدين زيادة كفاءتك كفاءتك اختر ب٢٩ فريدت وأغمضت المجلة، ثم أسندت ظهرها إلى مسند مقعدها وبدأت تفكر بإدوارد

عطف الطائرة بسلاسة في مطار كاميل بيتو في طرابلس نزلت تلك عاصفة من الأمطار وكانت فكتوريا قد عدت لأن مريضة بعض الشيء، ولذلك فقد احتاجت لاستجماع كل طاقتها تتجه بواجبها تجاه مستخدمتها وقد جيء بسيارة قادتهم وسط المطر متهمر إلى الاستراحة أمام السير روبرت العظيم فقد لاحظت فكتوريا أن ضابطاً يرتدي بذلة رسمية وأشرطة حمراء قد كان في استقباله، وأنه أخذ على عاتقه شخصياً تأمين سيارة عسكرية إلى بيت أحد المقتدرين في المدينة

خُصِّصت لهم غرف، وساعدت فكتوريا السيدة كليب في الأعمال وتبديل الثياب، ثم ركنتها لترتاح في ثياب النوم، حتى يحين وقت الوجبة المسائية وعادت إلى غرفتها فتمددت وأغمضت عينيها وهي تشعر بالأمان إذ وقعت عينها المعروف عنه السفر بحراً وجواً في جميع أنحاء العالم

استيقظت بعد نحو ساعة من ذلك وقد تحسن حالها وشعرت بالجوع، وذهبت تساعد السيدة كليب وسرعان ما جذبت مجلسها أكثر سلطاً بالنزول إلى السيارات في انتظارهم لتقلهم إلى حيث وجهة

العشاء. وبعد العشاء انحرف السيده كليب في حديث مع بعض رفاق السفر، ويبدو أن الرجل الذي يرتدي معطفاً ذا مربعات صاروخة اللون قد أعجب بفكتوريا، وقد أخبرها بشكل مفصل بكل تفصيلات صناعة أقلام الرصاص.

بعد ذلك أُعيد المسافرون إلى دار الاستراحة وقيل لهم إن عليهم أن يكونوا جاهزين لمغادرة في الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي. قالت فكتوريا بشيء من الحزن: ولكنك لم ير الكثير من طرابلس، أليس كذلك؟ أهكذا يكون السفر بالطائرة دائماً؟

أجابتها السيدة كليب: نعم، هو كذلك كما أخشى. إن طريقة إيقاظهم للمرء في أول الصباح طريقة سادية تماماً. وبعد ذلك غالباً ما يتركونك تنكمش في المطار ساعة أو ساعتين! بل إنني أذكر أنهم أيقظونا مرة في روما عند الساعة الثالثة والنصف صباحاً، وتناولنا الإفطار في المطعم في الساعة الرابعة، ولما ذهب إلى المطار لم يغادر عملياً إلا في الساعة الثامنة. ومع ذلك كله، فالجيد في السفر هو أنهم يوصلونك إلى وجهتك مباشرة دون لفّ ودوران في مختلف الأصقاع.

سهدت فكتوريا، فقد كان يسعدها الكثير من اللف والدوران؛ فهي تريد رؤية العالم. وسألت السيدة كليب بفضول: أتدرين يا عزيزتي؟ تعرفين ذلك الرجل ذا المظهر المثير، الرجل البريطاني؟ ذلك الذي يدور الغمط كله حوله. لقد اكتشفتُ من يكون. إنه السير روبرت كروفتن لي، الرحالة المعروف. لا شك أنك سمعت به.

نعم، تذكرت فكتوريا الآن. لقد كانت قد رأت العديد من الصور

في الصحف قبل بضعة أشهر. كان السير روبرت عالماً شهيراً في ما يخص جغرافية الصين الداخلية. كان واحداً من العلماء الذين يدرسون الكتب ويرأسون لأسفار، وكان قد جال في المناطق المجهولة من كردستان وتبت الصينية. وقد حصل كتبه شعبية عالية لأنها كُتبت بأسلوب رشيق ذكي. وبينما كان في منزل السير روبرت ما يوحي بالدعابة والمرح، فقد كان له جانب وجيه يبرز به دائماً. وتذكرت فكتوريا أن رداءه الطويل ذا الحزام الذي يتدلى حوله وقبعته العريضة كانت طريفاً خاصاً ومقصوداً اختاره بنفسه.

سألت السيدة كليب بشكل حماسة صاحبي الأسود: بينما كنت فكتوريا تعدّل أحزمة السرير حول جسدها المتمدد: أليس هذا مثيراً؟

وجدت فكتوريا على أن ذلك كان مثيراً جداً، ولكنها قالت لنفسها إنها تفضل كتب السير روبرت على شخصيته! فقد رأت فيه ما يسميه العامة «متعاجرفاً».

كانت البداية مرتبة في صباح اليوم التالي. كان الجو قد صفا وانشمس قد أشرقت، وقد خلت فكتوريا تشعر بشيء من خيبة الأمل لأنها لم ير إلا القليل من طرابلس. ومع ذلك فقد كان محطماً أن تصل الطائرة إلى القاهرة وقت العداء، فيما لو يكون المغادرة إلى بنغازي إلا في صباح اليوم التالي، وبذلك سيكون بمقدورها على الأقل أن ترى شيئاً من مصر في فترة ما بعد الظهر.

كانت الطائرة تطير فوق البحر، ولكن سرعان ما غطت الغيوم منظر البحر الأزرق. فتمددت فكتوريا في مقعدها وهي تتأمب،

وأمامها كان السير روبرت قد غط في النوم. كانت الغسوة قد سقطت عن رأسه الذي انحنى للأمام مقترباً بين الحين والآخر. ولاحظت فكتوريا -بشيء من سخرية الحاقدة- أن له شعراً منورماً بدأ عند مؤخرة عنقه. أما سبب استياقها بتلك الحقيقة فقد كان عصبية على السير ربما لأن ذلك جعل الرجل العظيم يبدو أكثر بساطة وضعفاً، فهو هو لا يختلف عن غيره من الناس. فربما لإرهاق الجسم الصغير ويمكن القول إن السير روبرت قد حافظ على سلوكه الاستعالي وثم بأنه قد شعرة برقاق سفره. وفكرت فكتوريا قائلة لنفسها: من يراه يظن نفسه؟

ولكن الجواب كان واضحاً، فقد كان السير روبرت كرومرتي رجلاً شهيراً. وكانت هي فكتوريا جونز مجهولة حقيرة لا يؤبه لها وليست لها أية قيمة

عند الوصول إلى القاهرة تناولت فكتوريا والسيدة كليب الغداء معاً، ثم أعلنت الأخيرة أنها ستأخذ غيلولة حتى الساعة الخامسة، وأشارت إلى أن فكتوريا ربما أعجبها أن تذهب وتزور الأهرامات ثم قالت: لقد رتبت لك أمر سيارة يكون معك فيها سائسة جورج. لأني أعرف أنك لا تستطيعين صرف أية أموال هنا بسبب تعليمات وزارة المالية البريطانية

أحست فكتوريا (التي لم يكن معها أصلاً مال لتنفقه) بالامتنان، وعبرت عن امتنانها بشيء من الحماس. فقالت السيدة كليب: ليس هذا بشيء أبداً. فقد كنت لطيفة جداً معي، وقد سعدنا بالدولار يجعل كل شيء سهلاً بالنسبة لنا. إن السيدة كليب صاحبة الفيلا

البريطانية، منهمكة تماماً على الذهاب للأهرامات أيضاً، ولذلك فقد حبذت عليها أن تذهب معاً. إن كان ذلك يناسبك؟

كل شيء يناسب فكتوريا طالما أنها ستترى العالم. وهكذا قالت السيدة كليب: حسناً إذن، من الأفضل أن تغادرا الآن مباشرة.

كانت فترة العصر عند الأهرامات مبهجة تماماً. ورغم أن فكتوريا كانت تحب الأطفال عموماً، إلا أنها كانت مستمتعة بهذه الرحلة أكثر لو لم يكن طفلا السيدة كليب موجودين! فالأطفال يصبحون مصدر إزعاج في أية نزهة يكون الهدف منها رؤية المناظر أو الآثار، وقد عجب الطفل الأصغر كثيراً لأن السراتين عادتا إلى الفندق في وقت أبكر مما كانت تتوقعانه

رمت فكتوريا نفسها على السرير متثائبة بتعب كثير. لو أنها استمتعت للمكوث في القاهرة لمدة أسبوع. وربما السفر إلى عالي أيضاً. ولكنها سألت نفسها باستياء قائلة: وماذا سيحدث لتعبك يا فتاتي؟ ألا يكفي أن سفرك قد تحقق لتأمين سفرك إلى بغداد دون مقابل؟ سألتها صوت داخلي واعي: وماذا ستفعلين عند وصولك في بغداد وليس في جيبك إلا بضعة جنيهات؟ ولكن فكتوريا بحثت هذا السؤال جانباً، إذ يبغي لأدوارد أن يجد لها عملاً وإذا لم يستطع فإنها ستجد هي عملاً لنفسها. فساد الفقر؟

أغلقت عينيها بهدوء بعد أن بهرها ضوء الشمس الساطع. ثم نهضت على صوت قرع بعنف على باب غرفتها. صاحت "ادخل"، ولما لم تجد جواباً نهضت عن السرير وقطعت الغرفة إلى الباب وفتحته. ولكن الغرفة لم تكن فارغة. فقد كان على الباب الذي يليه

في المعر كانت واحدةٌ أخرى من أولئك المضيفات اللاتي لا مهرب منهن، ذات شعر أسود وري مرتب، تفرع باب غرفة السير وروبرت وقد تفتح الباب في الوقت الذي أطلّت فيه فكتوريا من بابها وقال بصوت متزعج تماماً: ما الأمر؟

سمعت المضيفة بصوت ناعم: إني آسفة جداً على إزعاجك يا سير روبرت، ولكن هل لك أن تأتي إلى مكتب شركة الطيران؟ إنه على بعد ثلاثة أبواب من هذا المعر. الأمر مجرد قضية صغيرة بخصوص رحلتك غداً إلى بغداد.

- آه، حسناً.

انسحبت فكتوريا إلى غرفتها، وقد أصبحت أقل تعاسةً الآن. نظرت إلى ساعتها فوجدتها لم تتجاوز الرابعة والنصف بعد. أي أن أمامها ساعة ونصفاً قبل أن تحتاج السيدة كليب فورت الخروج والمشي في القاهرة، فالمشي لا يحتاج تقوداً على الأقل.

أصبحت من هيئتها وارتدت حذاءها الذي شعرت أنه ضيق على قدميها (بعد سبت الرحلة إلى الأهرامات ورمال فيهما)، ثم خرجت من الغرفة ومشت في المعر باتجاه الدعامة الكبيرة للصدى وبعد ثلاثة أبواب عبرت مكتب خطوط الطيران الذي عُلّقت على بابه لوحة تؤكد ذلك، وقبل هي تعبر أمامه انفتح الباب وخرج منه السير روبرت مسرعاً بحيث تجاورها في خطوتين ومضى أمامها ورداؤه يطير خلفه، وخُيّل لفكتوريا أنه صرخ من شيء ما.

كانت السيدة كليب في مزاج معكر بعض الشيء عندما جاءتها

فكتوريا في الساعة السادسة. قالت إنني قلقة بشأن الزيادة في وزن أمتعتي يا آنسة جوبر. لقد كنت أظن أني دفعت أجور لأمتعة لكامل الرحلة، ولكن يبدو أن ما دفعته كان أجور شحن لأمتعة إلى القاهرة فحسب. سيسافر عدداً على من الخطوط الجوية العراقية إن بطاقتي تغطي كامل الرحلة، ولكنها لا تغطي الزيادة في وزن لأمتعة. هل لك أن تدعي لي إن كان الأمر حقاً كذلك؟ لأني قد أضطر إلى صرف شيك سياحي آخر.

راقب فكتوريا على الاستفسار عن ذلك. ولم تستطع في البداية العثور على مكتب الخطوط الأخرى، ثم وجدته أخيراً في المعر الآخر البعيد، في الجانب الآخر من الدعامة، وكان مكتب صغيراً وقد افترضت أن المكتب الآخر كان صغيراً ولا يُستخدم إلا خلال استراحة ما بعد الظهر. وقد بين أن مخاوف السيدة كليب بشأن الزيادة في وزن الأمتعة كانت في مكانها، وهو ما أزعج السيدة كليب كثيراً.

* * *

الفصل الثامن

في الصباح تجمع الموظفون في مكتب شركة فالهالا للتجارة في مدينة لندن. جميع مكاتب شركة فالهالا للتجارة موجودة في العاصمة البريطانية. كان الرجل الجالس خلف المكتب هناك يقرأ كتاباً في الاقتصاد، ورنّ جرس الهاتف فرفع السماعة وقال بصوت هادئ يخلو من العاطفة: شركة فالهالا للتجارة.

- هل ساندرز هنا؟

- ساندرز صاحب النهر؟ أي نهر؟

نهر دجلة بالتحديد! أنا لست أفقدنا أثرها

ساد لحظة صمت، ثم تكلم الصوت الهادئ من جديد، ولكن بنبرة فولاذية قاسية: ألتراني سمعتُ ما قلته بشكل صحيح؟

لقد فقدنا أثر آنا شيل

لا تستخدم أسماء هذه خلفة خطيرة جداً منك. كيف حدث ذلك؟

لقد دخلتْ إلى تلك المصحة أخبرتك بذلك من قبل، فقد كانت أختها تخضع لعملية

نعم، وبعد ذلك؟

مضت العملية بشكل جيد. وقد تركنا عزيزتنا آنا تأوي إلى فندق ساوثي من جديد، إذ كانت قد أنهت على حجز جناحها. ولكنها لم تعد! وقد أبقت رقمة على المصحة وكنا متأكدين تماماً أنها لم تغادرها. افترضنا أنها ما تزال هناك

وهي ليست هناك؟

لقد اكتشفنا -لتونا- أنها قد غادرت المصحة، في سيارة إسعاف، وذلك في اليوم الذي أعقب العملية

- لقد خدعتكم عاهرة، أليس كذلك؟

يبدو الأمر كذلك. ولكني مستعد لأن أقسم بأنها لم تعرف أن أحداً يتعقبها، فقد أعدت كل الاحتياطات، وكان يتبعها ثلاثة من رجالنا

مع هذه المعلومات، أين أخذتها سيارة الإسعاف؟

- إلى مستشفى تجاوزه

وماذا قالوا لك في المستشفى؟

قالوا إن مريضة قد أُدخلت بوقفة ممرضة. لا شك أن

الممرضة كانت نائمة ولا يدري أين ذهبت الممرضة بعد أن أدخلت المريضة

وماذا عن المريضة؟

المريضة لا تعرف شيئاً؛ فقد كانت تحت التخدير

- إذن فقد خرجت أنا شبل من مستشفى الجامعة برفي ممرضة، وربما كانت الآن في أي مكان؟

نعم، ولكن إن عادت إلى فندق ساڤوي.

قاطعه الآخر قائلاً: إنها لن تعود إلى الساڤوي.

هل بحثت في الفنادق الأخرى؟

- نعم، ولكني أشك في إمكانية وصولكم إلى أية نتائج؛ فهذا ما نتوقع منكم فعله

- هل من تعليمات أخرى في هذه الحالة؟

- فتشوا في الموانئ: في دوفر، وفوكستون وغيرهما. فتشوا في المطارات الجوية، وخصوصاً ديفر في كل الخجورات إلى بغداد في الأسبوعين القادمين. إن البطاقة لن تُحجز باسمها نفسه، ولذلك دققوا في جميع المسافرين ممن تتقارب أعمارهم مع عمرها

- ونحن أمنعتها ما تزال في الفندق. ربما عادت لأخذها

- لن تقوم بأي تصرف من هذا القبيل. ربما كنت أنت مغفلاً، ولكنها ليست بالمغفلة. هل تعرف أختها شيئاً؟

إنها على اتصال بممرضتها الخاصة في المصحة. يبدو أنها ترى أن أشبل في باريس تعقد صفقات للمصحة فورغاشان، وهي تعيش في فندق ريتز. وهي ترى أن أشبل سيعود إلى الوطن في الثالث والعشرين من الشهر

أي أن أشبل لم تخبرها شيئاً. نعم، ما كانت لتجرؤ أحداً. ستعرف في آخر الخجورات العراقية ذلك. إنها أمنيتها الوحيدة. إنها مضطرة لتدبر أمرها إلى بغداد. والسفر جواً هو الطريقة الوحيدة التي يمكن أن توصلها في وقت قصير. ثم، اسمع يا سامرز

نعم؟

لا أريد حالات فشل أخرى. هذه فرصتك الأخيرة

* * *

الفصل التاسع

يعمل السيد شريمهام، الشاب العامل في السفارة البريطانية، ثقته من إحدى قدميه إلى الأخرى وينظر الى الأعلى فيما كانت الطائرة تميل متجهة نحو مطار بغداد. كانت روبعة رمية كبيرة تتصدم مطلعه البيوت والناس والشجر النخيل بعلاله بية كثيفة، وقد جاءت تلك العاصفة فجأة دون مقدمات. قال ناسي عميق: لأرجح أن لا يستطيعوا الهبوط هذ

سأله صديقه هارولد: ماذا سيفعلون إذن؟

أعتقد سيعودون في الطيران إلى البصرة سمعت أن الجو صاف هناك

- أنت في استقبال شخصية كبيرة، أليس كذلك؟

ابتسم الشاب شريمهام مرة أخرى بتدبر قائلاً: إنه سوف طالعي، فالسفير الجديد ناجر في لانكشاير بعمله، والمستشار الأول في إنكلترا، ورئيس (المستشارين الشرفيين) مريض في فراشه، مصاب بالتهاب معدته وحرارة مرتفعة إلى حدّ خطير. ويسبب في ظهران، وهذا يعني أنني أتحمل كل شيء. لا أدري سبباً لكل

هذه الأعمال والضجة بشأن هذه الرحلة حتى العاملون في المجال الأمني صعقوا بشأنه. إنه واحد من أولئك الجواسيس حول العالم، يراه دوماً في أماكن نائية على خريطة. لا أدري سبباً يكون بمثل هذه الأهمية، ولكن يبدو واضحاً أنه شديد التأثير في تخصصه، ومطلوب مني أن أكون أدنى رعبة به. ربما تعطب كثيراً إذا ما واصلت الطيران فوقها واتجهنا إلى البصرة. لا أدري ما هي التوجيهات التي يحسن بي إصدارها. أأذهب إليه وأطلب إليه ربط الحزام؟ أم أجعل الفرقة الجوية الملكية تحضره غداً؟

تنهد السيد شريمهام مرة أخرى مع تعمق إحساسه بالعبء والمسؤولية، منذ وصوله إلى بغداد قبل ثلاثة أشهر ظل حظه سيئاً باستمرار، وقد شعر بأن من شأن تأنيب آخر يتلقاه من رؤسائه أن يمنحه حياة مهنية كان يمكن لها أن تكون واعدة جيدة.

انحدرت الطائرة فوقهما مرة أخرى. وقال شريمهام: من الواضح أن الطيار يرى صعوبة في الهبوط. ثم أضاف بانفعال: آه، انظر يهبط.

بعد ذلك بلحظات كانت الطائرة قد حطت بهدوء في مكانها، ورفع شريمهام حاجبه تعجباً فيما لاحظ عليه غير الخبير، فقد حمى بعض السوء قبل أن يغير بي الأمر. سحب الرجل الذي يشبه الفرصان برداءه المنطاير وفكر قائلاً بنفسه باشمئزاز: إنه رجل غريب متناقض. فيما كان يعرف لصيقه في نفس الوقت. السير رويرت كروفتي؟ أن شريمهام، من السفارة.

رأى أن السير رويرت كان مغتصباً بعض الشيء في كلامه بشكل

يكاد يرجى بنواحه، ولكن ربما كان ذلك مفهوماً بعد ما تعرض له من عناء الدوران حول المدينة دون التأكد من إمكانية الهبوط قال شريفهام يوم سيء لقد شهدنا الكثير من هذه الأحوال الجوية هذا نعم آه، لقد جربت حظك هل لك أن تنحي يا سيدي؟ التربيات كلها مهيأة

قال شريفهام وهو يغادر المطار بالسيارة مع لمحظات- أنكم ستضطرون لتذهب إلى مطار آخر يا سيدي لم يبدُ أن الطيار قادر على الهبوط لقد ظهرت هذه العاصفة الرملية فجأة

تنهد السير رويرت أو داجه تعبيراً عن أهميته وقال كان من شأن ذلك أن يكون مأساوياً مأساوياً تماماً إني أؤكد لك أيها الشاب أن برنامجي -لو أفصحت- لكانت تتمتع بالغة الأهمية وبعيدة المدى إلى أقصى الحدود

حاظب شريفهام نفسه بارد ، يا له من طاووس متجهم! إن أصحاب المنزلة الرفيعة هؤلاء يظنون أن مسائلهم التافهة هي التي تجعل العالم يدور أن بعضهم الغبي قد قال باحترام أحسب ذلك صحيحاً يا سيدي

- هل تعلم متى سيصل السفير إلى بغداد؟

لا يوجد شيء مؤكد بعدُ - يا سيدي

سأشعر بالأسف إن فاتتني رؤيته لم أره منذ عند زفافي له في الهند عام ١٩٣٨

حافظ شريفهام على مظهر الاحترام الصامت، وسأله السير رويرت ألمي أن رأيس هناء أليس كذلك؟

بلى يا سيدي، إنه المستشار للشؤون الشرقية

إنه رجل قدير ويعرف الكثير من الأمور سيسعدني أن أراه ثانية

سحح شريفهام وقال الحقيقة يا سيدي أن رأيس مريض وقد اضطره إلى التقاعد حالته أصابته حالة من التهاب المعدة والأمعاء حالة أسوأ قليلاً -كما يبدو- من أمراض المعدة التي تحدث في بغداد عادة

التفت السير رويرت بحدة وقال: ما هذا المرض؟ التهاب معدي معوي سيء تضخم حاده فجأة، أليس كذلك؟

أرى أمس يا سيدي

قطب السير رويرت جبينه منقطب عنه مظهر لابهة المحطمة وقد وحلاً أكثر بساطة هذا رجلاً نفذ بعض الشيء قال إني لأتساءل نعم، إني غير مرتاح بذلك

نظر إليه شريفهام متسائلاً بأدب، فقال السير رويرت إني أتساءل إن كان يُحتمل أن تكون هذه حادثة من حالات شيل هربن؟

بقي السيد شريفهام ساكتاً وقد أصابته الحيرة واقترب السيارة من جسر فيصل، ثم انعطفت إلى اليسار باتجاه السفارة البريطانية وفجأة انحنى السير رويرت إلى الأمام وقال بحدة هل لك أن تقف

تحفه؟ نعم، على الجانب الأيمن، حيث تلك الأواني هناك

تهادت السيارة باتجاه الرصيف الأيمن وتوقفت. وكان هناك محل بلاوي الفخارية يكومت فيه مختلف أنواع الخزفيات والأباريق وكان ثمة رجل اوروبي قصير القامة قوي البنية يتحدث مع صاحب الدكان، وما لبث أن تحرك باتجاه الجسر عند اقتراب السيارة وقد ظن شريفهام أنه الرجل هو كروسبي الذي سبق له أن التقاه مرة أو مرتين

قفز السير روبرت من السيارة ومشى إلى محل الفخاريات، ثم أخذ يحدق الخزف وشرع في حديث ساخنة العربية مع صاحب المحل وكانت سرعة الحديث أكبر من أن يستطيع شريفهام فهمه بعربيته التي كانت -حتى الآن- تحيط فيه المفردات ويكتنفه الحديث بها عتماً عظيماً

كان صاحب المحل يبتسم مادّاً ذراعيه وهو يؤشر ويشرح بوسهاب وأمسك السير روبرت بعدة أوانٍ فخارية، وبعد أنه يطرح أسئلته عليها وأخيراً حدد إبريق صاح، فيما يظن، واعطى الرجل بعض النقود المعدنية وعاد إلى السيارة قائلاً أسلوب تشكيلي مميز، يصنعون هذه الفخاريات منذ آلاف السنين، لها نفس الشكل الذي رأيته لأنية في إحدى هضاب أرمينيا

أدخل إصبعه في فوهة الإبريق الصغيرة وأخذ يتحسس الفتحة من الداخل وقال شريفهام دون تأثر صناعة بدائية تماماً

آه، ليست لها قيمة فنية! ولكنها مهمة من الناحية التاريخية

أترى مكان أدبي لإبريق هذا؟ إن يوسف التقط الكثير من المعلومات والحقائق التاريخية من ملاحظة الأشياء البسيطة في الحياة اليومية إن لدي مجموعة من هذه الفخاريات

انعطفت السيارة ودخلت بوابة السفارة البريطانية وطلب السير روبرت أن يتم أخذه إلى غرفته مباشرة، وقد استمع شريفهام بملاحظة أن السير روبرت - وقد انتهت محاضرته عن آنية الفخار - قد تركها في السيارة دون اهتمام وقد تعهد شريفهام أن يحملها إلى الطابق العلوي ويضعها بكل حرص على الطاولة قرب سرير السير روبرت قائلاً إبريقك يا سيدي

ماذا؟ آه، شكراً يا بني

ومضى السير روبرت شارداً، وقد غادره شريفهام بعد أن كرر على مسامعه أن الغداء سيكون جاهزاً بعد قليل وعندما غادر الشاب الغرفة رمق السير روبرت إلى الخادمة وضع الورقة الصغيرة التي كانت بحوزته في عمق إبريق الفخار متعمداً حتى استوت، وكان فيها سطران من الكتابة فرأهما يتمعن أكثر من مرة، ثم أحرق الورقة بعود ثقاب وبعد ذلك استدعى خادماً

نعم يا سيدي؟ هل أخرج أمتعتك من الحقائب؟

- لا، ليس الآن أريد رؤية السيد شريفهام، هنا

جاء شريفهام وشيء من ملامح الدهشة يسرح عليه، وقال هل من خدمة أستطيع تقديمها يا سيدي؟ هل يوجد خطأ؟

- سيد شريفهام، لقد حدث تغير كبير على خطتي. إني أستطيع طبعاً الاعتماد على كتمانك، أليس كذلك؟

- آه، بكل تأكيد يا سيدي

لقد مر وقت طويل منذ أن جئتُ إلى بغداد آخر مرة، بل إني لم أعد إلى هذا الحرف عملياً. أظن أن الصديق موجود عالياً في الجانب الآخر من النهر، أليس كذلك؟

بلى يا سيدي، في شارع الرشيد

وظهرها إلى نهر دجلة؟

- نعم. وفندق قصر بابل هو أكبرها، وهو الفندق الرسمي تقريباً

- ماذا تعرف عن فندق يدعى فندق تيو؟

- آه، كثير من الناس يذهبون إلى هناك، طعامه جيد، ويديره رجل ذو شخصية رائعة يدعى ماركوس تيو. إنه رجل مشهور جداً في بغداد

أريد منك أن تحجز لي غرفة هناك يا سيد شريفهام.

قال شريفهام بخشية مربكة: أنني... أنك لن تقيم في مقر السفارة؟ ولكن لا أمور كلها معده على هذا الأساس يا سيدي

صاح السير روبرت، ما أجدُّ يمكن العناء

آه، طبعاً يا سيدي إنني لم أقصد

توقف شريفهام، كان ينتابه شعور بأن أحداً ما سيلومه في المستقبل. ولكن السير روبرت مضى قائلاً: بعض المعلومات الحساسة بعض الشيء، وقد فهمت أنها لا يمكن أن تتم اتصالاً من السفارة. أريد منك أن تحجز لي غرفة للبلة في فندق تيو، وأرغب في مغادرة السفارة بشكل لا يلفت الأنظار. أي أنني لا أريد الذهاب إلى الفندق بسيارة تابعة للسفارة، كما أنني أريد حجز مقعد على الطائرة المغادرة إلى القاهرة بعد غد

بدا شريفهام أكثر خشية وأسىً وقال: ولكني فهمت أنك ستمضي خمسة أيام

- لم يعد الأمر كذلك. من الأهمية البالغة أن أصل القاهرة حالما ينتهي عملي هنا. لن يكون بمقاي أكثر من ذلك. مسألة أمنية

أمنية؟!

ابتسم السير روبرت ابتسامة مفاجئة غيرت ملامح وجهه وأزاحت عنه تلك السمة التي كان شريفهام يشبهها بسمة ضابط تدريب بروسي. لجأة أصبح سحر الرجل ظاهراً وقال: أتفق معك على أن الأمان لم يكن من مشاغلي عادة، ولكن في هذه القضية بالذات ليست سلامتي الشخصية فقط هي ما يستحق التفكير فيه. فسلامتي هي بحق سلامة الكثير من الناس أيضاً. ولذلك قم بوجود تلك الترتيبات لي وقم بتعقير الحجز على متن الطائرة، فتقدم بطلب أولوية سابقي في عرفتي إلى أن يحين موعد مغادرتي الليلة

وعندما فتح شريفهام فاه ليتكلم أضاف السير روبرت رسمياً

قال إنني مريض عدوى ملاريا، بحيث لن أحتاج إلى طعام

- ولكننا يستطيع أن نرسل لك

فاطعه السير هنري ضاحكاً إن صيام أربع وعشرين ساعة عن الطعام لا يعني شيئاً بالنسبة لي. لقد جعلت نفسي أطول من ذلك في بعض رحلاتي. اصنع فقط ما أقوله لك

في الطابق السفلي حاء رملاء شريعهم يحيونه ويسألونه، ودعدم هو مجيباً على أسئلتهم إنها قصة دسائس وتجسس على مستوى كبير. لا أستطيع أن أفهم تماماً بحجم السير روبرت كروفتس لي هل سلوكه هذا أصيل أم مجرد تصنع وتمثيل الرداء المتطاير وقيعة الأشقياء. إلى آخر تلك المظاهر. لقد أخبرني بعض من قرؤو كتبه بأنه رغم مبالغته في الدعاية لنفسه- قد قام فعلاً بكل تلك الأمور وذهب إلى كل تلك الأصقاع ولكني لا أدري. لست توماس رايس قد شفي من مرضه ليتعامل مع هذا الأمر وبالمناسبة، لقد ذكرتموني، هل سمعتم بشيء يدعى فيل غرين؟

قال صديقه متجهماً. إنه مادة كيماوية مما تستخدمه الزوجات للتخلص أزواجهن، أو العكس

انكمأ شريعهام إلى حاله من الصمت المدهور؛ فقد بدأ تتضح له بعض الحقائق الكريهة. لقد أشار كروفتس لي إلى أن توماس رايس، مستشار سفاره بالشؤون الشرقية، ربما لم يكن يعاني من التهاب المعدة و لأمعاء، بل من تسمم بالزرنيخ. ويضاف إلى ذلك أن السير روبرت أشار إلى أن حياته هو في خطر، وقد أدى قراره بعدم تناول أطعمة وأشربة مُحضّره في مطبخ السفاره البريطانيه إلى

هز روح البرعه بريطانيه عند شريعهام من الأعماق. لم يستطع تحمل معنى لهذا الأمر كله

* * *

الفصل العاشر

لم يكن انطباع فكتوريا الأول عن بغداد إيجابياً وهي تنظر تراباً أصفر خانقاً ومن المطار وحتى فندق تيو كانت أمامها عرضة لضجيج مستمر متصاعد أبواق السيارات تزعق بإصرار مجنون، وأصوات تصيح، وصفارات تصفر، وفوق ذلك أبواق الدراجات النارية التي تصم الآذان وفوق ضجيج الشارع كله كان يأتيها صوت السيدة كتيب الرفيع المستمر وهو يتكلم وهكذا وصلت فكتوريا إلى فندق تيو في حالة ذهول ووجوم

كان هناك رفاق صغير يقرع من شارع الرشيد باتجاه دجلة، وبعد ذلك عدة درجات تؤدي إلى مدخل الفندق وعند ذلك المدخل وقف بنجهيم شاب شديد البنية ذو ابتسامة عريضة كاد (مجازياً على الأقل) أن يأخذهما بالأحضان وعندئذ فكتوريا أن هذا هو ماركوس أو بالأحرى تيو، صاحب الفندق

ضحكت كتيب ترحيبه بالأوامر التي كان يطلقها بصوت عالٍ للحمالين الذين كانوا ينقلون الأمتعة «ها أنت قد شرفتنا مرة أخرى يا سيدة كتيب ولكن ما بال دراجتك لماذا تصعيها في

هذه اللفافة الغريبة؟ (يا لهذا الحمقى، لا تحملوا الحقائب بهذا الشكل أغبياء لا تجرحوا ذلك المعطف!) ولكن يا عزيزي، كيف وصلتم في مثل هذا اليوم؟ لقد ظننت أن الطائرة لن تهبط أبداً لقد ظللت تدور وتدور، وقلت لنفسي إياك وتصغر جو يا ماركوس» لماذا كل هذه العجلة؟ وها قد أصبحت شابة نضرة من الرابع ورساً رؤية شابة جديدة في بغداد لماذا لم يأت السيد هاريسون لاستقبالك؟ لقد توقعت مجيئه أمس ولكن عليه، يبغي أن تشربا شيئاً على الفور

والآن ها هي فكتوريا تقف وهي تحس بشيء من الدوار في غرفة جدرانها مبقعة بعد الكلس فيها سرير نحاسي ضخم، وطاولة زينة فرنسية حديثة الطراز، وخزانة ملابس قديمة فكتورية الطراز، وكرسيان مجددان بقماش ذي ألوان بهيجة وها هي أمتعتها المتواضعة مستقرة عند قدميها، وعجوز هرم جداً ذو وجه أصفر وشعر أبيض على وجنتيه يحييها ويرحب لها وهو يضع مناشف جديدة في الحمام ويسألها إن كانت تريد أن يملأ لها الماء للاستحمام

وحين انسحب الشيخ بابتسامة أبوية جلست فكتوريا على السرير ومرت كفها على شعرها، فوجدته مليئاً بالغبار، فنهضت ونظرت إلى وجهها وأخيراً نظرت إلى نفسها في المرآة فرأت أن التراب قد غير لون شعرها من الأسود إلى لون بني محمرٌ غريب وفتحت السترة قليلاً ونظرت إلى الشرفة الواسعة التي تطل على نهر دجلة، ولكن لم يكن هناك ما يمكن رؤيته من النهر سوى خضمه صفراء كثيفة غاب فكتوريا لنفسها وقد داهمها كأنه عميق بعيد من مكان قريب

نهضت وهيرت استراحة الدرج ثم طرقت باب السيدة كليب سيطلب منها الأمر هذه تقديم خدمات عديدة مقبولة للسيدة كليب قبل أن تتفرغ هي لتنظيف نفسها واستعادة مظهرها

وبعد أن اغتسلت وتزينت هذه وأحدثت قبلوبه طويلة، خرجت فكتوريا من غرفتها إلى الشرفة ونظرت إلى دحديه بستان كانت الساعة الرمية هذه تلاثب، وبدل تعامها بصفرة ظهر على النهر ضوء صاف باهت الدوء، وخلف النهر خلف ظلال رقيقة لأشجار النخيل والبيوت المجتمعة فوق الضفة

ذهب إلى مسامع فكتوريا أصوات من تحديقه أسفل منها، فتقدمت إلى طرف الشرفة ونظرت تحتها كانت السيدة كليب (تلك المتكلمة التي لا تتعب) قد تعرفت بسرعة على مرأة إنكليزية من وشت السود اللاتي يتعبن شرتهن الأنواء الجوية ولا يكاد العرء يحدد لهن عمراً محدداً، ويمكن للمرء أن يرى مثلاتهن في أية مدينة عربية كانت السيدة كليب تقول ولا أدري ما الذي كانت ستقوله دونها، بل أحدثت فإنه يمكن أن نتصورها كانت أنها ذات جلالة وسعة مرموقة، إنها أنها آخ أسفت لأجلها

- أسفت على؟

- أسفت لأنها كما أظن

قالت الأخرى بإعجاب لا يوجد مثل هذا الشخص

فطنت فكتوريا بحبيبها، فقد سبرت في هذه المرأة نموذج المرأة الإنكليزية الريفية التي لا تتحدث بذكر أسافلة مرتبي

قالت السيدة كليب بارتياب وبعد كنت -إذن- قد أخطأت في تذكر الاسم، ولكنها بالتأكيد قالت رائعة وقديرة جداً

قالت الأخرى بأسلوب من لا يريد بدء وأي هذا!

قررت فكتوريا أن تبعد عن هذه المرأة قدر إمكانها، فقد شعرت بأن اختراع قصص لإسباغ هذا النوع من السيدات ليس بالأمر السهل، عادت إلى غرفتها وجلست على سرير تطلعه لنفسها هناك تتأمل موضعها الراهن، إنها تقيم في فندق تير، وهي واثقة تماماً أنه ليس بالفندق الرخيص، وهي لا تمتلك بحوزتها سوى أربعة جنيهات وسبعة عشر شلناً، وقد تناولت غداء دسماً ثم تدفع ثمنه بعد، وليست السيدة كليب مجبرة على دفع ثمنه، فقد كانت أجور السفر إلى بغداد هي هدية السيدة كليب، وقد اكتشفت الصغيرة، ووصف فكتوريا إلى بغداد، وقد تنفست السيدة كليب الرعاية المحرقة من أنه اخ استقف ومعرفته سابقة وشكوبرة قديرة، وانهى كل ذلك بما يرضي الضمير فسافر السيدة كليب بقطار المساء إلى كركوك وتمتلك بنهي كل شيء، تساءلت فكتوريا بشيء من الأمل في أن السيدة كليب ربما أصرت على منحها هدية بمناسبة انهاء خدماتها على شكل دفعة نقدية، ولكنها تخلت عن الفكرة بتردد باعتبارها فكرة غير محتملة، فقد لا تعرف السيدة كليب أبداً أن فكتوريا في حاجة ماسة للمال

ما الذي ستفعله فكتوريا إذن؟ حاولت التجرب قرر العثور على إدوارد بنطيع، وتصمد أن تكتب شيء من الارتياح لأنها لا تعرف بعد اسم خادمه إدوارد، كل ما تعرفه هو إدوارد و بغداد

بد يسعى عليها العثور على إدوارد فورّ، ويسعى على إدوارد أن يعثر لها على عمل فوراً أيضاً

ربما لا تعرف سيم عائلة إدوارد، ولكنه حدّثني بعداد كستوتير لشخص يدعى الدكتور رالبون، ويفترض أن هذا الرجل مهم ودور مركز برموق. وهكذا أصبحت فكتوريا ريتشي ومشغلت شعرها ثم بدأت الدرج بحثاً عن المعلومات

كان ماركوس، دون لابساته المعتادة، يحبر صفحة الصدى عندما دخلها فاتلاً آه، لأنه جونر ما رأيك في القدوم معي لشرب الشاي معاً يا عزيزتي؟

وافقت فكتوريا بسعادة (وهي التي لا تعارض الضيافة المجانية أبداً) جلست على طاولة في المقصف، وبدأت بحثها عن المعلومات هل تعرف شخصاً يدعى الدكتور رالبون جاء إلى بغداد لقوه؟

أجاب ماركوس تيو يمزح أن أعرف كلّ من في بغداد، وكلّ من في بغداد يعرفون ماركوس إن ما أقوله لك صحيح تماماً إن لدي الكثير الكثير من الأصدقاء

- أنا واثقة من ذلك. هل تعرف الدكتور رالبون؟

في الأسبوع الماضي جرت حفلي في نفس فندق الفوه الجديد الذي يقع في قلب الشرق الأوسط كله وقد قال لي أبهم الشيخ ماركوس لم أرك منذ عام ١٩٤٦، وأنت لم تحدث شيئاً من وزنك! إنه رجل رائع جداً، أحبه كثيراً

- وماذا عن الدكتور رالبون؟ أهو رائع أيضاً؟

- تلك السيدة هاميلتون كليب يا له من اسم! تلك التي جلبت معها أمريكية. أليس كذلك؟ إني أحب الأمريكان، ولكني أحب الإنكليز أكثر. هل تعرفين السيد سامرز؟ إنه يشرب كثيراً عندما يأتي إلى بغداد بحيث يذهب ليتم ثلاثة أيام متواصلة!

- أرجوك أن تساعدني

بدا ماركوس مدعوشاً وقال بالطبع سأساعدك إني أساعد يوماً أصدقائي هو في عداد مريدين وسيشعّد في الحال شويحه حجم معجزة، أم ديك حبش مع الأرز والرشب، أم تحضير الفراريج الصغيرة؟

قالت "لا أريد فراريج صغيرة"، ثم أضافت شيئاً من الوقاحة ليس لأن على الأقل أريد العثور على هذا الدكتور رالبون الدكتور رالبون لقد وصل لتوه إلى بغداد مع مع سكرتير له

لا أدري، إنه لا يقيم في تيو

كانت لإشارته واضحة إلى أن كل من لا يقيم في فندق تيو ليس له وجود بالنسبة لماركوس الحب فكتوريا قائلة ولكن توجد فنادق أخرى؟ أو ربما كان له بيت خاص؟

آه، نعم، توجد فنادق أخرى قصر بابل، وسنجاريب، وفندق رشيد وهي فنادق جيدة، ولكنها ليست مثل تيو

طمأنته فكتوريا قائلة أن واثقة أنه ليس كفندق تيو، ولكن

ألا تعرف إن كان الدكتور رشوت يعمل في أي منها؟ إنه يدير جمعية ما شيئاً ذا علاقة بالثقافة والكتب

عدا ماركوس شديد الجدية لذكر الثقافة وقال إنها ما تحتاجه يجب أن يكون لديه الكثير من الثقافة في الموسيقى أمور رائعة، رائعة جداً أن شخصيات أحب السيمفونيات التي تعرف على الكمان، إن لم تكن طويلة جداً

وفي حين كانت فكتوريا تواظبه على كل شيء، وخاصة على عبارته الأخيرة، أدركت أنها لا تقترب أبداً من هدفها رأت أن الحديث مع ماركوس ممل جداً، وأن ماركوس شخص جذاب بحماسته الطفولية للحياة، ولكن بحديث معه تذكرت بسي «أليس في بلاد العجائب» لتصور على درب يعودها إلى الثلاثة عند كان كل موضوع ينتهي إلى نقطة انطلاقه لأولى ماركوس!

نهضت حزينة وخرجت إلى المنصة الخارجية ووقفت قرب سياجها تنظر إلى النهر، ثم ما لبثت أن سمعت صوتاً من خلفها يقول «عفو»، ولكن من الأفضل أن تذهبي وترتدي معطفاً أعلم أن الجو يبدو لك صيفياً كونك قادمة من بكنغر، ولكنه يبرد كثيراً عند الغروب

كانت تلك هي المرأة الإنكليزية التي رأتها فكتوريا تتكلم مع السيدة كيب قبل قليل كان صوتها جهش كما لو كانت معتادة على تدريب كلاب صيد تديم الصياح فيها، وكانت ترتدي معطفاً من الفرو وتضع نظارة على وجهها

قالت فكتوريا «آه، شكراً لك»، وكانت على وشك الانسحاب

بسرعة، ولكن نوايا لم تطيع، إذ قالت لها المرأة «يعني أن أعرفك يعني أنا السيدة كاردينو تريتش أظن أنك وصلت مع السيدة ما اسمها؟ السيدة كيب»

نعم، هذا صحيح

- لقد أخبرتني أنك ابنة أخ أسقف لانغو

سحمت فكتوريا هواء وسألت بالقدر المناسب من العجب اللامي «أوحقاً قالت ذلك؟!»

- أيمكن أن تكون قد أخطأت في الاسم؟

قالت فكتوريا «يميل الأمريكيون لحفظ بعض أسمائنا بشكل خاطئ» ولكن الاسم يشبه قليلاً اسم لانغو» ثم قالت وهي ترتجل بسرعة إن عمي هو أسقف لانغو

- لانغو؟!

نعم في أوخيين المحيط الهادئ إنه أسقف المستعمرة هناك بالطبع

قالت السيدة تريتش وقد خفّت نبرة صوتها ثلاث درجات صوتية على الأقل «آه، أسقف المستعمرة؟»

وكما توقعت فكتوريا فإن السيدة تريتش كانت جاهلة تماماً بتبعية المستعمرات أضافت السيدة تريتش قائلة «هذا يفسر

الأمر»، وفكرت فكتوريا بصوت يأس هذا يفسر الأمر بشكل رائع بالنسبة إلى كذبة كانت مرتجلة من وحي اللحظة!

سألت السيدة تريتش بدهشة «ود اللطيف الذي لا يقارع، والذي يحمي حديقة فصولاً طبيعياً وماذا تفعلين أنت هنا؟»

رد جواباً من قبيل «أبحثُ عن شاب تحدثت معه لعدة دقائق في حديقة عامة في لندن» لا يكاد يكون جواباً يمكن لفكتوريا أن تجيب به تذكرت ذلك المقطع الذي قرأته في الصحيفة ومن دلته بسيدة كتيب بناء عليه ثم قالت بسيدة تريتش «هي سألتحق بمعهد الدكتور باوسفورت جونز»

- آه، تلك هي أنت إذن؟

بدا سرور السيدة تريتش واضحاً لتمكنها من «تحديد موقع» فكتوريا، وأضافت «إنه من رجل فضيل رائع! رغم أنه شارد الذهن قليلاً ومع ذلك أعتقد أن الشرود مسألة متوقعة منه لقد سمعته يحاضر السنة الماضية في لندن. كانت محاضرة رائعة رغم أنني لم أفهم حرفاً مما قيل فيها نعم، لقد مرّ من بغداد قبل بحر أسبوعين، وأظنه أشار إلى فتيات سيلتحقن به في وقت لاحق

سارعت فكتوريا «وقد رشحت الآن هويتها ومكانتها» إلى طرح سؤال «هل تعلمين إن كان الدكتور وانبورن قد في بغداد؟»

لقد جاء لنزوه أظنهم طلبوا منه إلقاء محاضرة في المعهد يوم الخميس القادم، محاضرة عن «الأحذية والعلاقات الدولية» أو موضوعاً من هذا القبيل وهذا كله هراء إن أردتِ رأيي كلما حاول

المرء التقريب بين الناس كلما ووجه شكرهم بعضهم ببعض كل هذا الشعر والموسيقى وترجمة شكسبير إلى العربية والعبرية والهندوسية إلى آخر ذلك. ما فائدة هذا كله؟

هل تعرفين أين يقيم؟

أظنه في شارع القصر البابلي، ولكن مقر عمله قرب المتحف إنه يسمى «حصن الزيتون» اسم سخيف، وهو مبنى بالقباب ذوات المزاريب العريضة والظارات والرفاف المشبكة

إنني أعرف سكرتيرة محترمة بسيطة

آه، نعم ما اسمها؟ إدوارد إنه شاب لطيف، وهو أفضل من أن يُحشر في عمل مثلي كمعلم الكترونيا سمعت أنه أبلى بلاءً حسناً في الحرب، ومع ذلك فالعمل هو العمل إنه شاب وسيم، ويحيل لي أن وجوده يعمه على أولئك الفتيات هناك

شعرت فكتوريا بوخز غيرة مبعثرة وقالت «حصن الزيتون» بل قلب مكانه؟

هناك بعد منعطف الجسر الثاني، في أحد فروع شارع رشيد غير بعيد عن سوق النحاس ولكن كيف حال السيدة باوسفورت؟ هل سمعتِ أن صحتها كانت سيئة؟

ولكن بعد أن حصلت فكتوريا على المعلومات التي تريدها ثم بعد رغبة في المجاملة بالمزيد من القصص المحترمة نظرت إلى الساعة في معصمها وصاحت «آه، يا إلهي! لقد وعدتُ بيعاظ

السيدة كليب في الساعة السادسة والنصف وساعدها في التحضير للرحلة على أن تذهب بسرعة

كان التقدير صحيحاً تماماً، رغم أن فكتوريا قد استبدلت الساعة السادسة والنصف بالساعة السابعة. فرغم صعوبة على الدرج بحيوية تامة، إذ أنها سترى إدوارد غداً في الفصل الربيعي. فباب جلباب متسحاب الرقاب قد يوحي بأنهن أبعد ما يكُنَّ عن الجاذبية. ومع ذلك فكرت فكتوريا بقلق بأن الرجال أقل ملاحظة وتعداداً للرقاب المتسعة من النساء. فالبكينيهات الكهلات اللاتي يؤلفن عميلة خاصة للمحافظة العامة من أمثال السيدة تريتشل!

مرّ المساء سريعاً، وتناولت فكتوريا وجبة مبكرة في غرفة الطعام مع السيدة كليب التي لم تترك موضوعاً لم تُعنَ فيه بالتفصيل. وقد حثت فكتوريا على الذهاب لزيارتها يوماً ما في كركوك. وقد كتبت فكتوريا العنوان بعناية (لأن المرء لا يدري ما يأتي به الأيام)، ثم راقبت السيدة كليب إلى محطة بعداد الشمالية واطمأنت على جلوسها بارتياح في مقصورتها.

هدر محرك القطار بصيحات عالية كئيبة، ووقفت السيدة كليب بمعطف بين يدي فكتوريا قائلة: "هذه مجرد ذكرى بسيطة بأنه جرير لرفقتك سعيدة جداً". وأرجو أن تقبليها مع خالص شكري وعرفاني.

قالت فكتوريا بصوت فرح: "حقاً، سأبدو في المعطف من طرفك يا سيدة كليب".

أصدر محرك القطار صيحته ألم رابعة وأخيرة، ثم تحرك ببطء

خارج المحطة. واستلقت فكتوريا بارتياح في مقعدها. إن المعطف هدية رائعة من الصديق. إذ لم تكن لديها أدنى فكرة عن كيفية تعويده بوسيلة أخرى. ولم تعرف من يمكن أن تسأله. وبدى عودتها للمنزل بلا هرغب في عرضها في الطابق العلوي وتخلع المعطف بتهيؤ فوجدت داخله ورقاً من جوارب الديلون السالبة.

كان من شأن فكتوريا في أية مناسبة أخرى أن تضحك بهذه الهدية! فقد كانت جوارب الديلون دوماً سلعة لا يستغنى شراؤها، ولكنها في هذه اللحظة بالذات كانت تعني شيئاً بقدر ما. فقد كانت السيدة كليب من الرقة واحترام مشاعر الآخرين بحيث لم تفكر في إعطائها ورقة من فئة خمسة دنانير، ولكن فكتوريا تعلم من كل قلبها لو لم تكن السيدة كليب على هذا القدر من الرقة.

على كل حال، غداً ستكون مع إدوارد. أوت إلى سريرها لتعيد في مباهج عميق خلال خمس دقائق، عالمةً بأنها كانت تسطر إدوارد في أحد المطارات، ولكن فتاة تضع نظارات سمحت من التحدق بها بأن أمسكت به بإحكام من عنقه بينما بدأت الطائرة تتحرك ببطء.

* * *

الفصل الحادي عشر

استيقظت فكتوريا على صباح مشمس بهيج وبعد أن ارتدت ملابسها خرجت إلى الشرفة العريضة بغرفتها نظرت فرأت على إحدى الشرفات القريبة رجلاً حالقاً وظهره باتجاهها وشعره الأشيب طويل على شكل خصلات دائرية يمتد مرولاً إلى رقبته السمراء المحمرة وعندما أدار الرجل رأسه أدركت فكتوريا بإحساس من الدهشة أنه السير روبرت كروفتن لي وما كان بوسعها أن تفسر سبب دهشتها الكبيرة تلك، ولكن ربما كان ذلك لأنها افترضت تسليماً بأن شخصاً بارزاً مثل السير روبرت كان من شأنه أن يقيم في السفارة لا في فندق ومع ذلك ها هو يجلس هناك بحذق إلى درجة بشيء من التركيز الشديد بل إنها لاحظت أن يديه منظراً مقرّباً وضعه على الكرسي بجانبه، وبذلك رأت فكتوريا أنه ربما كان من هواة مراقبة الطيور ودراستها

رنت فكتوريا إلى الطابق السفلي فالتقت بماركوس بير في طريقها وقالت له أرى أنكم تستضيفون السير كروفتن لي هنا

- آه، نعم، إنه رجل لطيف... لطيف جداً

- أتعرفه معرفة جيدة؟

- لا، هذه أول مرة أراه فيها لقد أحضره إلى هنا ليلة أمس السيد شريفهام العاشق في السفارة البريطانية والسيد شريفهام رجل لطيف جداً أيضاً، وأنا أعرفه هو حق المعرفة

سألت فكتوريا وهي تحاول الإفطار إن كان ثمة شخص واحد لا يعتبره ماركوس لطيفاً جداً؟ فقد بدا له الرجل محبباً جداً في عرفه

بعد الإفطار بدأت فكتوريا مهمة البحث عن «الحصن الريفي» وباعتبارها من أهل بلدته فإنها لم تكن تعرف شيئاً عن مصاعب العثور على مكان محدد في مدينة كبغداد حتى بدأت مهمة البحث. لقد اتفقت بماركوس ثانية عند خروجها وطلبت منه أن يدلها على المتحف فقال مسهباً إنه متحف رائع جداً ومليء بالأشياء السيرة القديمة جداً جداً صحيح أنني لم أره شخصياً، ولكن لدي أصدقاء من عشاق الآثار الذين يقيمون هنا دوماً عند مرورهم من بغداد السيد ريتشارد بيكر مثلاً هل تعرفه؟ والسير وليم كالسمان، والدكتور بوسموت جونز، والسيد ماكنير وزوجته جميعهم يأتون إلى الفندق، وهم يحدثوني عنه هو موجود في المتحف، وهي أمور مثيرة جداً جداً

- أين هو المتحف وكيف أصل إليه؟

تسيرين على طول شارع الرشيد وهي مسافة طويلة، وتعبرين التقاطع الذي يقطعه نهر دجلة كما تعبرين شارع البنوك .. هل تعرفين شارع البنوك؟

لا أعرف شيئاً

ثم يجدين هناك شارعاً آخر وهو يعصي أيضاً إلى جسر، ويجدين المتحف هناك إلى يمينك اسألي عن السيد بيتوت بشير، فهو مستشار بكبيري هناك، وهو رجل لطيف جداً وزوجته لطيفة جداً أيضاً، جاءت إلى هذه البرية غريبة في فصل نفس حلاب تحرب آه، إنها لطيفة جداً جداً

أن لا أريد حقاً الذهاب إلى المتحف بتحديد، ولكني أريد العثور على مكان، جميل أو بالأحرى يُدعى «غصن الزيتون»

- إن كنت تريدين زيتوناً أعطيك زيتوناً رائعاً من مزرعة خيمه جداً، وهم يحتفظون به خصيصاً لي أو لصديق تيو سأرسل لك بعضاً منه إلى طاولتك الليلة

قالت له فكتوريا "هذا لطف كبير منك"، ثم ذهبت منه لتذهب الى شارع الرشيد، فقال لها وهي ذاهبة سيري على اليسار لا على اليمين ولكنه طريق طويل، من الأفضل أن تأخذي سيارة أجرة

وهل يعرف سائقو سيارات الأجرة أين يقع «غصن الزيتون»؟

« لا، إنهم لا يعرفون في مكان، ست تقولين لهم شمالاً، يميناً، مباشرة، توقف إلى أن تصلي مبتغاك

- من الأفضل أن أمشي في هذه الحديقة

وعدت شارع الرشيد وانعطفت شمالاً كانت بغداد تختلف

كثيراً عن الفكرة التي كانت في ذهنها عنها شارع كبير مكتظ بالناس، وسيارات تطلق أبواقها بشدة، وامتلأ بالمصابيح، ويضيع ضوؤه بيع في واجهات المحلات على الرصيف التي كان شرفيه عامرة وكان الرصيف مكتظ بالناس غير مسرع بسبب الحفر بين مسافة وأخرى

مكتظ طريقها وقد أحست فجأة بأنها غريبة ضائعة بعيداً عن وطنها لا يوجد هنا زيتون بشعر، لا يوجد إلا الموصلي وأخيراً وصلت إلى جسر فيصل فعبرته واستمرت في المشي وقد أسرها عما عنها ذلك المزيج الغريب للأشياء في واجهات المحلات: يوجد هنا أحذية الأطفال وملابسهم الصوفية، ومعجون الأسنان ومواد التجميل، والمصابيح الكهربائية اليدوية وأواني وفناجين البورسلان وكلها معروضة معاً على صعيد واحد. بدأ نوع من الاكتئاب يسيطر عليها اقتناء بالضائع الآتية من كل أنحاء العالم بتلبي الحاجات العربية بسرعة بمجتمع متنوع

وجدت المتحف ولكنها لم تجد «غصن الزيتون»، وبدا لها وهي المصممة على العثور على طريقها في لندن أن من العربي تماماً أن لا يوجد من تستطيع أن تسأله، فلم تكن تعرف العربية، وأولئك من أصحاب المحلات الذين كلموها بالإنكليزية بروية لبضائعهم لم يبدوا بوجوه تائهة عندما سألتهم عن الطريق إلى «غصن الزيتون»

لو كان بمقدور المرء فقط أن يسأل شرطياً ولكنها تركت وهي تعود إلى رجال الشرطة وهم يلوحون بأيديهم ويطلقون صفاراتهم لا أحد يمكن أن يكون حلاً هنا

دخلت إلى مكتبه عرضت في واجهته كتباً إنكليزية، ولكن سؤالي عن «غصن الزيتون» لم يُقابل إلاّ برفع المكتبي رأسه الرأس ناسفاً، وكان مؤسفاً أنهم لا يعرفون شيئاً عن هذا المكان بعدها تذهب إلى أديبها -وهي تمشي في الشارع- أصوات طقطقه وطرق قوي ذهبت إلى رفاق طويل قبيل الإصدار، وتذكرت قول السيدة كاردينو تريبش إن «غصن الزيتون» قريب من سوق النحاس ها هو إذن -على الأقل- سوق النحاس

دخلته فكتوريا، وبيت «غصن الزيتون» تماماً خلال ثلاثة أرباع الساعة التي مضت ذلك بعد تيهها سوق النحاس الأديبة الصادقة بكثير لأعراض اللحام، والمعدن الدافئ، والصنعة اليدوية، كلها جذبت بمثابة رؤيا تكشفت لتلك الفتاة المعتادة تعمل على البضائع الجاهزة المكدسة لأعراض البيع تحولت في السوق على غير هدى، ثم خرجت من خانته الأخير لتأتي إلى حيث سروج الخيل المعلّمة، وأغطية الأسرة القطنية هذه تكتسب البضائع الأوروبية مظهراً مختلفاً تماماً، فهي العتمة الباردة لرفاق المسقوف تصبح لهذه البضاعة الصنعة العربية التي تغير شيئاً جداً من وراء البحار، شيئاً غريباً ونادراً أكوام من الملابس القطنية المطلية بألوان زاهية فرحة تسر الناظر إليها

سنت فكتوريا كما لو كانت في حلم سعيد هذه هي «حقاً» رؤية العالم في كل منعطف في عالم السوق المسقوف الرطب هذا يعكس الضوء شيئاً لم تكن بتوقعه أبداً رفاق النحاسيين، يجلسون وهم يدرزون الثياب وخلفهم صور لبدلات أنيقة يرتديها رجال أوروبيون مع ياقات وحلي رخيصة أثواب منقوشة من قماش

المخمل وغيره ثم تنعطف فجأة ترى نسيت في رفاق بملابس لأوروبية الرخيصة المصنعة، بثراب باهتة الألوان كثير الشقة، وصدريات طويلة مطّت حتى تعدت شكلها الأصلي وبين الحين والآخر تكاد تسمع تنحات تغني إلى باحات واسعة هادئة مفتوحة على السماء

وصلت إلى ممر طويل من خياطي السراويل الرجالية، والعديد من النجار يجلسون مربعين في ظل السحاب بمربعة الصغيرة أمام دكاكينهم

جره من خطمها حمار مُحمّل أكثر من طاقته فجعلها تفسح له المجال وتدخل رفاقٌ ضيق غير مسقوف بمزح بين بيوت عامة وفيه كانت تمشي في دبث الرفاق هتفت -بمحض الصدفة- إلى يمينها؛ وقد نظرت من خلال إحدى النحاتات في الرفاق إلى باحة مربعة صغيرة، وفي الطرف البعيد من الباحة كان باب غُلّقت فوقه لوحة كبيرة كُتب عليها «غصن زيتون»، وبجانبها عصفور من الجص حي بمنظر يحمل في منقاره غصناً قريب الشكل

أسرعت فكتوريا -بفرح- لعبور الباحة، ثم دخلت الباب لتجد نفسها في غرفة كبيرة الإصدار فيها طاولات مليئة بالكتب والمجلات، فيما صطف المزيد من الكتب على الرفوف بدت الغرفة أشبه بمكتبة لبيع الكتب بولا وجود عدد من الكراسي التي صطفت هنا وهناك ومن العتمة جاءت إلى فكتوريا شابة ذات لها بلغة إنكليزية حذرة بماذا أستطيع مساعدتك، سيدتي؟

نظرت إليها فكتوريا كانت ترتدي سترة قطنياً سميكاً وتنورة

برتقالياً، وكان شعرها أسود ثم صبغه ليصبح قصيراً فوق الرقبة

قالت فكتوريا: أحقاً... أحقاً... هل الدكتور راشبون هنا؟

من المثير للعجب أن لا تعرف سيدة عائلة إدوارد حتى الآن! حتى السيدة كاردبو بريتش أسمته إدوارد فقط. فاتت الفتاة تعلم هل ترحبين بالانضمام إلينا؟ سيكون ذلك رائعاً

- ربما... إنني... هل أستطيع رؤية الدكتور راشبون رجاءً؟

ابتسمت الشابة ابتسامة متعبة وقالت: نحن لا نرحب إن لدي استمارة وسأشرح لك كل شيء، وبعد ذلك توقعين الاستمارة ثم تمهلين ديناران رجاءً

قالت فكتوريا وقد هالها ذكر الدينارين: لست واثقة... بعد- من عزمي على الانضمام إليكم. أرغب برؤية الدكتور راشبون أو سكرتيره، تكفي مقابلة السكرتير

أنا سأشرح لك، سأشرح لك كل شيء. نحن كل أصدقاء هنا أصدقاء معاً، أصدقاء من أجل المستقبل. نقرأ كتباً تربوية رائعة جداً. ننشد الأشعار بعضنا على بعض

قالت فكتوريا بصوت عالٍ وواضح: سكرتير الدكتور راشبون لقد أوصاني تحديداً بأن أسأل عنه

اكتسب وجه الفتاة شيئاً من البكاء المعاند وقالت: ليس اليوم أنا أشرح

- لماذا ليس اليوم؟ أليس موجوداً؟ أليس الدكتور راشبون هنا؟

- بلى، إنه هنا... في الطابق العلوي، ولكننا لا نرحب

اكتسح فكتوريا نوع من الغضب وقالت: سيرد... تكاد تكون سيرد السيدة كاردبو بريتش نفسها: "لقد وصلت للتو من إنكلترا وعندي رسالة مهمة جداً للدكتور راشبون يجب أن تسلمها له شخصياً يرجى أن تأخذيني إليه على الفور! إني آسفة على إزعاجه، ولكني مضطرة لرؤيته" ثم أضافت شيئاً بالموضوع على الفور

استدارت الفتاة فوراً وعادتها إلى مؤخرة العربة، ثم صعدت بها درجات وقادتها عبر ممر يطل على الباحة. وهناك توقفت أمام أحد الأبواب وطرقته، فجاء من الداخل صوت رجل قائلاً: ادخل

فتحت الفتاة الباب وأشارت لفكتوريا بالدخول قائلة: إنها سيدة من إنكلترا جاءت لرؤيتك

دخلت فكتوريا، ونهض رجل لتحيتها من خلف مكتب ضخم يعلوه الأوراق. كان رجلاً كهلاً مهيب المظهر في نحو الخمسين من عمره، ذا جبين عالٍ مقوس وشعر أبيض، وكانت لإسنانه والعظم والشعر أبرز عوامل شخصيته. وكان من شأن مخرج مسرحي أن يسنده إليه دون تردد- دور البطل العظيم بشخصيته، المتأمل في أحلامه

حيت فكتوريا بابتسامة فاترة وردت ممدودة وقالت: لقد جئت للتو من إنكلترا، إذن أهي زيارتك الأولى للشرق؟

- نعم

- إني لأتساءل عن رأيك به الآن لا بد أن يحيرني برأيك يوماً ما والآن لأفكر، هل سبق لي مقابلتك من قبل؟ إنني أعاني من قصر نظر شديد، وأنت لم تعطيني اسمك

- أنت لا تعرفني، ولكني صديقه لإدوارد

- صديقة لإدوارد هذا رائع وهل يعرف إدوارد أنك في بغداد؟

- لم يعرف بعد

- ستكون هذه مفاجأة سارة له عندما يعود

قالت فكتوريا بصوت من أسفط بيده يعود؟

- نعم، إدوارد في البصرة حالياً اضطررت لإرساله إلى هناك لاستلام بعض صناديق الكتب التي وصلت وقد حدثت بخيرات مرعبة جداً في انجمارك فلم يستطع التخليص عليها لا حلّ لذلك إلا بالحضور الشخصي هناك، وإدوارد بارع في مثل تلك الأمور ولن يبدأ له بال حتى ينتهي من الأمر إنني ألقدّر إدوارد كثيراً

ثم رمش بعينيه وقال ولكن لا أعني بصحة لمدح إدوارد على مسامعك يا فتاتي

سألت فكتوريا بصوت واهن متى متى سيعود من البصرة؟

- هذا ما لا أستطيع تحديده الآن لي يأتي قبل أن ينجز مهمته ولا يستطيع المرء استعجال الأمور كثيراً في هذا البلد اخبريني أين تقيمين وسأجعله يتصل بك بمجرد عودته

قالت فكتوريا بيأس وهي تدرك سخافة المقالة كنت أتساءل كنت أتساءل إن .. إن كان بوسعي القيام بعمل ما هنا؟

قال الدكتور راتبون بحرارة هذا ما أقدّره نعم، بوسعك طبعاً إن بحاجة إلى كل العاملين، إلى كل العون الذي يمكنا الحصول عليه، وخاصة الفتيات الإنكليزيات إن عملنا يسير بشكل رائع، بشكل رائع تماماً، ولكن لدينا الكثير مما يبغي فعله ومع ذلك فالناس متحمسون إن لدي الآن ثلاثين مساعداً متطوعاً ثلاثين وكلهم شديدو الحماسة! وإذا ما كنت جاداً بالعمل فيمكن أن تكوني قيّمة جداً بالنسبة لنا

وقعت كلمة «متطوع» وقوعاً سيئاً على مسامع فكتوريا فقالت لقد أردتُ -في الواقع- وظيفةً بأجر

بدت الحيرة على وجه راتبون وقال آه! هذه مسألة أصعب إن ملاك العامل بأجر صغيرٌ جداً، وهو كاملٌ تماماً حالياً، مع ما يحصل عليه من مساعدة تطوعية

قالت "لا يسمح وضعي المالي إلا بالحصول على وظيفة بأجر" ثم أضافت دون أي خجل إنني طالبة اختزال قديرة

أنا واثق أنك قديرة يا فتاتي العزيزة، إنك تشكين كفاءة إذا صح التعبير، ولكن قضيت هي نقص الأموال ولكن حتى إذ

حصب على وظيفه في مكان آخر فإني من أن تساعديه في أزمات فرعك معظم العاملين معك فهم عندهم الحماسة التي يعيشون منها أنا واثق أنك ستجدين مساعدتك لك أمر يثير الحماسة ويسمو بالروح لا بد من وضع نهاية لكل الوحشية في العالم ولكل الحروب وسوء الفهم والشكوك إن ما نحتاجه جميعاً هو أرضية مشتركة يجتمع عليها الدراما، الفن، الشعر عظائم الروح لا مكان هناك للكراهية و لأحقاد الصغيرة

قالت فكتوريا بارتياب، "لا ، نعم" وتذكرت أصدقاء لها كانوا مثقفين وفنانين وبدت حياتهم كلها أحقاداً على أتفه الأسباب، وكراهية كأنها ما تكون الكراهية مضى الدكتور رالبون قائلاً بعد توجب مسرحية «حلم منتصف ليلة صيف» إلى أربعين لعبة مختلفة، أي أن أربعين مجموعة مختلفة من الشباب يستجيبون ويتفاعلون جميعاً بعمل أدبي رائع واحد الشباب هذا هو السر لا فائدة ترجى عندي إلا من الشباب؛ فبمجرد أن تقسو وتتحجر العقول والأرواح يكون الوقت قد فات نعم، الشباب هم من يسعى عليهم التوحد عندي مثلاً- تلك الفتاة التي استبعدتك في الطابق السفلي إنها سورية من دمشق، وربما كنت أنت وهي من عمر واحد إنكما في نلتقيان في الأحوال العادية، إذ لن يكون بينكما شيء مشترك، أما هنا في أعماق الربوع، فإنكما مع غيركما من العراقيات والتركيات والأرمينيات والمصريات والإيرانيات ستلتقين جميعاً، ويحب بعضكن بعضاً، وتقرأن نفس الكتب، وتناقشن الأفلام والموسيقى، وكلكن تكتشفن أشياء وتتعلمن تبادل أفكار ووجهات نظر مختلفة هذا ما ينبغي أن يكون عليه حال العالم

لم تعتد فكتوريا لأن تشعر بأن الدكتور رالبون كان يتابع في تفاؤله وتفاؤله بأن كل هذه العناصر المتنافرة التي تلتقي سيحب بعضها بعضاً بالضرورة؛ فهي وكاثرين -مثلاً- لم تحب إحداهما الأخرى أبداً، وقد كانت مقتنعة بأن زيادة عشرينهما لن تؤدي إلا إلى زيادة الكراهية بينهما

قال الدكتور رالبون إن إدوارد رائع، فهو يتكلم بسرعة مع الجميع، وهو وكاثرين متشابهان جداً بشكل خاص

قالت فكتوريا ببرود: "حقاً؟"، وازدادت حدة كراهيتها لكاثرين

قال رالبون وهو يبتسم: «حسناً، تعالي لمساعدتك فتلك مسطبين

كانت عبارته إشارة إلى انتهاء تمثيليته، وخرجت فكتوريا من الغرفة بأثر الفرح كانت كاثرين واقفة قرب الباب تتحدث مع فتاة كانت قد جاءت لتوها حاملة حقيبة صغيرة بيدها كانت فتاة سمراء جميلة، وخُيِّل لفكتوريا للحظة خاطفة- أنها رأتها من قبل في مكان ما، ولكن الفتاة نظرت إليها دون أن يبدو عليها أي إشارة تفيد بأنها تعرف فكتوريا كانت الفتاة تتحدثان بهدوء مما يدعو لا تسمعها فكتوريا، وعندما وصلت سكتت وبقيت صامتتين تنظران إليها حتى وهي تهمان متجهة إلى الباب، و خرجت نفسها وهي خارجة على أن تقول لكاثرين بأدب "وداعاً"

شقت طريقها من الرواق إلى شارع الرشيد، وشعرت بحدة عاصفة في الصدق وهي تكاد لا ترى حشود الناس حولها حاولت أن

يشغل عقله عن التفكير بمحنتها الخاصة (كمعلمة في بغداد) وذلك بتركيز تفكيرها على الدكتور رائبون وبتحليل تركيبه «لغصن الزيتون» لقد كان لدى إدوارد في البدء فكرة بأن في هذا الأمر شيئاً مريباً ما هو المريب؟ الدكتور رائبون؟ أم «غصن الزيتون» نفسه؟ لا تكاد فكتوريا تصدق أن في الدكتور رائبون شيئاً مريباً؛ فقد بدا لها واحداً من أولئك المحسنين المُضلّلين الذين يصرون على رؤية العالم بأسلوبهم المثالي الخاص بصرف النظر عن الواقع

ما الذي جعل إدوارد يكتسب مريب؟ لقد كان غامضاً جداً في هذه النقطة وربما لم يكن يدري هو الآخر أيمكن أن يكون الدكتور رائبون محتالاً كبيراً من نوع ما؟ هزّت فكتوريا رأسها نفياً، وهي الحازمة لنوعها من سحر أسلوبه المهدئ لقد بقي أسلوبه بالتأكيد (ولو بشكل خفيف لا يكاد يلاحظ) عندما طرحت فكرة دفع راتب لها من الواضح أنه يفضل عمل الناس له دون أجر

ولكن فكتوريا رأت في ذلك أمراً طبيعياً يدل على فطرة سليمة لقد كان من شأن السيد غريبولز -على سبيل المثال- أن يشعر بنفس شعور الدكتور رائبون في هذا الأمر

* * *

الفصل الثاني عشر

وصلت فكتوريا إلى فندق تيو وقد ورمت قدماها بعض الشيء فبحييها ماركوس بحماسه وهو يجلس على المصطبة العشبية الخارجية التي تطل على النهر ويتحدث مع رجل نحيل في أواسط عمره يرتدي ثياباً مالية بعض الشيء. هتف ماركوس بها قائلاً «تعالي واجلسي معنا يا آنسة جونز أعرّفك على السيد داكين لأنه جونز من إنكلترا والآن يا عزيزتي، ماذا تشربين؟»

قالت فكتوريا إنها تريد كأساً من عصير الدموذ البارد، ثم أضافت (وهي تتذكر أن الفستق جاء مقشراً) وهل لي بشيء من ذلك الفستق الشهي؟

قال «الحبيبي الفستق؟ يا إلهي! ثم أعطى الأمر بالعربية ولكن السيد داكين -بصوت حزين- إنه سيشرب عصير ليمون أيضاً

صاح ماركوس وقد جاءتهم السيدة بريتش «ها هي السيدة كارديو بريتش

قالت مخاطبة فكتوريا «يبدو عليك الحر

لقد كنت أتجول لرؤية المدينة

بعد ذلك جاء رجل قصير القامة نحوي اليه وصعد مدرج بجانبه ماركوس بدوره ويقدمه بكتوريا على أنه الكابتن كروسبي، وقد سألها قائلاً: هل جئت لتزك؟

بالأمس

- كنت أفكر بأنني لم أرك هنا من قبل

قال ماركوس بابتهاج: إنها بالغة اللطف والجمال، أليس كذلك؟ نعم، من الرائع أن تكون لآنسة فكتوريا معنا هنا سأقيم لها حفلاً حفلاً رائعاً جداً

قالت فكتوريا بأمل: وتقدم فيه فراريج؟

- نعم، نعم وغير ذلك من لذيذ الطعام، ونبيذ الكافيار ثم إن لدينا عيقاً بعيداً جداً من أنفسك سمك دجلة مع الصفصاف والعنبر والديك يحبش المحشو على الطريقة المتبعة في بيرو، بالأرز والزبيب والبهارات وكل ذلك يُشوى كما هو أو إذ كنت مرغبين يمكنك سلق سريحه من اللحم، شريحة كبيرة جداً وطرية، وسوف أشرف عليها بنفسي

قالت فكتوريا بصوت واهن: سيكون ذلك رائعاً

جعلها وصف تلك الأطايب تشعر بجوع شديد وتساءلت إن كان ماركوس يدري جيداً- إدعة تلك الحفلة، وإن كان الأمر كذلك فمتى سيقيمها؟

قالت السيدة تريفلن للكابتن كروسبي فلنذهب إلى البصرة

أجابها كروسبي: لقد عدت بالأمس" ثم نظر إلى شرفة فوقه وقال: من ذاك الرجل صاحب الملابس الغريبة والقبعة الغريبة؟

أجابه ماركوس: هذا السير روبرت كروفتن لي يا عزيزي حضره السيد شريفهام من الهند البريطانية ليلة أمس إنه رجل لطيف جداً، ورحالة مرموق تماماً يجوب الصحاري على ظهور الجمال، ويسلق الجبال إن نمط الحياة هذا مرعب جداً وخطير جداً ما كنت لأحب مثل هذه الحياة شخصياً

كروسبي: آه، هذا هو إذن؟ لقد قرأت كتابه

فكتوريا: لقد كان في الطائرة معنا في القدوم

نظر كلا الرجلين إليها باهتمام، أو هكذا خُيل إليها ولكنها أردفت قائلة: إنه متبجح جداً ومعجب بنفسه

السيدة تريفلن: كنت أعرف عمه في سيملا العائلة كلها هكذا ذكية جداً، ولكنهم لا يمتلكون إلا التبجح بدلك

عقب فكتوريا بشيء من الأسى: إنه جالس هناك منذ الصباح لا يفعل شيئاً

ماركوس: ذلك بسبب معدته، إنه لا يستطيع تناول أي طعام

أكمل السيد داكين كأس عصير الليمون ثم ذهب بهدوء، فيما ذهب كروسبي أيضاً إلى غرفته. ونظرت السيدة بريتش إلى داكين وهو يمضي مبتعداً وقالت: يا له من مسكين! لم يسجن أبداً. لقد أبلى -بالكاد- على وظيفته.

قال السيد ماركوس السجن بعواطفه. ولكنه رجل لطيف جداً.

السيدة بريتش: هذا إنه شخص ضعيف، يشكو من مكان إلى آخر. لا عزم لديه، ولا جديه في مواجهة الحياة. مجرد رحيل آخر أنى إلى الشرق وفقد كل تأثير ومماسك.

شكرت فكتوريا السيد ماركوس على ضيافته وصعدت إلى غرفتها، حيث ترغب حذاءها وتمددت على السرير لتخطط في بعض التفكير الجدي. رأت أن ما بقي لديها من الجنيهات التي تربو قليلاً على الثلاثة أصبحت من حق ماركوس أصلاً مقابل إطعامها وإعاشتها في الفندق، وبسبب طبيعته السخية ربما أمكنها حل مشكلة النقدية خلال الأيام القليلة القادمة إن استطاعت أن تعيش بشكل كامل على المصيرات التي يمكن أن تنهم معها بعض الفستق والزبيب وورق البطاطا. كم سيمضي من الوقت قبل أن يقدم لها ماركوس كشف حسابها، وكم سيسمح ببقاء ذلك الكشف غير مدفوع؟ لم تعرف رأسه أنه لم يكن ذلك الرجل الذي لا يأبه لمصالح عمله. عليها أن تعثر على مكان تُرخص تقيم فيه بالطبع، ولكن كيف ستعرف بطريق ما العثور على مثل ذلك المكان؟ عليها أن تجد لنفسها عملاً وبسرعة. ولكن أي يتقدم المرء بطلب عمل؟ من عساه سأل ليدلها

على كيفية العثور على عمل؟ كم هو قاس لقدرات المرء أن يحشر وهو مفلس عديم في مدينة غريبة لا يعرف أساليبها وأسرارها! ومع ذلك فقد شعرت فكتوريا -كعادتها- بالثقة بأنها قادرة على تدبر أمرها بقليل من معرفة البلد.

ينبغي لها أن تحصل على بعض المال أو تحصل على عمل أي عمل. رغبة أطفال، بصق طوابع في مكتب بريد، الخدمة في مطعم. وإلاّ فسوف يرسلونها إلى لندن بلادها، وسوف يتم ترحيلها إلى إنكلترا، ولن تستطيع رؤية إدوارد ثانية.

عند هذا الحد أتعب فكتوريا وقد أتعبها التفكير.

* * *

ستيفنسب بعد عدة ساعات وقررت أنها في تأثر. وهي الطريقة- بالبلل، وهكذا ترتب إلى المطعم حيث لم تترك صفاً على قائمة الطعام المسوعة إلا أكلت منه. وعندما فرغت من ذلك شعرت نوعاً ما- بأنها أشبه بأمعاء ضخمة ابتلعت فريسة كبرى، ولكنها شعرت بالنشاط الأكيد. وفكرت مع نفسها: ذلك لا فائدة من القلق بعد الآن. سأترك كل شيء حتى الغد، فربما ظهر جديد، أو ربما فكرتُ في شيء، أو ربما عاد إدوارد.

وقبل أن تذهب إلى النوم خرجت إلى المصطبة الغربية من النهر، ومع أن الجو كان بالنسبة إلى المقيمين في بغداد جو شتاء لطيف فلم يكن على المصطبة الخارجية أحدٌ آخر باستثناء خادم في الصدق كان يمكن منحنياً على السياج محدقاً إلى الماء أسفل منه.

وقد قفز الخادم مبتعداً كمن يشعر بالذنب عندما ظهرت فكتوريه وهرع عائداً إلى الفندق من باب الخدم

بدا الحر بالنسبة لفكتوريه (القادمة من برد يكسر) أشبه بجزء جهنم صيف عادية في ريجنت بارك، وقد سحرها منظر دجلة تحت ضوء القمر وضفته البعيدة تبدو غامضة شرقيه بحواشيها من شجر النخيل. لانت فكتوريه نفسها تهرب من كربها. حسناً، لقد وصلتُ إلى هذه الضفة الأخرى، وسوف أتدبر أمري بشكل ما، فلا بد أن يظهر شيء جديد

وبهذه العبارة المُطَمئنة صعدت لنتام، وانسلّ الخادم «بهدوء» إلى الخارج مرة أخرى وعاد لمتابعة مهمته المستمرة في وضع حمل دي عُقد بحيث يمضي مرولاً إلى حافة النهر. وسرعان ما خرج من بين الظلال شيخ شخص آخر وانضم إلى الخادم. قال السيد داكين بصوت منخفض: أكلُّ شيء على ما يرام؟

- نعم يا سيدي، ثم أوّ ما يريبه

وبعد أن أكمل مهمته بما يرضيه عاد السيد داكين إلى الظلال، واستبدل بالمعطف الأبيض لخادمه معطفه الأزرق الذي لا يبين له شكل، ثم أخذ يمشي بهدوء على طول المصطبة حتى وقف وخطمه صفحة الماء تؤطر شكله العام تماماً حيث يوجد الدرج الصاعد من الشارع أسفل منه

قال كروسبي وهو يخرج ويتقدم للانضمام إليه: أصبح الجو

شديد البرد في الليل هذه الأيام، ويكفي أظن أنك لا تشعر كثيراً بذلك، وأنت القادم من طهران

وقف الرجلان هناك لبعض لحظات يتحدثان، ولم يكن بمقدور أحد سماع حديثهما لأن صوتيهما كانا يرتفعان صوتيهما. قال كروسبي بهدوء: من هي تلك الفتاة؟

يبدو أنها ابنة أخ عالم الآثار «بوسموت جونز»

- حسناً، يُفترض -والحديث هذه- أن تكون على ما يرام، ولكن حضورها في نفس الطائرة التي أتى بها كروفتن لي

- من الأفضل أن لا نسلّم جدلاً بأي شيء بالتأكيد

وقف الرجلان يصمتان لبعض لحظات قال بعدها كروسبي: أتظن حقاً أن من الحكمة نقل هذا الشيء من السفارة إلى هنا؟

- أظن ذلك، نعم

- رغم أن الأمر كله قد تم فهمه تماماً بأدق تفصيلاته

لقد تم فهمه بأدق تفصيلاته في البصرة، وقد فشل ذلك

آه، أعرف. لقد شُتم صلاح حسن بالمناسبة

- نعم. كان ذلك مؤسفاً. هل يدب آية علامات على تقرّب أو لجوء إلى القنصلية؟

قال كروسبي: لم يحدث ذلك كما أظن. وقد حدثت مشكلة هناك، فقد أشهر رجل مسدساً، سكت قليلاً ثم أضاف: وقد أمسك به ريتشارد بيكر وسرع منه مسدسه

سأل داكين وهو يفكر ريتشارد بيكر؟

- أتعرفه؟ إنه

نعم، أعرفه

ساد شيء من الصمت، قال بعده داكين الأرجال هذا ما أتوي فعله إن كان كل شيء لدينا قد فُهم كما نقول، واصبحت خطتنا معروفة، فإن من السهل على الطرف الآخر أن يفهم حركاتنا نحن أيضاً إنني أشك كثيراً في أن يكون الأمر قد وصل بكارمايكل حتى إلى التقرب من السفارة، وحتى لو وصلها

ثم هز رأسه حيرة

- هناء الواضح بما يجري هم أنت وأنا وكروفتس لي فقط

سيعرفون أن كروفتس لي قد انتقل إلى هنا من السفارة

آه، طبعاً، كان ذلك أمراً حتمياً ولكن ألا ترى يا كروسبي أن أي خطة يضعونها لمواجهة ما سنفعله ينبغي أن تكون مرتجلة هي الأخرى؟ لا بد أن تكون خطة تُبتكر وتُعدّ بسرعة، ولذلك ينبغي أن تأتي من الخارج إذ صبح الخبير فلا مجال هنا لشخص مسطر في فندق تيو ينتظر منذ سنة أشهر بطلب فاضدق لم يكن أبداً في الصورة حتى الآن لم نوجد أية فكرة أو اقترح باستخدام فندق تيو كمكان للقاء

نظر إلى ساعته وقال سأصعد لأرى كروفتس في

لم تكن يد داكين المرفوعة بحاجة لتطرق على باب السير روبرت، فقد انفتح الباب بهدوء ليدخل ولم يكن مُفاجأ في عرفه الرحالة إلا مصباح قراءة صغير، وقد وضع كرسيه بجانبه وليس هو يجلس ثابه وضع على مقربة منه على المائدة مسدساً آلياً صغيراً ثم قال ما الجديد يا داكين؟ أتظنه سيأتي؟

- أظنه سيأتي، نعم يا سير روبرت أنت لم تقابله من قبل، أليس كذلك؟

هز الآخر رأسه بالنفي وقال نعم، لم أقابله إنني أتطلع لرؤيته بفارغ الصبر لا بد أن ذلك الشاب يتمتع بشجاعة كبيرة يا داكين

قال داكين بصوته الرتيب آه، نعم لديه جرأة كبيرة

بدا أنه مذهوش قليلاً من جرأة هذه الحقيقة تُسأكيد قال السير روبرت لا أعني الشجاعة وحدها، فالكثير من الشجاعة يوجد في رض الحرب، وهي مسألة رائعة ولكني أعني

- الخيال؟

نعم، إن نسبة الشجاعة هي تصديق شيء أبعد ما يكون عن الاحتمال أن تخاطر بحياتك للتحقق من أن إحدى القصص التي سمعته ليست سخيفة أبداً إن هذا يتطلب جرأة لا تتوفر لشباب اليوم. أرجو أن يأتي

- أظنه سيأتي

نظر إليه السير روبرت بحدة وقال هل أعددت لكل شيء عدته؟

كروسبي على الشرفة، وسأراقب أنا الدرج. وعندما يصعد كارمايكل انقر على الجدار فأدخل أنا.

أومأ كروفتس برأسه موافقاً وخرج داكين من الغرفة بهدوء وسار إلى اليسار حتى وصل إلى الشرفة وذهب إلى غرفتها البعيد وهي أيضاً كان حين فيه عُقد يدلى من طرف الشرفة ليصل إلى الأرض محاذياً شجرة كاپيتوس وبعض الأغصان الأخرى.

عاد السيد داكين ليجد غرفة السير روبرت ويذهب إلى غرفته الخاصة التي تقع بعد غرفة السير روبرت. كان لغرفته باب ثانٍ يفضي إلى الممر الذي يقع خلف الغرفة، ويقع الباب على بعد بضعة أقدام من رأس الدرج. ترك داكين ذلك الباب نصف مفتوح وجلس ليؤدي دوره في المراقبة.

بعد نحو أربع ساعات من ذلك تركت العُقّة إلى النهر بهدوء (ذلك لابتكار البدائي المستخدم بعبور دجلة) واقتربت من الشاطئ الغربي أسفل فندق تيز. وبعد دقائق سقط جسم ثقيل الحبل المتدلي واختبأ بين أغصان الشجرة.

* * *

الفصل الثالث عشر

كانت فكتوريا تنوي الذهاب إلى فراشها والنوم وترك كل المشكلات حتى الصباح، ولكنها بعد نامت أصلاً طوال فترة بعد الظهر - وجدت نفسها أرقد مفتوحة العينين.

وفي النهاية أشعلت الضوء وأنهت قصة في إحدى المجلات كانت قد بدأت قراءتها في القطار، ثم رتقت جواربها، وجربت حوارب النايلون الجديدة، ثم كتبت العديد من الإعلانات المختلفة التي تطلب فيها عملاً (ويمكنها عندئذ أن تسأل أين يمكن نشر تلك الإعلانات). وبعد ذلك كتبت ثلاث رسائل تجريبية لو أربعاً إلى السيدة كليب وضعت في كل واحدة منها مجموعة مختلفة من الظروف العبقرية المبتكرة غير المحسوبة التي أدت إلى انقطاع السبل بها في بغداد، ووضعت سوداء بريطانيا أو اثنين تستوجب لهما طالبة العون من قريبها الوحيد الباقي على قيد الحياة، وهو رجل مسن جداً وكريه صعب المراس يعيش في شمال إنكلترا ولم يسبق له أن ساعد أحداً في حياته. بعد ذلك حررت تسريحة جديدة لشعرها، وأخيراً نامت فجأة، وورد أنها قد نعست وغدت جاهزة للنوم.

في هذه اللحظة بالذات ودون سابق إنذار فُتح باب غرفتها

بسرعة وانسلّ رجل إلى الغرفة وأقفل الباب خلفه بالمفتاح وعاد بها بالحاح "الله عليك خبئيني في مكان ما بسرعة"

لم تكن فكتوريا في أي وقت مضى بطيئة في ردود أفعالها، وبطرفة عين لاحظت أمس الرجل الذي يسحبها بصعوبة وصوته المتلاشي، ورأت كيف يمسك بشدة وبيد يابسة وشاحاً قديماً أحمر يستجمعه إلى صدره بقوة. وبهضت بسرعة استجابة لنداء المغامرة

لم تكن في الغرفة مخابئ كثيرة، فبها خزانة الملابس، وصندوق ذو أدراج، وطاولة، وطاولة زينة توحي بشيء من الأبهة كان السرير ضخماً يكاد يكون مزدوجاً، وقد جاءت ذكريات الطفولة عن لعبة الاختباء والتفتي لتجعل رد فعل فكتوريا سريعاً قالت "بسرعة." ثم أزاحت الوسائد والغطاء والبطانية ليمدد الرجل على عرض السرير من الأعلى مكان الوسائد. أعادت فكتوريا الغطاء والبطانية إلى مكانهما فوق الرجل، وحشرت الوسائد فوقه وجلست هي على طرف السرير

لم تكد تفعل ذلك حتى سمعت طرقاً خفيفاً مُلِحّاً على الباب، فنادت بصوت ضعيف مذعور "مَن هناك؟"

جاءها صوت رجل من الخارج يقول "أرجو أن تفتحي الباب، رجاءً باسم الشرطة"

عبرت فكتوريا الغرفة باتجاه الباب، وفيما هي كذلك لاحظت وشاح الرجل الأحمر ملقى على الأرض فالتقطته وضمته في أحد

لأدراج، ثم أدارت المفتاح وفتحت الباب عرفتها فيلاً وأطل منه وعلى وجهه علامات الدهر

كان يقف خارج الباب شاب أسود الشعر ذو بدلة بنفسجية مخططة، ووراءه رجل يرتدي الزي الرسمي لشرطة سألت فكتوريا تاركة شيئاً من الرهبة في صوتها "ما الأمر؟"

ابتسم الشاب ابتسامة ذكية وتكلم بلهجة بكنيرية سليمة تؤدي الغرض "أنا آسف جداً يا آنسي على إزعاجك في مثل هذه الساعة، ولكن لدينا مجرماً هارباً، وقد دخل المنزل. ينبغي أن نبحث في كل الغرف. إنه رجل خطير جداً"

"يا فكتوريا يا إلهي!"

ثم تراجعت وهي تفتح الباب واسعاً وقالت "ادخلا وابحثا يا له من أمر مخيف! ابحثا في الحمام رجاءً" وخزانة الملابس "وهل تكفيان أن ينظر تحت السرير أيضاً؟ ربما كان هناك منذ أول الليل"

كان التفتيش سريعاً، ثم قال "لا، إنه ليس هنا"

"أنتما متأكدان أنه ليس تحت السرير؟ ولكن كلا، يا لي من مخيفة! لا يمكن أن يكون قد أبدأ" وقد أقفلت الغرفة خلفهما

"شكراً لك يا آنسة، وعذراً لإزعاجك"

انحنى الشاب ثم انسحب مع مرافقه ذي البدلة الرسمية وقالت

فكتوريا وهي تراقبه إلى باب من الأبنوس أن افتح باب مرة أخرى، أليس كذلك؟ حتى أكون في مأمن

نعم، سيكون ذلك أفضل شيء بالتأكيد. شكراً لك

أعادت فكتوريا إقفال الباب ثم وقفت قربه لبعض الوقت سمعت ضباط الشرطة يقرعون بنفس الطريقة الباب المقابل لها في الممر، وسمعت الباب يُفتح، وبدأ الحديث، ثم صوت السيدة تريش الخشن العاصب، ثم سمعت صوت خطو بهم تتحرك إلى آخر الممر. وقد جاءت الفرصة الثانية من مكان أبعد بكثير

استدارت فكتوريا وعبرت الغرفة إلى السرير، ولقد راودها شعور بأنها ربما تصرفت بتسرع الحماقة؛ فقد أضافت لروحها الرومانسي المتعثرة قصة يد العون فوراً لرجل قد يكون مجرماً شديد الخطورة. إن الشعب بالوقوف إلى جانب المتشرد لا إلى جانب المُطارد قد يحر على المرء عواقب وخيمة في بعض الأحيان، ولكن فكتوريا فكرت بأن ما حصل قد حصل وأصبحت مجبرة على التعامل مع الأمر الآن. كانت ما كان! وقفت قرب السرير وقالت بانتصاب النهض

لم يكن هناك أية حركة، وقالت فكتوريا بحدة، ولكن دون أن ترفع صوتها لقد حذرتك، يمكنك القيام الآن

ولكن رغم ذلك لم تبدر حركة من تحت كومة الوسائد العالية قليلاً، تمتمت فكتوريا بإرادتها جملة بغداد صير كان الشاب ممدداً كما تركته تماماً ولكن وجهه كان الآن مدفون رمادي عرب، وكانت عيناه مغمضتين

وعندها لاحظت فكتوريا شيئاً آخر جعلها تشهق بحدة. لقد كان بقعة حمراء قانية اللون تنتشر إلى البطانية تحت فكتوريا وكأنها تنبعث بأحد آه، لا آه، لا لا!

فتح الرجل عينيه وكانه يفهمهم استجاب بذلك الاستدارة جدي إليها كما يحدق المرء من بعيد إلى شيء لم يكن متأكداً تماماً من رؤيته، ثم انمرحب شفتيه وكان صوته ضعيفاً إلى حدٍّ لم تكد فكتوريا تسمعه. انحنت عليه قائلة ماذا؟

سمعته هذه المرة، فبصعوبة بالغة قال الشاب كلمتين ولم تعرف فكتوريا إن كانت قد سمعتهما بشكل صحيح أم لا، فقد بدتا لها سخيفتين تماماً لا معنى لهما. كان ما قاله هو «الشيطان البصرة»!

سقط الجفنان وبقيا على العينين الواسعتين المغمضتين، ثم قال كلمة واحدة أخرى. قال اسماً ثم ارتخى رأسه إلى الجنب قليلاً وهدأ دون حراك

وقفت فكتوريا ساكنة وقلبها يخفق بعنف. كانت مهمة الآن بمشاعر كثيفة من الصفقة والعصبية، ولم تعرف ما الذي تفعله بعد ذلك. لا بد لها من استدعاء أحد، فهي وحيدة هنا مع جثة رجل ميت، وسيطلب الشرطة تفسيراً بالتأكيد عاجلاً أو آجلاً

وفيما كان عقلها يفكر في الأمر بسرعة سمعت صوتاً بسيطاً جعلها تلتفت. كان أن المفتاح قد سقط عن باب غرفتها، وفيما هي تحدق إلى الباب سمعت صوت مفتاح يدور في القفل وانفتح الباب

ودخل السيد دكين الغرفة معلقاً الباب خلفه بكل حرص، ثم عاد إليها قائلاً بهدوء: «قد أحسست هماً يا عزيزتي. لقد فكرت بسرعة. كيف حاله؟»

ماتت فكتوريا وفي صوتها غصة: «أظنه... أظنه مات.»

رأت وجهه يتغير، ولمحت التماعة غضب شديد في عينيه، ثم عاد وجهه كما رأته بالأمس.. باستثناء أن التردد والضعف اللذين كانا يبدوان على الرجل بالأمس قد تلاشيا الآن، وحل محلهما شيء مختلف تماماً انحنى على الرجل، ثم فكت سترته العسكرية بمالية بهدوء، ثم قال وهو يرفع جسده: «لقد طُعن بكل دقة وصولاً إلى القلب. لقد كان فتى شجاعاً.. وذكياً أيضاً.»

وجدت فكتوريا صوتها أخيراً فقالت: «لقد جاء الشرطة وقالوا إنه مجرم. هل كان مجرماً؟»

- لا، لم يكن مجرماً.

وهل كانوا.. هل كانوا من الشرطة؟

قال: «لا أدري. ربما كانوا من الشرطة، ولكن لا فرق أبداً.» ثم سألها: «هل قال شيئاً.. قبل وفاته؟»

نعم.

- ماذا قال؟

- قال: «السيطان» ثم «البصرة» ثم ذكر اسماً بعد

فترة صمت، وقد بدا اسماً غريباً، ولكن ربما لم أفهمه بشكل صحيح.

ماذا كان الاسم تقريباً؟

أظنه كان «لوفارج».

قال داكين متأملاً: «لوفارج؟»

سألت: «ماذا يعني هذا كله؟»، ثم أضافت بشيء من الأسى: «وماذا عساي أفعل؟»

- يعني أن تخرجك من هذا الأمر قدر الإمكان، أما بالنسبة لمعنى هذا الأمر كله فسأعود لاحقاً وأخبرك. أول ما يعني أن نفعله هو الوصول إلى ماركوس. فالصندل صديقه، وهو يتمتع بعقل رجيح، مع أن المرء لا يدرك ذلك دائماً عندما يتحدث إليه. سوف أذهب إليه، لا أظنه نام الآن، فلم يبلغ التاسعة إلا الواحدة والنصف، وهو نادراً ما ينام قبل الثانية. عدني أنت من مظهرك قبل أن آتي به، فماركوس ضعيف جداً أمام الجمال المكرب.

غادر الغرفة ومشى في كما تركانب في حلم- إلى طاولة الزينة فمشطت شعرها وطلت وجهها بمسحوب ما شحوب مناسب وارتمت على كرسي تستمع صوت الخطوات تغرب. دخل داكين دون قرع الباب ودخل خلفه ماركوس تير

كان ماركوس جديداً هذه المرة، ولم تكن بعين وجهه التساعة المعهودة. قال له داكين: «والآن يا ماركوس، يبغي عليك فعل

من تستطيعه إزاء هذا الأمر. لقد كان ذلك صدمه هائله لفتاة المسكينه لقد اقتحم الرجل بيتها وانهار وهي داخل قلب رفيق حبه، وبعدئذ أخفته عن الشرطة وها هو مهدد الآن. ربما ما كان عليها أن تفعل ذلك، ولكن العبات وقيمات القلب عاده

قال ماركوس، وعاد لأن؟

- تريد فقط أن تنقل الجثة بعيداً بهدوء

هذا رائع جداً يا عزيزي، ولكن أيضاً لا أريد جثه في منزلي ولكن الأمر -كما قلت- ليس بهذه السهولة

- أعلم أن بالإمكان تدبره. لديك طبيب في أسرتك، أليس كذلك؟

- بلى، زوج أختي طبيب، وهو فني تطبيب جداً ولكني لا أريد تعريضه للمتاعب

- لن يتعرض لشيء. اسمع يا ماركوس، ستنقل الجثة من غرفه الآنسة جوبر إلى غرفتي وقد يحرجها هي من الأمر ثم أقوم باستخدام هاتفك، وفي غضون عشر دقائق سنجد شاباً يندفع إلى الشارع سيكون ثملاً جداً، وهو يمسك حقيبه يده بقوة وسيقوم بطبيب أنا بأعلى صوته يدخل منديلاً في غرفتي ويهاجر، ثم أخرج أنا وأنديك وأطلب طبيباً وهكذا يأتي بروح أختك الذي يرسل في طلب سيارة إسعاف ويصعد فيها مع صديقي الثمل هذا وقبل أن يصلا المستشفى يموت صاحبي، وقد يكون قد طُعن هذه

فكرة لا بأس بها بالنسبه إليك، فقد طُعن الرجل في الشارع قبل دخول المنزل

- أتعني أن روح أختي يأخذ الجثه فيما يغادر الشاب الذي مثّل دور القتيل بهدوء عند الصباح؟

- هذه هي الفكرة

وبعدئذ لا تكون في منزلي أية جثه ولا تتعرض الآنسة جوبر لأي قلق أو إزعاج؟ أعلم يا عزيزي أن هذه فكره رائعه

- حسناً إذن، تأكد لك من خُلوّ الجو، وسوف أنقل الجثه إلى غرفتي إن خدمك هؤلاء يسكنون في الممر اذهب إلى غرفتك وعمل مشكلة ما احضرهم يهرعون إليك جميعاً وكلفهم بإحضار أشياء لك

أومأ ماركوس برأسه موافقاً وغادر الغرفة وقال داكين بقسوة بعد فتاة غربة أستطيعين مساعدتي في حمله عبر الممر إلى غرفتي؟

أومأت فكتوريا موافقة، ورفع الاثنان بيهيد الجسد المترهل وحملاه عبر الممر المهجور وهما يسمعان من بعيد صوت ماركوس يهدر بغضب، ثم وضعا الجثة على سرير داكين الذي قال أليديث مقص؟ حسناً، اقطعي -إذن طرف العطاء الذي حول السرير حيث يقعه الدم. لا أظن البقعه وصلت إلى الفراش بعد، فقد امتصت سترته العسكريه معظم الدم سأتي إليك في غضون ساعة تقريب

انتظري بحطة، اشربي قليلاً من عصير الليمون في ثلاجتي هناك، وستشعرين بتحسن

أطاعته فكتوريا، فعال فتاة شاطرة. والآن عودي إلى غرفتك وأطفئي النور. سآتيك -كما قلتُ- بعد نحو ساعة

- وهل ستخبرني عن معنى هذا كله؟

حدق إليها طويلاً وبشكل غريب، ولكنه لم يجب على سؤالها

* * *

الفصل الرابع عشر

تمددت فكتوريا في سريرها والضوء مطفأ، سمع من خلال الظلمة سمعت أصواتاً عالية لشجار محتدم، وسمعت صوتاً يقول كان علي أن أبحث عنك يا صاحبي لقد شاجرت مع أحدهم في الخارج ثم سمعت احتراساً تُفرغ، وأصواتاً أخرى، وكثيراً من الجلبة ثم حلت فترة من الصمت التام، باستثناء صوت موسيقى عربية ينطلق من جهاز غراموفون بعيد في إحدى الغرف وبعد أن خُيّل إليها أن ساعات عديدة قد مرت، سمعت باب غرفتها يُفتح بحذر، فجلست في سريرها وأنار المصباح على الطاولة قربها

قال داكين مستحسناً "هذا مناسب"، ثم أتى بكرسي إلى جانب سريرها وجلس عليه، وأخذ ينظر إليها كطبيب يريد تشخيص حالة مريض لديه قالت أخبرني كل شيء عن هذا الأمر

- ماذا تريد أن أخبرك أنت كل شيء عن نفسك أولاً؟ منذ متى تعيش هنا؟ لماذا جئت إلى بغداد؟

لم تحاول فكتوريا -كعادتها في ابتكار كذبة مقنعة كاملة التفصيلات لتبرير وجودها في بغداد- أن تخبر أحداً بشيء

الببغاء أو بسبب شيء ما في شخصية داكين (وقد رأت فيه بعد أن ذلك كان لهذا السبب الأخير) أخبرته كل شيء ببساطة وبشكل مباشر، أخبرته عن بطالها بدورارد وتصميمها على الحصول إلى بعدد، وعن محجرة العثور على بيدرو كيبير، وعن محنتها المالية وعندما أكملت قال داكين فهمت

ثم سكت قليلاً قبل أن يقول ربما كنتُ أرغب بإبعادك خارج هذا الموضوع، فسوف وافقاً من ذلك ولكن المشكلة هي أنه لا يمكن إبقاؤك خارجه، فأنت في صلب القضية سواء أحببتِ ذلك أم لا، وعندما أنك في صلب الموضوع، فمن الأفضل أن تعملي لصالحي

اعتدلت فكتوريا في سريرها وقد تورد خداها بحماسة الترقب وقالت ألديك وظيفة لي؟

ربما، ولكنها ليست من نوع الوظائف التي تفكرين بها هذه وظيفة جدية يا فكتوريا، وهي خطيرة أيضاً

قالت بابتهاج آه، لا بأس بذلك ثم أضافت بارتياب ولكنها لا تنطوي على غش واحتيال، أليس كذلك؟ لأنني رغم معرفتي بأنني أكذب بشكل فظيع إلاّ أنني لا أحب حقاً القيام بأي شيء ينطوي على الغش وعدم الأمانة

ابتسم داكين قليلاً وقال من الغريب أن مقدرتك على اختراع كذبة مقنعة بسرعة هي إحدى مؤهلاتك لهذه الوظيفة ولكن كلا، لا ينطوي هذا العمل على غش على العكس، ستكونين في صلب الدفاع عن القانون والنظام سوف أضعك في صورة الموضوع

وبكل طريقة عامة فقط، وبحيث يمكنك أن تفهمي بشكل كامل ما الذي تفعلينه وما هي المخاطر بالضبط إنك تبدين شابة عاقلة ولا أعتقد فكرت كثيراً بالسياسة العالمية وهذا أفضل، فكما يقول هاملت في كلماته بحكمته ليس من شيء جيد أو سيء، ولكن التفكير يجعله كذلك"

قالت فكتوريا أعرف أن الجميع يقولون إن حرباً أخرى ستقع عاجلاً أو آجلاً

بالضبط ولهذا يقول الجميع ذلك يا فكتوريا؟

عضت شفتيها وقالت لأن روسيا الشيوعيين وأمريكا ...، ثم توقفت

- أرأيت؟ هذه ليست كلماتك، بل أنت التقطتها من الصحف والأحاديث العابرة والراديو بعد قولك بتحكمك بأجزاء مختلفة من العالم، هذا صحيح تماماً وهم تمثلان -بشكل عام- في اعتقاد الناس بعنادهما روسيا والشيوعيين من جهة و (أمريكا) من جهة أخرى، وإن الأمل الوحيد للمستقبل يا فكتوريا يكمن في السلام وفي الأنشطة البناءة لا في الأنشطة المدمرة، وبذلك فإن كل شيء يعتمد على أولئك الذين يسيطرون على هذين المعسكرين المختلفين، إما بالاتفاق على الاختلاف وإيداع كل منهما نفسه بالمجال الحيوي لأنشطته، أو بإيجاد أسس مشتركة للاتفاق، أو التسامح والتعايش على الأقل ولكن بدلاً من ذلك- فإن العكس هو الذي يحدث، حيث يُدفن رجلين طوال الوقت لإجبار المجتمع على التمييز بشكل كل واحد منهما بالأخرى على البعد أكثر فأكثر، وثمة أمور معينة قادت

شخصاً أو شخصين في اعتقاد بأن مثل هذا النشاط التخريبي يأتي من طرف أو مجموعة ثالثة تعمل بالسر ولا يشك بها أحد في العالم حتى الآن. فكلما سنحت فرصة للتوصل إلى اتفاق أو إلى مؤشر بتبديد الشكوك وقع حادثٌ ما ليجعل هذا الطرف يكفّ إلى شكوكه من جديد، أو يدفع ذاك الطرف إلى خوف هستيري شديد. وهذه الأمور ليست مجرد حوادث عرضية يا فكتوريا، بل هي مُصمَّمة عمداً للوصول إلى نتيجة محسوبة.

ولكن لماذا تظن ذلك، ومن الذي يقوم بتلك الأعمال؟

- أحد الأسباب التي دفعنا لهذا الاعتقاد هو المال. فالمال يأتي من مصادر غير طبيعية. إن المال - يا فكتوريا - هو دوماً المؤشر الأعظم الذي يدلك على ما يحدث في العالم. وكما يقيس الطبيب نبضك ليأخذ فكرة عن حالتك الصحية، كذلك المال الذي يشكل دم الحياة الذي يعدي أية حركة أو قضية، ومن غيره لا تستطيع أية حركة أن تتقدم. والآن فإن أموالاً هائلة يتم تداولها، ورغم أن تلك الأموال يتم تمويهها بشكل شديد الذكاء والبراعة، إلاّ أنه يوجد - بالتأكيد - أمرٌ غير طبيعي في مصدر تلك الأموال وفي مآلها الذي تسعى إليه بغرابات كثيرة جداً تقوم بشكل غير رسمي. وتتلقى الحكومات الأوروبية التي تُبدي مؤشراتٍ على تصحيح اقتصادها تهديدات عديدة على يد الشيوعيين، وهم عاصرون جديون من أجل قضيتهم. ولكن الأموال التي تدفع للقيام بمثل هذه الأعمال لا تأتي من مصادر شيوعية، وعندما يتتبعها المرء يجدها قد جاءت من مصادر غريبة جداً وغير متوقعة. وبنفس الطريقة، تتصاعد موجة خوف هستيري من الشيوعية في أمريكا وفي غيرها من البلدان، وهنا أيضاً لا نأتي

لأموال من المصادر المتوقعة. فهي تبدو أموال الرأسماليين، رغم أنها تمر في أيدٍ رأسمالية طبعاً. ونحن نقفه بالله، وهي أن أموالاً طائلة هائلة يبدو أنها تخرج تماماً من التداول، ولا أمر أشبه ما يكون بحالة تصرفين فيها رأيك كل أسبوع على شراء أغراض ثم تختفي بعض المشتريات بعد دقائق أو تخرج من دائرة التداول العادي أو حتى من دائرة رؤيتك. لقد اشتريتَ في كل أنحاء العالم ذهباً بمبلغ عظيم على الألماس والأحجار الكريمة الأخرى، وهذه التي تنتقل بين عشرات الأيدي حتى تختفي أخيراً وتستحيل تبعاً مصيرها.

هذه مجرد صورة عامة مبهمة بمطبع تصاريف القول هو أنها توجد في مكانٍ ما مجموعة ثالثة من الناس هددها أحدٌ حتى الآن ولكنها تثير الاضطرابات وسوء الفهم، وتستفيد من تصعيدات مالية وصعقات جواهر مموهة بشكل ذكي وصولاً إلى أغراضها الخاصة ولدينا من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذه المجموعة عملاء في كل بلد، وبعضهم مستقر في تلك البلدان منذ سنوات طويلة. بعض هؤلاء العملاء يحتلون مناصب رفيعة محترمة، وآخرون يؤدون أدوار مواطنين، ولكنهم يعملون جميعاً للوصول إلى هدف يصعب عليهم ولا نعرفه نحن. وهذه المجموعة - في جوهرها - أشبه ما تكون بأنشطة الطابور الخامس في بداية الحرب الأخيرة، إلاّ أنها تأخذ بعداً عالمياً واسعاً هذه المرة.

سألت فكتوريا: ولكن من هم هؤلاء الناس؟

- هم لا ينتمون - فيما نرى - إلى أية جنسية بعينها، وأغلب الظن أن يكون ما يدعون إليه هو تحسين العالم. إن الوهم القائل إن بإمكان

أناس أن يعرضوا مالديه عصراً ذهبياً سعيداً على الجنس البشري إنما هو من أخطر الأوهام

سمعل قليلاً ثم أكمل يقول: حسناً، لا يسعني إلا أن ألفي عليك موعظة. دعني أشرح لك فقط ما نعرفه بالضبط. يوجد عدة مراكز للنشاط، في الأرجنتين، وفي كندا، ومركز أو أكثر في الولايات المتحدة، وأظن (وإن لم أكن متأكداً تماماً) أنه يوجد مركز في روسيا والآن يأتي إلى القاهرة مشيراً جيداً

في السنتين الأخيرتين اختفى ثمانية وعشرون عالماً شاباً لامعاً من جنسيات مختلفة. اختفوا بهدوء من بيئاتهم. وقد حدث نفس الشيء بالنسبة لمهندسين معماريين، وملاحين، وكهربائيين، والعديد غيرهم من أنواع العبيين. حوادث الاختفاء هذه كانا يجمعها قاسم مشترك واحد. كل الذين اختفوا كانوا سباقاً وطموحين. وكلهم تسبب لهم روابط قوية تشدهم إلى شيء، وبالإضافة إلى أولئك الذين نعرف عنهم، لا بد أن يوجد الكثيرون غيرهم، وقد بدأنا نحرز شيئاً مما هم يصبون بحقيقة

أصغت فكتوريا وقد قطبت حاجبيها، فيما مضى ذكر يقول ربما ميت إن من المستحيل في هذه الأيام أن يستمر أي عمليه في أي بلد دون أن يدري به العالم وإن لا نعني هذا بالضبط. الأشعة السريعة، فتلك أشعة يمكن أن تستمر في أي مكان إن ما نعنيه هو الإنتاج واسع الحديث. ورغم ذلك فما يزال في هذا العالم مناطق عديدة، بعيدة عن خطوط التجارة، معزولة بالجبال والصحاري، وسط أناس ما زالت لديهم القوة لمنع الغرباء من دخول مناطقهم،

تلك المناطق التي لا يعرفها ولم يزرها إلا رحالة معزولون أو مسافرون وحيدون هناك. هناك يمكن أن تستمر أمور لا يمكن لأسرارها أن تفقد بمعالم الحضارة، وإن حدث فربما فقد كشافة عاصفة سحيقة

لن أحدد هذه المنطقة، ويمكن الوصول إليها من الصين، ولا أحد يعرف ما الذي يجري في مناطق الصين الداخلية. كما يمكن الوصول إليها من جبال الهيمالايا، ولكن الرحلة من هناك صعبة وخطيرة. لأن من سبق له فقدهم تصل إلى هناك الآلات والعاملون من مختلف بلاد المعمورة بعد أن يحيد عن وجهتهم الظاهرية، ولا حاجة للخوض في تفصيلات هذه العملية المعقدة

ولكن رجلاً واحداً اهتم بمتابعة أثر معين. كان رجلاً غير عادي، رجلاً له أصدقاء وصلات في كل منطقة الشرق. فقد وُلد في كاشغار، وهو يتقن مجموعة من اللهجات واللغات. وقد شبّ، وتابع لأثر الذي قادته إليه شكوكه. وكان ما سمعه غريباً لا يُصدَّق بحيث أن أحداً لم يصدقه عندما عاد وأفضى بما لديه

اشتان فقط صدّقا قصته، أحدهما أنا، فأنا لا أحجم عن تصديق الأمور المستحيلة، وغالباً ما تكون صحيحة. أما الرجل الآخر

تردد قليلاً فقالت فكتوريا: من هو؟

كان الآخر هو السير روبرت كروفتس لي، وهو الرحالة العظيم الذي سافر بنفسه في تلك المناطق النائية ويعرف شيئاً عن مكانها. فقصارى جهود أن كارديكن (وهو رجلي الذي أتكلم عنه) قرر الذهاب ليكتشف الحقيقة بنفسه. كانت رحلة خطيرة بائسة،

ولكنه كان يصنع لنفسه أكثر من أي شخص آخر. كان ذلك قبل سبعة أشهر، ولم نسمع عنه شيئاً إلا قبل بضعة أسابيع، حيث علمنا أنه على قيد الحياة وأنه حصل على ما ذهب من أجله. حصل على السبيل القاطع.

ولكن الطرف الآخر كان يلاحقه، وكان أمر حياة أو موت بالنسبة لهم، لا يعود بأدلته. وقد نوقرت لنا أدلة كثيرة عن اختراقهم لتجهيزات كله بعملائهم، وحتى في دائرتي الخاصة يوجد من يسرب المعلومات، وبعض هؤلاء أعان الله عليهم يحصلون مناصب عليا تماماً. وقد تقف مراقبة كل الجهات بحثاً عنه، وبعد تضحية بأنفس بريئة قتلت بالخطأ لاعتقادهم بأنه هو، فهم لا يحملون كثيراً بالحياة الإنسانية ولكنه استطاع بطريقة أو بأخرى أن يجتاز دون أذى، حتى هذه الليلة.

- أكان ذلك هو إذن؟

نعم يا هيرولي، شاب شجيع جداً لا تلين له قناة.

- ولكن ماذا عن الأدلة؟ هل انتزعوا منه تلك الأدلة؟

ارتسمت ابتسامة بغيضة على وجه داكين البشع وقال: لا أظنهم انتزعوها منه. لا، أن متأكد تماماً من معرفتي بكارميكل بأنهم لم يحصلوا عليها، ولكنه مات دون أن يتمكن من إبلاغ بمكان تلك الأدلة وكيف يحصل عليها. أظن أنه ربما حاول قول شيء عند وفاته يعطينا مؤشراً على ذلك.

كرر داكين بغضب: البصرة. نوفارج. لقد كان في

البصرة وحاول أن يبلغ القنصلية، ويجد بأعجوبة من اطلاق النار عليه. من الممكن أن يكون قد ترك الأدلة في مكان ما في البصرة ما أريد منك فعله يا فكتوريا هو أن تذهبي إلى هناك وتحاولي العثور على شيء.

- أنا؟!

نعم صحيح أنك لا تملكين الخبرة ولا تعرفين ما الذي يبحثين عنه، ولكنك سمعت كلمات كارميكل الأخيرة، ويمكن لتلك الكلمات أن تفيدك بشيء عندما تصلين هناك. من يدري، وربما صادفك الحظ الذي يحالف المبتدئين؟

قالت فكتوريا بنبهة: يؤذي الذهاب إلى البصرة.

ابتسم داكين وقال: هذه مناسبة لأن تنالي هناك، أليس كذلك؟ لا بأس بهذا، وهو سيوفر ممتاز أيضاً. لا شيء أفضل بالنسبة من قصة حب حقيقية. اذهبي إلى البصرة، وافتحي عينيك وأذنيك وانظري حولك. لا أستطيع إعطاءك أي تعليمات حول كيفية التصرف، والحقيقة أني أفضل أن لا أعطيك تعليمات. إنك تبدين شابة في منتهى البراعة والذكاء، وإذا عرفت أنك سمعت الكلمات بشكل صحيح فإني لا أعرف ما الذي يعنيه كلمات الشيطان ونوفارج. إني أميل للاتفاق معك على أن نوفارج لا بد أن يكون اسماً. ابحثي عن ذلك الاسم.

قالت فكتوريا بطريقة عملية: كيف أسافر إلى البصرة؟ وكيف أتصرف دون مال؟

اخرج داكين محفظته وأعطاها رزمة من الأوراق النقدية وقال

هذا مال تتصرفين به أنت كيف تشائين إلى البصرة فوصيت بأجرة حديث مع بيت الحجر السيد كارديو مرسيل صباح غد تولي أنت مقابلته على زيارة بصرة فيما تحافظ بيت الحجر التي تتظاهر بالعمل فيها سأليها عن قدوم هناك، وسيحرك فورا أن عليك أن تبقي في البصرة، وسوف ترسل برقية إلى السيد كلايتون وربما وجدت هناك إدوارد هناك بعد فتحت عائلة الفصل كلايتون بينها بمرور، وكل من بعد هناك يقيم هنالهم. وفيما هذا ذلك لا أستطيع إخفاءك أنه بصيحة بسيطة، بصيحة واحدة إذ ما حدث أي مكروه، وإذا ما سُئلت عما تعرفينه ومن الذي كلفك بما تقومين به فلا تحدثي بشيء بطولتك، تولي كل ما عندك فور

قالت فكتوريا بامتنان شكراً جزيلاً لك إنني جبانة جداً أمام الألم، وإذا ما فُتِّر لأحد أن يعذبني فأخشى أن لا أصمد

لن يُحمِّلوا أنفسهم عناء تعذيبك، إلاّ إذا دخل عنصر جديد في الموضوع. إن التعذيب وسيلة عمى عليها الزمن وخبرة ضعيفة تجيبين بعدها على كل شيء بصدق ودون أن تدركي ذلك إنما تعيش في عصر العلم، ولذلك لم أرد منك بأي فكرة مثالية حول مسألة التربية، إذ أنك لن تجبريهم بشيء لا يعرفونه أصلاً لا بد أن تسمح عيونهم عليّ بعد هذه الليلة، وعلى السير روبرت كرولش بي

وماذا عن إدوارد؟ هل أخبره؟

- هذا ما ينبغي أن أتركه لك. يُفترض بك -نظرياً- أن تكتمي ما تفعلينه عن الجميع أما عملياً!

رفع حاجبيه حيرة وأكمل قائلاً إن من شأن ذلك أن يجعله في حضرة، ولكني فهمت أنه كان قد سجل جيد في الفوز بجوبه لا أظن الحظ سيقلقه غالباً ما يكون الرئيس أقصى من ربي واحد به يظن -إذن- أن في «قصر الريتون» ذاك حيث يعمل شيء مريب؟ هذه نقطة مثيرة مثيرة جداً

- تمادا؟

قال لأنه يرى ذلك بعيداً، ثم أضاف قائلاً مجرد تصحيحين وتعديلين الأول (أن سمحت لي بقولها) هي أن لا تخرجي كذبات كثيرة محتملة، إذ سيصعب تذكرها و لإيقاع بمصداقيتها أعرف أنك موهوبة في هذا الجانب، ولكن دعي الأمور بسيطة، هذه هي نصيحتي

قالت فكتوريا بتواضع يقتضيه الحال سأتذكر ذلك وما هي النصيحة الأخرى؟

- دعي أديلك مصيبتين دوماً لأي ذكر لشابة تُدعى آنا شيل

- ومن هي؟

لا تعرف الكثير عنها، وسيفيدنا أن نعرف عنها المزيد

* * *

الفصل الخامس عشر

قال السيد كاردبو تريشش طبعاً يمكن أن تمضي في القضية هراء ما تعرفه يا عزيزي لا يمكنك الإقامه في فندق المطار سيسعد أسره كلايتون بك لقد عرفتهم سنوات طويله سترسل برقية ويمكنك بعدها السفر بقطار الليلة، وهم يعرفون الدكتور بوسعوت حق المعرفة

حمر وجه فكتوريا؛ إذ أن أسقف لانعو (الذي أصبح لاحقاً أسقف لانعو) يختلف تماماً عن الدكتور بوسعوت الحقيقي بشحمه ولحمه!

كان لرحلة القطار كل سحر التجربه الجديدة، وفي محطه الوصول استقبلتها سيارة القنصليه وقادتها إليها دخلت السيارة عبر بوابات ضخمه إلى حديقه جميلة حتى انتهت إلى أسفل درج يفضي إلى الشرفه التي تحيط بالمنزل وخرجت السيده كلايتون من الباب لتستقبلها بابتسامه وبشاشه قائلة إننا مسرورون لرؤيتك إن البصره جميلة حقاً في مثل هذا الوقت من السنه، ولا ينبغي لك أن تركبي العراق دون رؤيتها، ومن حسن الحظ انه لا يوجد الكثيرون هنا في هذه الأيام بالذات حيث لا نعرف كيف نجعل المستضيع يقيم إقامة

الناس هنا، ولكن لا يوجد أحدٌ الآن باستثناء موظف السفارة البريطانية وهو شاب رائع تماماً بعد فائتك بالمناسبه رآه ريتشارد بكرة فقد غادر قبل أن أتلقى برقيه السيده كاردبو تريشش تعيين

لم تعرف فكتوريا من هو ريتشارد بكرة، ولكن بد من حسن الحظ أن يغادر في هذا التوقيت بالذات

- لقد ذهب إلى الكويت لمده يومين، و لكويت مكان يبغي أن تشاهديه حسناً، ما الذي تفضلينه في البداية حمّاماً أم كوب قهوة؟

قالت فكتوريا باعتذار بل الحمّام من فضلك

- وكيف حال السيده كاردبو تريشش؟ هذه غرفتك، والحمام هناك هل هي صديقة قديمه لك؟

- آه، لا لقد قابلتها قبل فترة فقط

- وأظنها تبتسم بريحك منذ أول ربع ساعة، أليس كذلك؟ إنها تراه نعيمه كلما أطلت عرفت لديها ما يشبه الجنون لمعرفة كل شيء عن كل شخص، ولكن رغم ذلك فهي لاهية ورق من الطراز الأول ألا تنسي تأكده أنك لا ترغبين بشيء من القهوة أو غيرها أولاً؟

نعم، شكراً لك

حسناً، سأراك لاحقاً إذن هل لديك كل ما تحتاجينه؟

ابتعدت السيدة كلايتون كتحلة سعيدة، وغسلت فكتوريا

وجهها وسمعت شعرها بكل عنايه من حسن الحظ أن إدوارد يعرفها باسمها الثاني جوزي، وربما لا يدهشه إضافه اسم باوستوب سنابي الدهشه من وجودها في العراق، وبالنسبه لهذا الأمر كانت فكتوريا تأمل أن تتمكن من الانفراد به حتى ولو للحظة واحدة

وضعت هذه الفكرة نصب عينيها، فانسلّت بهدوء خارجة لتأخذ مكانها في الشرفة بحيث تستطيع رؤية إدوارد بمجرد عودته من أي عمل هو مشغول فيه وهو على الأغلب مصارعة رجال الجمارك للتخليص على صناديق الكتب

كان أول الواصلين رجلاً طويلاً نحيلاً ذا وجه يبدو عليه طول التفكير، وبينما هو يصعد الدرج دهشت فكتوريا إلى رؤيه الشرفه وهناك رأت إدوارد بالفعل يدخل من خلال باب الحديقه الذي يفضي إلى مجرى النهر وعلى طريقه جونيبت، انكبّت فكتوريا على سياج الشرفة وأطلقت صيحاً معلولاً يسترعي به انتباه إدوارد أما إدوارد فقد أدار رأسه بحده ونظر حوله بدهه فكتوريا بصوت منخفض صاحا به

رفع إدوارد رأسه وبدا على وجهه تعبير دهشه مطلقه، فهتف قائلاً يا إلهي! فتاة منطقه تشيرنغ كروس!

هش، انتظري، أنا نازلة

اسرعت فكتوريا على الشرفه ونزلت الدرج واسرعت نحو ركن زاويه المنزل حيث بقي إدوارد واقفاً طامعاً وعلى وجهه أمارات الدهشه يتدرجها قائلا لا يمكن أن أكون ثملاً هذا أنت حقاً؟

أجابته بسعاده نعم، هذه أنا

- ولكن ماذا تفعلين هنا؟ وكيف جئت؟ لقد ظننتُ أنني لن أراك ثانيه أبداً

وأنا ظننتُ ذلك أيضاً

- إنها حقاً أشبه بمعجزه كيف استطعت الوصول إلى هنا؟

بالطائره

- طبعاً بالطائره، وإلا لما وصلت إلى هنا بهذه السرعة ولكن أعني أية فرصة رائعة أتت بك إلى البصرة؟

القطار

إنك تتعمدين إغاظتي أيتها السقيه يا إلهي! إنني سعيد لرؤيتك ولكن كيف وصلت إلى هنا حقاً؟

لقد خرجتُ من إنكلترا مع امرأة كسرت ذراعها أمريكيه تدعى السيده كليب وقد عُرضت عليّ هذه الوظيفه في اليوم الثاني لقدومي إليك، وكنت قد تحدثت عن بعد ذلك وأنا كنت قد سئمت بعض الشيء، ولذلك قلت نعم، تماماً لا أحرج رؤيه العالم؟

- أنت حقاً شديده الأريحيه يا فكتوريا أين هذه المرأه كليب هنا؟

- لا، لقد ذهبت إلى ابنة لها قرب كركوك، كانت وظيفتي مرافقتها في سفرها فقط

ما الذي تفعلينه الآن إذن؟

ما رب أرى العكس ولكن الأمر تطلب بعض الحيل والدهاء والدوران، بدلك أردت رؤيتك قبل أن يلتقي بحضور الآخرين، اعني أني لا أريد أي إشارة منهورة إلى كوني طبيعة حتى لا يحدث عملها، كما كنتُ حين رأيتني آخر مرة.

بالنسبة لي أن ساعتمد ما تقوله عن نفسك كلاً ما كان أنا جاهز لسماع التعليمات

الفكرة هي أني الآنسة باوسفوت حوير وعمي عالم آثار بارز يذهب عنها في مكان قصي هنا، وسأنضم إليه قريباً

وهذا كله غير صحيح، أليس كذلك؟

- بالطبع ولكنها قصة جيدة الحبك

آه، نعم قصة ممتازة. ولكن ماذا لو التقيت مع المحقق باوسفوت وجهاً لوجه؟

- لا أظن ذلك محتملاً إن علماء الآثار حسب معلوماتي يد يدلو بالحفر يستمرون فيه كالمجانين دون توقف

- نعم، أشبه بكلاب الآثار أظن أن في ذلك الكثير من الصدق وهل للسيد باوسفوت ابنة أخ حقيقية؟

- وما أدراني بذلك؟

- آه، أنت لا تتقمصين دور أحد بعينه إذن، وهذا يجعل الأمر أسهل

نعم، فمن شأن الرجل أن يكون له الكثير من بنات الأخوة

والأخوات في نهاية الأمر أو أني قد أقول -عند الضرورة- إني مجرد ابنة عم له ولكني اعتقدت أن أتقدم بعمتي

قال إدوارد بإعجاب إنك تفكرين بكل شيء، آنسة -حقاً- هذه مدهشة يا فكتوريا لم أدرس قط فتاة مثلك لقد ظننت أني لن أراك سنوات طويلة، وعندما أراك ستكونين قد نسيت كل شيء عني، وها أنت الآن هنا

سببت لها النظرة المعجبة المتواضعة التي نظر بها إدوارد إليها رعباً شديداً ولكن لماذا؟ لكنك ستحتاجين عملاً، أليس كذلك؟ أعني أنك لم تأتي لتحصلي على إرث أو ثروة أو ما شابه ذلك؟

قالت فكتوريا ببطء أن أبعد ما أكون عن سوريث والثروات! نعم، سأكون بحاجة إلى عمل، وقد ذهبت في الحقيقة إلى مقر عملك المسمى «قصص الريفيرا» ورأيت الدكتور رتشوك وطلبت منه عملاً، ولكنه لم يُبد استجابة كبيرة أعني تأمين عمل براتب

ذلك الشخص المحور يحبني جداً بماله فكرته هي أن يأتي الجميع ويعملوا حيّاً في العمل

- أتظنه ذهبياً يا إدوارد؟

لا، لا أدري ماذا أظن لا أرى كيف يمكن أن يكون غير ذلك فهو لا يربح مالاً من نشاطه، وحسبما أرى فإن كل تلك الحماسة الرهيبة لا بد أن تكون حقيقية

- من الأفضل أن ندخل يمكننا أن نتحدث لاحقاً

* * *

هتف السيد كلايتون: لم أكن أعلم أنك وإدوارد متعارفان

ضحكت فكتوريا وقالت: آه، إننا صديقان قديمان، إلا أننا فقدنا الاتصال بعضنا ببعض في الواقع لم أكن أعرف أن إدوارد موجود في هذا البلد

سأل السيد كلايتون (وهو الرجل نفسه الذي رآه فكتوريا يصعد الدرج): كيف كان يقدم العمل هذا الصباح يا إدوارد؟ هل حقق أي تقدم؟

- إنها تبدو مهمة صعبة جداً يا سيدي. إن صناديق الكتب موجودة هناك، وهي كلها حضرت وصحيحة، ولكن الإجراءات المتكدسة المتخبص عليها يبدو بلا نهاية

ابتسم كلايتون وقال: أنت حديث على أساليب التأخير الشرقية

قال إدوارد موضحاً: إن الموظف المعني يبدو دائماً غائباً في يوم الحاجة إليه، ورغم أن الجميع يطلقون وعوداً، إلا أن شيئاً لا يحدث كما يبدو

ضحك الجميع، وقالت السيدة كلايتون على سبيل المواساة: سنخرجها في نهاية الأمر. كان قرار الدكتور رالبون بإرسال شخص لمتابعة الموضوع شخصياً فكرة حكيمة، وإلا لبقيت الكتب هناك لأشهر

وبما أن المعاملات توقف في ساعات الظهيرة، فقد خرج إدوارد وفكتوريا بعد العشاء للتجول ورؤية المدينة. وقد أعجبت

فكتوريا بالنهر المسمى شط العرب، وبما يحتويه من سكك النخيل، وأعجبت أيضا حب الشكل لتجميل بقوارب العربة بمقدمتها العالية الشبيهة بقوارب بندقيه وقد رُبطت في النهر. ثم ذهب الاثنان إلى السوق وشاهدا صناديق العروس التي تصنع في الكويت والمرصعة بأشكال فنية من النحاس، وغير ذلك من البضائع

وعندما قفل الأثنان عائدين إلى الفندق، وكان إدوارد يحضّر نفسه لهجوم جديد على دائرة الجمارك، عندئذ فقط سألته فكتوريا فجأة: إدوارد، ما هو اسمك؟

حدق إليها وقال: ماذا تعنين بالله عليك يا فكتوريا؟

أعني اسمك الأخير. ألا تدرك أنني لا أعرفه؟

- حقاً؟ آه، نعم، أظنك لا تعرفينه. إنه فورينغ

- إدوارد فورينغ. إنك لا تعرف كيف شعرتُ بأنني معتلة حين ذهبت إلى مكتب الريشون. أريد السؤال عنك وأنا لا أعرف شيئاً باستثناء إدوارد

هل كانت هناك فتاة سمراء؟ ذات شعر طويل ملفوف؟

نعم

ظننت هي كاترين. إنها تعشقه جداً. لو أنك فقط إدوارد لعرفتني على الفور

قالت فكتوريا بشيء من ضبط النفس: نعم، أحسبها كانت تعرف

إنها فتاة في غاية اللطف. ألا تظنين ذلك؟

- آه، تماماً

- ليست جميلة جسدياً، ولكنها في غاية التعاطف.

حقاً؟

كان صوت فكتوريا قد غدا الآن حليمياً تماماً، ولكن الطاهر أن إدوارد لم يلاحظ شيئاً

- لا أعرف -حقاً- ماذا كنت سأفعل دونها؛ فقد وضعتني في صورة العمل، وأخرجني من مأزق كنت سأبدو معطلاً فيه. أنا واثق أنكما ستصبحان صديقتين حميمتين.

لا أحسب أن سعيد فرحة لذلك

- آه، بلى! سوف أحصل لك على عمل في مشروعنا

- وكيف ستتمكن من ذلك؟

- لا أدري، ولكني سأتمكن من ذلك بشكل ما. سأقول لرالبوب المحور أية طبيعة رائعة أنت... إلى آخر ذلك بمعروفه

ولكنه سرعان ما سيكتشف أنني لست كذلك

- ومع ذلك فسأدخلك إلى «عصر الزيوت» بشكل أو بآخر. لن أسمح لك بأن تبقي جواله على هواك. وإلا لكان الخبر السار الذي سأسمعه هو أنك ذهبت إلى بورنو أو محافل الريف. لا يا عزيزي

فكتوريا، سأصنع أمام ناظري عالماً. بي لا أثق بك مقدار حبة خردل، فأنت مغرمة جداً بزوجك الذي

فكرت فكتوريا مع نفسها قائلة "أيها الأحمق! ألا تدري أن الحبوب الجاسئة ليس من شأنها أن تزحزحني من بغداد" أم يضرب مثال فقالت له "حسناً، سيكون من الممتع بعض الحضور على عمل في «عصر الزيوت»

لم كنتُ لأحب ذلك بالمرة. فالأمر كله في غاية الجدية، بالإضافة إلى كونه عملاً سخيفاً جداً

- أم رأيت ترى أن فيه شيئاً غير طبيعي؟

آه، كانت تلك مجرد فكرة طائشة خطرت لي

- كلا، لا أظنها كانت مجرد فكرة طائشة. أظنها فكرة صحيحة

التفت إليها بحدة وقال: ما الذي يجعلك تقولين ذلك؟

- شيء سمعته... من صديق لي

- من هو؟

مجرد صديق

قال إدوارد مقتدراً. يبدو أن بلغيات من أمثالك الكثير من الصداقات

أخفت رضاها السعيد وسألت إدوارد: هل يوجد من يُدعى

بوضوح وطوراً بإبهام. ولسبب غامض لم تكن فكتوريا قادرة على أن تروي أحداثاً حقيقية بشكل درامي مؤثر. كان سردها متعثراً ناقصاً وكأنها تروي قصة مستحلة لمخرجه. وعندما انتهت من سردها نظر إليها إدوارد بارتياب وقال: "ألبت على ما يرام يا فكتوريا؟ أعني هل أصابتك ضربة شمس أو .. حمى أو شيء آخر؟"

- كلا بالطبع

لأن هذا يبدو أمراً يستحيل حدوثه تماماً

قالت فكتوريا وقد تحمست ولكنه حدث

- وهذه القصة الميلودرامية عن القوى العالمية والمشاكل السرية المتعلقة في قلب النسر أو بلوشستان. أعني أن هذا كله لا يمكن أن يكون صحيحاً. إن أموراً كهذه لا تحدث

هذا ما يقوله الناس دوماً قبل أن تحدث

- يالله عليك أيتها الشقية. ألست تخترعين ذلك كله؟

صاحت فكتوريا مزعجة: كلا!

- وقد جئت إلى هنا للبحث عن شخص يدعى لوفارج و مرأة تدعى آنا شيل

فاجأته قائلة: وهي امرأة سمعت بها أنت شخصياً. لقد سمعت بها، أليس كذلك؟

لقد سمعتُ لاسم. نعم

كيف؟ وأين؟ في أعماق الزيتون؟"

سكتت إدوارد يضع دقائق ثم قال: لا أدري إن كان ذلك يعني شيئاً. كان مجرد أمر .. غريب

مثل: أعبري

اسمعي يا فكتوريا، إنني أختلف عنك. أنا لست على درجة ذكائك. إنني أشعر فقط، أشعر بطريقة غريبة بأن الأمور غير طبيعية على نحو ما. ولا أدري لماذا أحس بذلك. أنت تحددين الأمور وتسجلين منها حقائق. ما لدي ليس سوى الذكاء. ما يجعلني أقوم بذلك إنني أشعر عن يقين مبهم فقط بأن الأمور غير طبيعية، ولكني لا أدري لماذا

- أنا أيضاً أشعر بذلك أحياناً، كحادثة السير روبرت على الشرفة

- عن هو السير روبرت؟

- السير روبرت كرولش لي. كان مسافراً على متن الطائرة معنا وهو سيجار جداً ومغرور، ولكنه شخصية بارزة كما تعلم. وعندما رأيته جالساً على الشرفة في فندق نيو بحت أشعر شعوراً إنني سأعرف غريباً. كالذي ذكرته بأن في الأمر خطأ ما، دون أن أعرف ماهيته

- لقد هتف منه رالبون القاء محاضرة في أعماق الزيتون؟ كم

أمس، ولكنه لم يستطع أن يعد بالعودة صباح غد إلى الدير أو دمشق أو مكان آخر

- حسناً، أكمل حديثك عن آنا شيل

- آه، آنا شيل. لم يكن في الأمر شيء في الواقع، مجرد ملاحظة من إحدى الفتيات

قالت فكتوريا على الفور كاثرين؟

أظنها كانت كاثرين بالفعل، تذكرتُ الآن

- لقد كانت كاثرين بالطبع، ولهذا لم يشأ أن تحيرني بالأمر

- هراء، هذا رعم سخيف تماماً

- حسناً، ماذا كانت تلك الملاحظة؟

- كانت كاثرين لإحدى الفتيات "عسى ألاّ تأتي آنا شيل يمكن التقدم. عندها سنتلقى أوامرنا منها ومنه فقط

هذا في غاية الأهمية يا إدوارد

حلّق إدوارد عالياً بذكرى أنني لست واثقاً حتى من أنه هو الاسم الذي ذُكر

ألم تَرَ الأمر غريباً في ذلك الوقت؟

- نعم، لم أرَهُ غريباً بالطبع ظننت أنها مجرد امرأة قادمة

حتى أمس العمل؟ مجرد واحدة من تلك الفتيات الأنيقات، ألم تفهم من أنك لا تتحملين الأمر كله يا فكتوريا؟

وقبل أن ترمقه بنظرة سارع إلى الاعتذار قائلاً: حسناً، حسناً، إلاّ أن عليك أن تعترفي بأن القصة كلها تبدو غريبة بالفعل بها كقصص الرعب و لإثارة يدخل شاب ويدعى بكينه لا يعني شيئاً ثم يموت إنها لا تبدو قصة حقيقية

قالت "أنت لم تَرَ الدماء"، ثم ارتعدت قليلاً، فقال متعاطفاً لا بد أنها شكلت تلك صدمة رهيبة

لقد صدمني حقاً بالفعل وعاني أنت تتزوج ذلك وتسألني لم كنتُ أحرعُ القصة كلها

أنا آسف، ولكنك ماهرة فعلاً في احتراع الأمور كشأن أسقف لابعد وغير ذلك!

آه، كان ذلك مجرد حيوية فتاة شابة، أما هذا الأمر فهو جدي يا إدوارد، جدي حقاً

ماذا بالنسبة لذلك الرجل هل اسمه داكين؟ هل أقنعك كرجل يعرف ما الذي يتكلم عنه؟

نعم، لقد كان مُقنعاً جداً. ولكن، اسمع يا إدوارد كيف عرفت

قطعت حديثها صيحة من الشرفة "هي تعدلا الشاي جاهز بانتظاركما"، فردت فكتوريا إننا قادمان

قالت السيدة كلايبورن لزوجها وهي تراقبهما يقفزان من الدرج إلى وراء الأكمة من ورائها: شابان لطيفان ... وربما لم يكن لديهما مال أبداً. هل أقول لك رأيي يا جيرالد؟

بالتأكيد يا عزيزتي، إنني مهتم دوماً بسماع أفكارك

أظن أن تلك الفتاة قد جاءت من إنكلترا لتنضم إلى عمها في مغامراته لسبب وحيد وبسيط هو ذلك الشاب

- لا أكاد أظن ذلك يا روزا، لقد دُهشا تماماً برؤية بعضهما بعضاً

هذا لا يعني شيئاً. أظن أنه هو الذي انتعش لرؤيتها

هز جيرالد كلايبورن رأسه عتباً عليها وتبسم، فقالت: إنك ليس من نوعية العاملين بالآثار، فالعاملات بهذا الحقل عادة ما يكنّ حديدات ويضعن نظارات.. وغالباً ما يكنّ ممللات

- يا عزيزتي، لا يمكنك التعميم بهذه الطريقة

* * *

ذهبت لكتريدج إلى فراشها في بيت النيمه وهي تحت وطأة مشاعر متضاربة. لقد وصلت إلى ما كانت تصبو إليه: لقد وجدت إدوارد! ولكنها ارتعدت بتفكيرها برد الفعل الحتمي، لقد ألح عليها شعور بهبوط الترقب وتباطؤ الحدث، يتبعه انطفاء عند نهايته

كان عدم تصديق إدوارد لقصتها السبب جزئياً في جعل كل

ما حدث يبدو مصطنعاً غير حقيقي. لقد وصلت هي (لكتريدج جونز، العالمة المعمورة في لندن) إلى بغداد، ورأت رجلاً يُقتل أمام عينيها تقريباً، ثم أصبحت عميلة سرية أو شيئاً شبيهاً بهذا المستوى من الإثارة، ثم التقت أخيراً بالرجل الذي أحبته، الفتاه في حديقه السوالبة ترفرف فيها أشجار الدخيل

وطاف في خيالها مقطع شعري من أيام الطفولة

كم ميلاً إلى بابل؟

إنها سبعون،

أستطيع الوصول هناك هي ضوء الشموع؟

نعم، والعودة ثانيه أيضاً

ولكنها لم تعد ثانيه. كانت ما تزال في بابل. ربما لن تعود أبداً. هي وإدوارد في بابل!

سؤال لم أرادت طرحه على إدوارد. هناك في الحديقه هي وإدوارد. سأل إدوارد. ولكن السيدة كلايبورن تدخلت. وقد طار ذلك من ذهنها. ولكنها ينبغي أن تتذكر. لأنه كان سؤالاً مهماً لم يكن للأمر أي معنى محدد. إدوارد... آه نعم. روبرت كروفتي. هي كل شيء غير طبيعي على نحو ما... لو استطاعت فقط أن تتذكر

امرأة تأتي باتجاهها في ممر أحد المقاهي. امرأة في بدلة جيدة التفصيل.. كانت هي نفسها. ولكن عندما اقتربت المرأة رأت أن الوجه وجه كاثرين إدوارد وكاثرين. هراء. قالت لإدوارد. تعال

معي، سيجد السيد بوارو ٢٠ وبحاة كان هناك، مرتدياً قفطاناً صفراء ربطة بلون الليمون وله لحية صغيرة مدببة سوداء.

بعد ذهاب إدوارد الآن وعدت وحيدة. ينبغي أن تعود مي بابل قبل أن تتقطع الشموع وندخل في الظلام.

مَن الذي قال ذلك؟ العتمة، الرهبة، الشر... دعاه هي سيره خلفه بالية. كنت تركض... تركض... في ممر أحد المنازل وكانوا يركضون خلفك.

ثم اسيقظت فكتوريا لاهثة.

* * *

قالت السيدة كلايتون دوبوا؟ كيف تحبين البيض؟ محروق؟

قد راتع.

- تبدين شاحبة. هل تشعرين بتعب؟

- لا، ولكني لم أنم جيداً هذه الليلة. لا أدري بعداد. فسرير مريح جداً.

- هل لك أن تفتح لي الستائر يا جيرالد؟ إنه وقت نشرة الأخبار.

دخل إدوارد في نفس الوقت الذي كانت الأنوار تنطلق فيه لبدء نشرة الأخبار.

قدم رئيس الوزراء ليلة أمس تفصيلات جديدة في مجلس العموم حول التحقيقات في المستوردات بالدولار.

أعلن تقرير من القاهرة أن جثة السير روبرت كروفتن في قد انتشلت من النيل. (وصمت فكتوريا صامتها يحدد على نفسها، فيما أطلقت السيدة كلايتون شهقة) وكان السير روبرت قد غادر فندقه بعد وصوله بالطائرة من بغداد ولم يعد إليه في تلك الليلة، وكانت قد مضت على فقده أربع وعشرون ساعة عندما تم العثور على جثته. وقد سحب الوفاء عن طعنه في القلب وليس عن الغرق. وقد كان السير روبرت جوالة مشهوراً، وقد عُرف برحلاته في الصين وتوركستان. وقد ألف عدة كتب.

هتفت السيدة كلايتون لقد قُتل! أظن أن القاهرة سواء من أي مكان الآن. هل تعرف أي شيء عن هذا، كله يا جيرالد؟

عرفت أنه كان مفرداً. يبدو أنه تلقى رسالة شُلمت له بالبريد فغادر الفندق بسرعة مشياً على الأقدام دون أن يقول إلى أين ذهب.

قالت فكتوريا لإدوارد بعد الإفطار عندما كانا بمفردهما ب؟ الأمر كله صحيح بعد. الأمر يدعث الرعب، كل شيء، لأن السير روبرت كروفتن لي أشعر الآن بالأسف لأني وصفته بالسجع، فليس هذا من الأدب في شيء. كل الناس الذين يعرفون أو

يحسّون شيئاً عن هذا الأمر الغريب ثم يراجعهم هل العريس إدوارد، هل نظن أنني سأكون التالية على القائمة؟

- يالله عيث لا تُطهري مثل هذا الشرور بالفكرة يا فكتوريا! إن إحساسك بالذراع قوي جداً لا أرى سبباً يدفع أحداً لتصفيتك، لأنك لا تعرفين شيئاً ولكني أرجوك، أرجوك، أن تكوني حريصة

- سأكون حريصة بعض الأشياء، فقد ورطتك في الأمر

آه، لا بأس بذلك، فهو يحسب على هذه الرقابة

- نعم، ولكن اتبه لنفسك

ثم ازدادت فجأة وقالت إنه أمر فظيع! لقد كان ميتاً بالحياة، أعني السير روبرت.. وها قد مات الآن. إنه لأمر محزن حقاً!

* * *

الفصل السادس عشر

سأل داكين هل وجدت فتاك؟

أوماً فكتوريا بالإيجاب، فسألها وهل وجدت شيئاً آخر؟

هزت فكتوريا رأسها نافية بشيء من الألم، فقال داكين حسناً، هوّني عليك، وتذكري أن النتائج في هذه القضية قليلة وتأتي في فترات متباعدة وربما كان بإمكانك التقاط شيء ما هناك لا أحد يدري، ولكني لم أضع حساباتي على هذا الأساس أبداً

- أتستطيع الاستمرار في المحاولة؟

هل تريدين الاستمرار؟

- نعم، أريد، يظن إدوارد أن بوسعه الحصول على عمل لي في مصنع الزيوت، ولو أبعدت عيني وأذني مصوحه فربما عثرت على شيء، أليس كذلك؟ إنهم يعرفون شيئاً عن آن شيل هناك

- هذا أمر مثير يا فكتوريا، كيف عرفت ذلك؟

كررت فكتوريا ما قاله لها إدوارد حول ملاحظة كاترين التي

قالت فيها إنهم سيتلقون الأوامر من آنا شيل عند قدومها

قال داكين: هذا أمر مثير تماماً

- من هي آنا شيل؟ لا بد أنكم تعرفون شيئاً عنها، أم أنها مجرد اسم؟

- هي السكرتيرة الخاصة بمصرفي أمريكي، رئيس مؤسسة مصرفية دولية. وقد غادرت بيوبورك وجاءت إلى لندن قبل بضعة عشر أيام، ثم اختفت منذ ذلك التاريخ

- اختفت؟ أتعني أنها ماتت؟

- إن كانت قد ماتت فإن جثتها لم يُعثَر عليها

- ولكنها ربما تكون قد ماتت، أليس كذلك؟

- آه، بلى، ربما

- هل كانت قادمة إلى بغداد؟

- ليست لدي فكرة عن ذلك. يبدو من ملاحظات هذه الشابة كاترين أنها كانت قادمة، أو ربما إنها جاءت بالفعل، إذ ليس لدينا حتى الآن سبب يدعونا للاعتقاد بأنها ماتت فعلاً

- ربما استطعتُ معرفة المزيد في فحص الزيتون

- نعم، ربما استطعتِ. ولكن يبقى أن أحذرك مرة أخرى بوجوب التزام الحذر التام بأن تكوني إن استطعتِ التي تعثرين على

شرسة جداً ولا ترحم، ولا أرهب أبداً في رؤية جثتك ملقاة على بهر دجلة

- ربما تكون فكتوريا هيلاً وتتسبب مثل السير روبرت كروفس في أن تعلم أنه في وقت الصباح عندما كان موجوداً في المنزل هو كان في حالة شرب. شيء أدهشني. لم أستطع أن أتذكر صيغة ذلك الشيء

- ماذا تعني بكلمة هرب؟

قالت هي مختلفة، ثم هزت رأسها بارتجاج جواب على نظرته المتسائلة وقالت: ربما تذكرتُ لاحقاً، ولكن لا أظن ذلك مهماً على أية حال

- كل شيء قد يكون مهماً

- إن حصل لي إدراك على وظيفة فإنه يرى أن عليّ العشور على عرفه أقيم فيها كالصبايا الأخريات

من شأن ذلك أن يثير شكوكاً أخرى، كما أن مذاق بغداد غدا جداً. يبدو أن لذلك عقلاً راجحاً

- أتريد أن تراه؟

هز داكين رأسه نافياً بإصرار وقال كلا، خير له أن يبقى بعيداً عني دوماً. من المؤسف أنك ستكونين موضع شبهه بسبب الظروف التي أحاطت بموت كارمايكل في تلك الليلة، ولكن لا يوجد أبداً ما يربط إدوارد بتلك الحادثة ولا بي أنا. ولهذا، لأمر فسه بأنه

كيف أنوي سؤالك عمن طعن كارمايكل عملياً؟ أكان قاتله شخصاً تبعه إلى هنا؟

قال داكين ببطء: كلا، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك.

- لا يمكن؟

- لقد جاء إلى هنا في «فيفا»، وهي نوع من القوارب الصغيرة المحلية، ولم يكن أحد يتبعه إذ لم يعرف ذلك لأني كنت شخصاً يراقب النهر.

- إذن فقد كان القاتل شخصاً من الفندق؟

- نعم يا فكتوريا، والأرجح أنه كان شخصاً من جناح محدد في الفندق. لأني كنت شخصياً أراقب الدرج ولم يصعد أحد غيره.

راقب وجهها المتحير ثم قال يهدوء: هذا لا يعطينا كثيراً من أسماء المشتبه بهم! أنت وأنا والسيدة كاردير بريتش ومارکوس وأخواته، وبعض الخدم المحاذير الذين خدموا هنا لسنوات طويلة يمكن أن يكون القاتل أي واحد منهم. ومع ذلك فلا تُرجّح هذا بسبب وجهه جداً.

ما هو؟

- لقد كان كارمايكل في أوج يقظته وحذره. كان يعلم أن لحظة الذروة في مهمته تقترب، وكان رجلاً ذا عزيمة حادة جداً في تحسس الخطر. كيف خدلته تلك العزيمة؟

بدأت فكتوريا تقول عناصر الشرطة الذين جاؤوا

وضعهم داكين قائلاً: آه، ولكنهم جاؤوا فيما بعد. جاؤوا من الشارع أحسب أنهم بقوا بشارع ما، ولكنهم لم يقوموا بالفحص لا بد أن الطعنة كانت على يد شخص يعرفه كارمايكل جيداً ويثق به، أو على يد شخص اعتبره كارمايكل بسيطاً لا يؤبه به. لو كنت أعرف فقط!

* * *

إن تحقيق إنجاز ما يجلب معه -عادة- ذلك الإحساس بالارتياح وبانطلاق الأحداث. لقد رأت فكتوريا في عودتها إلى بعدد وفي عثورها على بوارد برنامجاً ساحراً. أما الآن وقد حصلت على مرادها فقد أصبحت تتساءل -في لحظات نادرة من صدقه النفس- عن دفعها لفعل ما تفعله!

لقد كان لإدوارد طريقه أو بأخرى، بفوه التصميم بمجرده أو بفوه الإقناع، دور أساسي في حصول فكتوريا على وظيفه بأجر وحيد في «عصر الزيتون». وكانت بعصي ليلٍ وهي في غرفه مظلمه يضيئها مصباح كهربائي وتطبع على آلة طابعه قديمة ساعل وملاحظات وبيانات حول البرنامج بعاطفي المذاع بهذه المطعمه كان إدوارد قد أحس بأن في المطعمه شيئاً غير طبيعي، وبدا أن السيد داكين يتفق مع وجهه النظر تلك. أما هي فقد كانت قد تكتشف ما ستطيعه، وبكل تم يوجد بعدو ما تراه- ما يمكن اكتشافه! لقد كانت أشعه «عصر بريتون» عارفة في عمل السلام العالمي، وقد

ثم عقد تجمعات عديدة قدم فيها عصير الليمون ومعه أطعمة عظيمة، وكان يُعرض بفكتوريا في تلك التجمعات أن تلعب دور المضيفة فتختلط بالحضور وتُعرّف الناس بعضهم ببعض وتحرر المحور العام الجيد بين الحاضرين من حساب محتسبه كانوا يميلون إلى التحدث بعضهم إلى بعض بشيء من العدائية ويتهمون ما لديهم من طعام وشراب

كانت قد تركت فندق بيو واتخذت مكانها مع بعض العائلات الشابات في الشقة من جنسيات مختلفة في بيت على الضفة الغربية للنهر. ومن بين أولئك الشابات كانت كاثرين، وبدا لفكتوريا أن كاثرين مرافقها بحق الريبة، ولكنها لم تستطع التحرر فقد بدا كان ذلك مبعث شك كاثرين في أنها (أي فكتوريا) جاسوسة أم أن المسألة تعود فقط لكسب عواطف إدوارد. كانت تميل إلى هذا الاحتمال الأخير، فقد كان معروفاً أن إدوارد هو الذي قام بالوظيفة لفكتوريا، وقد ومقتها أعين كثيرة بشيء من الحسد والغيرة

ومع أن منظمة أعضاء الريفيرا نفسها بدت بريئة تماماً، إلا أن فكتوريا أحست بشعور محدد بأن رئيسها ومؤسسها كان من ضعف محتمل، فقد انتبهت في مناسبة أو مناسبتين لنظرة الدكتور رالبون الحائمة تستقر عليها، ومع أنها واجهت تلك النظرة بأكثر أساليبها براءة، إلا أنها شعرت بوخزة مفاجئة أشبه بالخوف. ومرة سألها عندما استدعت إليه لشرح خطأ مطبعي "أرجو أن تكوني سعيدة بالعمل معنا؟"، فقالت "آه، نعم! سعيدة حقاً يا سيدي"، ثم أضافت قائلة إني آسفة لأني أرتكب كل هذه الأخطاء، فقال "نحن لا نأبه للأخطاء لا فائدة لنا من آلة لا روح فيها. إنما نحتاج الشباب، نحتاج

سحاء النفس وسعة الأفق". وحاولت فكتوريا أن تقول شيئاً مضحكاً، لكن مظهر الدكتور رالبون فعلاً يعني لك أن تجعل تعمل أن تجعل الموضوع الذي تتحدثين فيه وأن تتطلعي بتمتمتين المجيد الحسن حقاً بكل ذلك يا طفلتي العزيزة؟"

بدأت فكتوريا بعبارة موافقة مع قليل التحامل و مدارت بتحرج، ثم تذكرت أنها نسيت الورقة المطبوعة فعادت إليه، ولقد وعتها قبلاً النظرة التي رأتها في عيني الدكتور رالبون كانت نظرة حادة متشككة، وساءلت -بكثير من عدم الارتياح- عن مقدار مرافبة الدكتور رالبون لها هل كانت وهي رأيه الحقيقي فيها

كانت التعليمات التي تلقتها من السيد داكين محددة ودقيقة جداً فقد كان يفرض عليها أن تلتزم ببعض القواعد في الأحياء به ان كان لديها ما تريد إيصاله له، وتذكرت تحذيراته بأنها لم تجد حاجة لمثل هذا الإجراء حتى الآن كان كل عملها هو القيام بوظيفة دائمة حر وحيد بوديها دون اهتمام. ولم تكن ترى إدوارد إلا في المرات مبتعدة، إذ أن الدكتور رالبون كثيراً ما كان يرسله إلى أماكن بعيدة نائية. وقد عاد لتوه لأن من رحلة إلى إيران. وخلال غيابه كانت قد اجتمعت بقدر وحدة وغير كافٍ مع داكين. كانت التعليمات التي تلقتها تقضي بأن تذهب إلى فندق بيو وتسأل إن كانت قد تركت لصقها سرة صوفية في الفندق. وبما أن الجواب كان بالنفي فقد ظهر ماركوس وقادها مباشرة إلى المصعد المطل على النهر بسرعة بشدي. وخلال ذلك دخل داكين الفندق قادماً من الشارع كالمعتاد فوقع له ماركوس ورقاً للاهتمام إليهما. وفيما كان داكين يرتفع

كويه سرعان ما تم استدعاء ماركوس لأمر ما، وظل الاثنان هناك متقابلين على المائدة الصغيرة

وبشيء من الخشية اعترفت فكتوريا بأنها لم تنجح في مهمتها، ولكن دكين طمأنها بعطف قائلاً له طمئني بعبرة، إنك لا تعرفين حتى ما تبحثين عنه، أو حتى إن كان يوجد ما يمكن العثور عليه هناك. ما هو انطباعك -عموماً- عن القصر الزجاجي؟

قالت فكتوريا بتمهل إنها مظلمة قاتمة تماماً

وماذا عن رالبون؟ أهو حميمي صادق؟

أظنه حقاً كذلك

ولكن صوت فكتوريا كان يوحي بالشك، وقد فكرت قائلة لنفسها نعم، الأمر كله يتركز حول رالبون. فمي أول بناء لإدوارد معه قبل أسابيع في لندن كان الدكتور رالبون هو السبب في ملاحظات إدوارد الغامضة حول «الطريقة» التي تخبط بهذا الأمر. وقررت -فجأة- أنه لا بد من وجود حدث معين أو كلمة معينة أيقظت ذلك المنعمل وعدم الارتياح لدى إدوارد. فهي ترى أن تلك هي الطريقة التي تعمل بها أذهان الناس. إن شكوك المرء العاصفة لا تكون عادة نتيجة إحساس غريزي، بل تكون دائماً نتيجة سبب معين. ولو أنها استطاعت الآن حمل إدوارد على العودة بتفكيره إلى الوراء والتذكر لأمكنهما معاً أن يقفا على الحقيقة أو الحادث الذي أثار شكوك إدوارد. وفكرت فكتوريا أن عليها -بمعض الطريقة- أن تحاول تذكر ذلك الشيء الذي أدهشها إلى ذلك الحد عندما خرجت إلى الشرفة

في فندق تيو ووجدت السير روبرت كروفتس لي جالساً هناك في الشمس. صحيح أنها كانت تتوقع وجوده في السفارة وليس في فندق تيو، ولكن ذلك لم يكن كافياً لتفسير ذلك الشعور الغامض الذي أحست به وجعلها ترى أن جلوسه هناك أمر غير واقعي. بدأ سوف تسترجع أحداث ذلك الصباح مرة بعد مرة. ويبدو أن مفتاح إدوارد على استرجاع الفترة الأولى لارتباطه بالدكتور رالبون سوف يتمثل له ذلك عندما يعود به في الفترة القادمة، ولكن لم يكن من السهل الانفراد به أبداً. وفكرت فكتوريا قائلة لنفسها لقد كان من الأفضل لي بقاءه رهيني لإدوارد لو بقيت في إنكلترا!

ولكن سرعان ما ثبت -بعد وقت قصير جداً- أن ذلك لم يكن صحيحاً؛ فقد جاء إليها إدوارد حاملاً بعض الأوراق وقال يرغب الدكتور رالبون بطباعة هذه الأوراق فوراً من فضلك يا فكتوريا بشكل خاص لصفحة الغلاف، فقد اسمه غريب وبعد كانت هناك بعض الشيء

فهزت فكتوريا رأسها وضعت ورقة في الآلة الطابعة وشرعت تطبع بأسلوبها السريع المعتاد. لم يكن خط الدكتور رالبون صعب القراءة كثيراً، وكانت مهمتها سهلة لأنها ارتكبت من الأخطاء عدداً أقل مما ترتكبه عادة. بحث جانبا الورقة الأولى وصححت أخطاء الكتابة وأدركت على الفور معنى أمر إدوارد لها بالانتباه لهذه الصفحة؛ فقد كانت هناك ملاحظة صغيرة ترفعها إدوارد في رأس ورقة الكتابة الذهبي في ترفعه على الأقدام على طول قمته وضعته خلف بيت هناك في نحو الحادية عشرة من صباح هذا

كان اليوم التالي يوم جمعة، يوم العطلة الأسبوعية، وقد ارتفعت معنويات فكتوريا بشكل هائل. سرعان ما سرى سرورها الحضراء، كما ان عليها أن تغسل شعرها. إن مرافق البيت الذي سكنته يجعل من الصعب عليها أن تغسل شعرها بنفسها. تنهدت بصوت عالٍ وهو بحاجة للغسل فعلاً.

رفعت كاثرين رأسها بارتياب (وكانت تعمل في كومة من البيانات والمعلقات) وقالت من مكانها على المكتب الآخر: ماذا قلت؟

سارعت فكتوريا إلى تكوير نصائح الورق التي كتبتها وردت وقالت بشكل عادي: شعري بحاجة إلى غسل ولا أدري أين أذهب.

إنني أعرف هذه أرمية تغسل الشعر بشكل جيد وبمناشفها مطبعة. سأعدك إليها.

هذا لطف بالغ منك يا كاثرين.

سيذهب غداً؟ فهو عطلة.

كلا، ليس غداً.

لماذا؟

وقعت عينيها نظرة ارتياب، وشعرت فكتوريا بازدياد عبئها وكراهيتها بكاثرين. كان أفضل الخروج في بوسطن على الأقدام لا سيما في بعض أنهواء، فالمرء محصور كثيراً هنا. ثم طغت سطوة شعره عليه. ثم ما لبث أن ان عجب إذ وجدت أنها كانت المفتاح

الخط فكتبت سطراً كاملاً من شرائح المعجب والأرقام والأنواس أخرجت الورقة من آلته واستبدلت بها ورقة جديدة و نكتت على عجلة حتى أنجزته وأحدثته للدكتور راشيل.

ألقى الدكتور نظرة على الأوراق وتمتم قائلاً: شيرلي في إيران وليست في العراق. كما أنك أخطأت في تهجئة كلمة العراق وهذه المدينة اسمها و سط وليس وسط. شكراً لك يا فكتوريا. ثم عاد فناداها وهي تغادر الغرفة وقال: فكتوريا، هل أنت سعيدة هنا؟

- آه، نعم يا دكتور راشيل.

كانت عيناه السوداوان تحت حاجبيه الكثين مركزتين تبحثان شعرت بالاضطراب يتصاعد فيها. قال: أخشى أن لا ندفع لك الكثير.

- هذا لا يهم؛ إنني أحب العمل.

أتحبينه حقاً؟

آه، نعم. يشعر المرء أن هذا النوع من النشاط قيّم فعلاً.

- يوجد بعض هذه الأيام في طبيعة الاحتراق في بعد داخلي. سي دور على العثور لك على موقع أفضل من موقعك هذا.

ولكنني لا أريد أي موقع آخر.

ربما كان من الحكمة أن تأخذي موقعاً آخر.

الحكمة؟

ارتعدت فكتوريا قليلاً

- نعم، هذا ما عنته مجرد كلمة تحذير ونصيحة

كان في نبرته شيء ينذر قليلاً بالخطر. التفت فكتوريا نحوه بوجه أوسع من ذي قبل وقالت: إنني لا أفهم حقاً يا دكتور رانيون

أحياناً يكون من الأحكم للمرء أن لا يورط نفسه في أمور لا يعنيها

شعرت بأنها واقفة تماماً من وجود الخطر هذه المرة، ولكنها استمرت في التحديق به بعينين بريئتين كعطفة صغيرة. سألها: لماذا جئت لتعملي هـ يا فكتوريا؟ من أجل إدوارد؟

تورد وجهها غضباً وقالت بسخط: كلا بالطبع

أومأ الدكتور رانيون برأسه وقال: إن أمام إدوارد طريقاً طويلاً، وسيمضي سنوات كثيرة جداً قبل أن يصبح في موقع يمكن معه أن يكون ذا فائدة لك. لو كنت مكانك لكففت عن التفكير به كما يمكنك الحصول على وظائف جيدة حالاً كما قلت لك، مع راتب جيد ومستقبل واعد. وهي وظائف تحدث وسط أناس من نوعيتك

رأت فكتوريا أنه كان يريبها حتى الآن. أكان هذا اختباراً؟ قالت متظاهرة بالبلاهة: ولكني مولعة حقاً بالعمل في أعصاب الريبوه يا دكتور رانيون

ورفع كتفيه بلامبالاة، وخرجت من عنده، ولكنها كانت تشعر بعينيه مركزة على ظهرها وهي تغادر الغرفة. فما أثارت هذه المقابلة بينه من الاضطراب عندها؟ هل حدث شيء أثار شكوكه؟ هل حتى بها قد تكون جاسوسة دُسّت في منظمة «أعصاب الريبوه» لكشف أسرارها؟ لقد جعلتها صورة واسبوه تشعر بخوف كريه. وقد أعصبها ملاحظته بأنها قد جاءت لتكون بقرب إدوارد وأنكرته بقوة، ولكنها أدركت الآن أن على الدكتور رانيون أنها جاءت إلى هذا المكان من أجل إدوارد. تنهدت وأدركت بكثير من سخط أن لذاكيس علاقة بهذا الأمر وعلى أية حال، ربما عنى الدكتور رانيون فعلاً أن سبب مجيئها هو إدوارد، وذلك بسبب الحجر العصبي الذي بدا عليها. وهكذا يكون كل شيء قد انتهى على أفضل حال.

ومع ذلك كله فقد عادت في بيت الدبلة إلى فراشها وفي فمها غصة خوف صغيرة مقيته

* * *

الفصل السابع عشر

لم يكن في اليوم التالي من السهل تماما على فكتوريا أن تخرج بمفردها بعد الورود ببعض الإيضاحات كانت قد استمرت عن بيت الصك علي وعلمت أنه بيت ضخم مبني على النهر تماماً في مكان قريب عند الضفة الغربية منه

لم يكن قد أتيح لفكتوريا حتى ذلك اليوم من الوقت ما يسمح لها باكتشاف ما حولها من مناظر، ولذلك فقد أحست بدهشة فرحة عندما وصلت إلى آخر الشارع الضيق ووجدت نفسها عند ضفة النهر استدارت يمينا ومشت ببطء على طول حافة الضفة، ولم يكن سيرها يخلو من بعض الخطورة أحيانا، فقد تآكلت الضفة في بعض المواضع ولم يتم اصلاحها أو تعزيزها وكان لأحد البيوت درج أمامه ينحدر نزولاً بحيث يجعل الماء يغسله في النهر إذ ما بالغ في نزوله في ليلة مظلمة نظرت فكتوريا إلى الماء أسفل منها، ثم انعطفت مع حافة النهر، ثم ما بث الطريق أن اصبح واسعاً وممهداً، ورأت أن المنازل على يمينها ما يصح شعوراً بقلق يتعلق بها بحيث لا تفصح عن طبيعة أو هوية ساكنيها ثم وصلت بعد ذلك إلى حدائق نخيل كثيفة، وعلى يسارها كانت قد مرت بدرج غير مستو يفضي

نزولا الى النهر، فيما جلس عربي في قاربه البدائي وأخذ يشير بيديه ويدعوها، وحسبت انه يريد منها ان كانت تريد عبور النهر وقدرت فكتوريا انها قد أصبحت الآن على بعد ثلث مقدار ضعف بيروت رغم ما كان من الصعب تمييز الفوارق في الأساليب المعمارية من هذا الجانب من النهر حيث بدت مباني الضفتين شبيهة بعضها ببعض بعد ذلك وصلت إلى طريق يخترق أشجار النخيل ويفضي إلى بيوت عالية لكل منهما شرفة عالية، وخلف البيوت كان هناك بيت ضخم مبني بحيث يطل على النهر تماماً وله حديقة مسيجة، وكان الطريق المحاذي لضفة النهر يشير إلى داخل البيت الذي كان بيت الصك علي بالتأكيد

وبعد بضع دقائق كانت فكتوريا قد عبرت مدخله ووصلت إلى طريق يبتعد عن النهر وقف عنده سيارة كانت سيارة حربة قديمة بعض الشيء، وبجانبها وقف إدوارد الذي بادرها قائلاً حمداً لله وصلت اصعدي

سألته فكتوريا وهي تدخل السيارة القديمة فرحةً أين سنذهب؟

التفت إليها السائق الذي بدا كرمةً من الشباب الوثاب تدب فيه الحياة وابتسم لها بفرح قال إدوارد سنذهب إلى بابل يقيناً أن لنا ان نتمتع بيوم عطلة

انطلقت السيارة بفرحة عنيفة وأخذت تخط بجرأة على الطريق المرصوف بالحجارة، بابل صاحت فكتوريا إلى بابل؟ ما أجمل ذلك حقاً إلى بابل؟

انعطف السيارة يساراً ومضى الركب على طريق معبد جيد وواسع، فيما قال إدوارد: نعم، ولكن لا تتوقعي الكثير من بابل ثم تعد كما كنت من قبل، إن كل شيء

ثم يكن الطريق الواسع الذي يمتد معبداً بشكل جيد) بمستوى الآمال التي عُقدت عليه، فرغم أنه ما زال واسعاً إلا أنه قد أصبح الآن مليئاً بالحفر وآثار العجلات صاح إدوارد سيقود أسوأ فيما بعد

وفيما كانت أجسامهم تهتز بسعادة مع اهتزاز السيارة ترتفع الغبار سحباً حولهم، وجاءت شاحنات مليئة بالناس فتجاوزت سيارتهم بسرعة وقوة، غير آبهة لكل التحذيرات التي أطلقها بوق السيارة. وبعد وقت عبر الموكب حدائق معلقة، ومجموعات من الماء والأطفال والحمير، وكان وقت كله جديداً على فكتوريا وجزءاً من سحر الرحلة إلى بابل وإدوارد إلى جانبها

وصلوا إلى بابل في عصر يوم ساخن وقد بانت منهم الرصوص وقد خاب أمل فكتوريا قليلاً برؤية أكوام لا معنى لها من الطين الحريب والأجر المعالج بالنار، فقد كانت تتوقع شيئاً من قبيل الأعمدة والأقواس التي رأتها في صور لمدينة بعيدة. ولكن شيئاً فشيئاً بدأت خيبة أملها تتراجع وهما يمشيان خلف دليلهم السياحي بصعوبة فوق أكوام من الأجر المشوي أصعب بأدن واحدة فقط شروحاته المسهبة، وعندما مضى الثلاثة في طريق الموكب إلى بوابة عشتار، مع ما بعثه صور الحيوانات المحفورة عالياً على الجدران من ارتياح، أحست فكتوريا -فجأة- بعظمة الماضي تسيطر عليها، مع رغبة بمعرفة شيء عن هذه المدينة الواسعة الشاسعة التي تمتد

لآن منه مهجورة. وعندما انتهت الجولة على الآثار جلس الاثنان قرب أسد بابل لتناول طعام الرحلة الذي جاء به إدوارد. أما الدليل فقد ابتعد وهو يبتسم بسخرية ويحتقرهما بكل تشديد بوجوب رؤيتهما المتحف فيما بعد

قالت فكتوريا كالحالمة: أيجب علينا رؤية المتحف؟ إن التحف المحفوظة بالقصب مع شروحاتها لا تبدو لي جميلة أبداً بسبب ما لقد ذهبت مرة إلى المتحف البريطاني، وكانت تلك التجربة فظيعة ومضنية جداً لطول الوقوف على القدمين

الماضي ممل دوماً. المستقبل أهم بكثير منه

قالت فكتوريا وهي تشير بشعبريها باتجاه منظر عام للآجر المكوّم: إنه ليس مملاً، فهو يثير إحساساً بالـ بالعظمة. كنت تحب لو كنت ملكاً لبابل يا إدوارد؟

سحب إدوارد نفساً عميقاً وقال: نعم، كنت سأحبه ذلك لقد كان الشاعر مشوب مجداً تماماً، لأن تحكم في جهنم أفضل من أن تخدم في الجنة

- وعندك منتهى كل شيء عني!

يا طفلي المسكينة! لقي أن قلبي سيظل معلماً بطفلة صغيرة لا تستطيع تهجئة أية كلمة طويلة

قطبت فكتوريا جبينها فجأة، فقد أعادت كلمات إدوارد إلى ذهنها تلك المقابلة الغريبة لها مع الدكتور راتيرل. قصت عليه قصة

المعاملة، فبدا أكثر ارتياحاً بدأت معه بوعظ وقال: هذا أمر خطير يا فكتوريا، خطير جداً، حاولي أن تذكري أي ما قاله بالضبط.

حاولت فكتوريا جهدها لتستعيد الكلمات نفسها التي استخدمها رائيون، ثم قالت: ولكني لا أفهم تماماً لماذا أزعجت الأمر إلى هذا الحد.

بدا إدوارد شارداً وهو يقول: تماماً؟ لا تفهمين؟ يا فتاتي العزيزة، ألا تدركين أن ذلك يعني أنهم يعرفون أنك ابنة يحتد وبك ضرورة الابتعاد عن طريقهم. إنني غير مرتاح لتدخلك يا فكتوريا غير مرتاح أبداً، ولا أريد رؤيتك وقد ضُربت وأُصبت وأُلقيت في دجلة يا عزيزتي.

وفكرت فكتوريا كم هو غريب أن يكونا جالسين وسط آثار بابل يناقشان فيما إذا كان من المحتمل أن يتم قريباً ضربها على رأسها وإلقاؤها في دجلة. وفكرت حالمةً وعيناها شبه مغمضتين قائلة نفسها: لن ألبث أن أصحو لأجد نفسي في سرير أحتم حديثاً ميتروفوميا راقداً حول بابل الحقيرة! ثم أغمضت عينيها كلياً وفكرت قائلة نفسها: ربما كنت الآن في لندن، ومن يدري فلعله أن يزور قريباً لأنهض وأذهب إلى مكتب السيد هرينهونتز.

وعند هذه الفكرة الأخيرة فتحت عينيها ثانية بسرعة لتتأكد من أن إدوارد موجود قربها بالفعل أولم هو ذلك السؤال الذي أردت طرحه عليه في البصرة عندما قطعوا عليّ السؤال؟ لم يكن ذلك حتماً كان الشمس تشع بقوة بهذا الأبعد طريقه أبعد ما تكون عن شمس لندن، وكانت آثار بابل باهتة تحت أشعة الشمس، وهي

حوله المشهد انتصبت أشجار النخيل حول موقع الحفائر، وبجانبها جلس إدوارد وظهره يكاد يكون باتجاهها كما هو رائع شعره بني يميل للبنفسجي قليلاً عند رقبته، وبها من رقبة جميلة وقد اسمرت وتشبعت لون البرونزي من الشمس. رقبة لا يستوقفها أي عيب و لكثير من الرجال رقبة تحمل دمامل وتبور في مواضع حساسة بسبب قمصانهم. كرقبة السير روبرت -مثلاً- المصابة بدمامل تحت ياقة قميصه.

فجأة انتصبت فكتوريا في جلستها وقد كتمت صيحة كادت تخرج من فمها. وصحبت انتباه إدوارد متسائلاً وقال: ما الأمر؟

- لقد تذكرتُ لتوي... بخصوص السير روبرت كروفتس لي

وبينما ظل إدوارد ينظر إليها نظرة تساؤل، صمتت فكتوريا تبحث عن شرح ما تعنيه، والحقيقة أنها لم تتمكن من شرح قصدها بكثير من الوضوح. قالت: لقد كانت دُمّلة... على رقبته.

قال إدوارد وقد أخذته الحيرة: دُمّلة على رقبته؟

نعم، في بمباي، لقد حبس أنفاسي، وقد سقط عصاه الرسمي الملحق برداله إلى الخلف فرأيتها... أعني الدُمّلة.

وبعدئذ لا يكون به دمّلة؟ بهذه المرة، ولكنها موجودة لدى الكثير من الناس.

نعم، موجودة بالطبع، ولكن المهم هي أنه في ذلك الصباح على سفينة لم يكن به

لم يكن قد عاد ؟

لم يكن قد دُلّلة آه، حقاً يا إدوارد أن تفهم بموضوع كانت له في الطائرة دمله، وفي فندق تيو لم يكن قد دمله كاتب رقيه صحيحه تماماً ليس فيها أي أثر كرهيت الآن

- حسناً، أحسبها قد ذهبت

آه، لا يا إدوارد هذا غير ممكن! لم يكن ذلك إلاّ بعد يوم واحد، وكانت الدمله قد بدأت بتقيح لتوها في اليوم السابق لم يكن ممكناً أن يشفى بهذه السرعة ودون ترك أي أثر أترى ما الذي يعنيه ذلك؟ نعم، لا بد أن يعني أمراً واحداً وهو أن الرجل الذي كان في فندق تيو لم يكن السير رويرت أبداً

ثم أومأت برأسها بحماسة، فيما نظر إدوارد إليها وقال أنت مجنونة يا فكتوريا، لا بد أنه كان السير رويرت؛ أنت لم ترى أي فارق آخر لديه

افهمني يا إدوارد، فانه لم يُتح لي أبداً النظر إليه بشكل صحيح لم أنظر إلاّ إلى الأثر العام بمظهره العبقة والرداء الواسع وموقفه المتبجح المغرور إنه رجل من السهل جداً تمثيل شخصيته وانتحالها

ولكن كان من شأنهم أن يعرفوا ذلك في السفارة

ولكنه لم يقم في السفارة، أليس كذلك؟ بل جاء إلى فندق تيو وكان الذي استقبله أحد الموظفين الصغار، فالسفير في بكنغ!

- ولكن لماذا؟

- بسبب كارمايكل طبعاً كان كارمايكل قادماً إلى بعداد بمقابلته لكي يخبره بما اكتشفه إلا أنهما لم يلتقيا من قبل، وبذلك لم يكن من شأن كارمايكل أن يعرف بأنه ليس الرجل الصحيح ولن يكون حذراً بما فيه الكفاية وبالطبع فإن السير رويرت الزائف هو الذي قابل كارمايكل! آه، يا إدوارد هذا يوضح كل شيء!

إنني لا أصدق حرفاً من ذلك، هذا جنون لا تعني أن السير رويرت قد قتل في القاهرة فيما بعد

نعم، وقد جرى الأمر كله هناك إنني أعرف لأن آه، ما أفظع ذلك يا إدوارد! لقد رأيت ذلك يحدث

رأيته يحدث؟ هل جُننت يا فكتوريا؟

لا؛ إنني أبعد ما أكون عن الجنون. اسمعني فقط يا إدوارد لقد حدث طرق على باب غرفتي في الفندق في القاهرة، ولأنني خشيت على الأمن أنه ربما، فتحت الباب وأصبت منه، ولكن الطرق لم يكن على بابي بل على الباب المجاور، باب السير رويرت كراوفرد كان الطرق حذراً المصيبات أو تحذيرات و سألتهن ما شئت سألته إن كان يرغب الحضور إلى مكتب شركة الطيران في نهاية الممر وقد خرجت من غرفتي بعد ذلك بقليل وعثرت بابا عليه لافتة تشير إلى أنه مكتب الطيران، ثم انفتح الباب وخرج السير رويرت منه فكرت وقتها أنه ربما بدا بغير حاجة بمظهر مختلف أتفهمني يا إدوارد؟ لقد كان قد حلق ذقنه، وكان الرجل ينظر

جاهزاً، ويتعهد أن يضع العرفة مربوطة على رأسه ويخرج لآخر ليمثل دوره، وأحسب أنهم بدأوا التصوير في مكان ما في القاهرة ولابد بتحذيره طوال الوقت، ثم عودته في النهاية بسلامة عندما عاد الرجل الآخر إلى القاهرة

إنها قصة رائعة، ولكن المصيبة هي أن كاترين لا تحب أن تخرج في ذلك كله لا يوجد ما يدعم ذلك

الدمية

آه، يا للدمية!

وبعض الأمور الأخرى

ما هي؟

- لأنه مكتب الطيران على الباب لم يعد موجوداً هناك فيما بعد لقد تذكرت أنني احترت عندما وجدت مكتب الطيران في الجانب الآخر من قاعة الدخول بعد أمر، ويوجد أمر آخر، ذلك المصيبة التي قرأت بابه لقد رأيته بعد ذلك في بغداد والآن أنني رأيته في أحد الريبورتاج في أول يوم ذهبت فيه هناك فقد دخلت وتحدثت مع كاترين، وتكرر يومها بأنني أنبه من قبل

ثم سكتت لحظة وبدت وكأنها تنتظر أن تعرف ما دوارد أن الأمر ليس خيالاً مني

قال إدوارد ببطء: كل الأمور تعود لتصب في أحد الريبورتاج

- ماذا عن السيد داكين؟ أيبقى على إخباره بهذا ؟

نعم، بالطبع ولكن انتظري يوماً أو يومين، فربما توفر لدينا معلومات إضافية تسير على هديها

* * *

بعد أن تحدثت فكتوريا (سيجه مكشمانها) لم تجد صعوبة في اليوم التالي في تحية كاترين بعض من البرود فقد بدا عليها بعض شديد الخجل من كاترين أنها دلتها على مكان بعض شعرها فيه، فشعرها بحاجة إلى الغسل (وكان هذا صحيحاً تماماً، فقد غرقت من بابل وقد أصبح شعرها الأسود بلون الصدأ الأحمر مما علق به من رمال)

نظرت كاترين وهي تشير إلى شعر فكتوريا بشيء من الرضا المشفق نعم، إنه يبدو فظيعاً، ولم تخرجي بعد في نفس الوقت الرومانسية بعد ظهر أمس؟

لقد استأجرت سيارة وذهبت لزيارة بابل كانت رحلة مثيرة جداً، ولكن بروفيسور اشتد في طريق العودة حتى كادت تخنقني وتحطمني

- بابل ممتعة، ولكن خلبت الذهاب إليها مع شخص يفهمها ويمكنه أن يحدثك عنها بشكل جيد ما بالنسبة لشعرك فستجدين نفسك في بعض الحالات لا محالة، ستجدين نفسك مضطرة إلى قص

وعندما غادرتا «قصر الريش» في تلك الأمسية كانت الفتاتان على أحسن ما يكون الصداقة. ذهبت كاترين وخرجت في العديد من الأرقة الصيفية، ثم طرقت -أخيراً- على باب متواضع ليس عليه ما يدل على أن عصيان تجميل أو تصفيف شعر. ثم خلعه. ورغم ذلك فقد استقبلتها سيدة دميمة يبدو عليها الكدّ، وتكلم إنكليزية بطيئة متأنية وقاست بانقياد فكتوريا إلى مغسلة ظليلة جداً تتسع جنباتها وتنتشر حولها زجاجات مختلفة من غسول الشعر ومليّناته. ثم غادرت كاترين وسمعت فكتوريا رأسها يدعى الآنسة انكوميان الماهرين، وسرعان ما عدد شعرها كتلة من الرغوة الكثيفة

- ولأن، انحني إذا سمحتِ

انحنت فكتوريا فوق المغسلة، وانهمر الماء فوق شعرها وهرعت برولاً في ماسورة المياه. وجاء دهشت انهيا وانحنت كبة ولكنها بحثت على العثيان. وكريمها الرائحة بالمستشفيات بشكل ما كانت لفاقه مبلله من العماش تُطفئ نوره على عينيها وفمها، وصارعت بكل قوتها وهي تتلوى وتستدير. ولكن المبضعة الحديدية أنصت على الكمامة في مكانها. بدأت تختنق، ودار رأسها، وطرق سمعها صوت هادر وبعد ذلك ساد العتمة، عميقة نقية.

* * *

الفصل الثامن عشر

عندما استعادت فكتوريا وعيها شعرت بمرور وقت طويل. هاجت في ذهنها ذكريات مضطربة. اهتزاز جسمها في سيارة، أحاديث غامضة ومشاجرات بالسعة انعربية. أصوات تومض في عينيها بوتة غثيان فظيعة. ثم تذكرت -على نحو غامض- تمددها على سرير وأحدهم وهو يرفع ذراعها والوخزة المؤلمة بالإبرة. ثم انعزلت عن الأحلام المضطربة والعتمة، وخلف ذلك أحاسيس متعاظمة بالمحنة التي تصاحب حالة الطوارئ.

أما الآن فقد أحست أخيراً -على نحو قاتم- بأنها هي نفسها من جديد. فكتوريا جونز. وقد حدث لها شيء ما، منذ وقت طويل طويل. منذ الشهر. وربما منذ سنوات. وربما كان ذلك منذ أيام فقط.

بدأ شعاع الشمس الحبيس الشعر كاترين كاترين بالطبع. وهي تبتسم بعينيها الماكرتين. منذ أحدثت كاترين لكي تعمل شعرها، وبعدها... ما الذي حدث؟ نبتت الرائحة المعقمة المقززة الكلوروفورم بالطبع. لقد خدروها بالكلوروفورم وأخذوها. إلى أين؟

حاولت فكتوريا الجلوس بحذر. بدا أنها جالسة على سرير سرير قاسي جداً. كان رأسها يؤلمها وشعر بالدوار، كما أنها كانت تحس بالعطش، بعطش فظيع. تذكرت الوحوش وخيراً لأنه لم يعد هناك يحدوها. كانت ما تزال تصف مجدرة.

حسناً، إنهم لم يقتلوها على أية حال. لماذا؟ هذا أمر جيد على الأقل. وفكرت فكتوريا بأن أفضل شيء هو العودة للنوم، وسرعان ما فعلت ذلك.

عندما أفاقت مرة أخرى شعرت أن رأسها أكثر صفاء. كان الوقت نهاراً الآن، وكان بمقدورها أن ترى بأن هي كانت في غرفة صغيرة ولكن سقفها عالٍ جداً وقد طُليت بطلاء أزرق شاحب يميل للبنفسجي في الضوء. وكانت أرضيتها من بلاطٍ خرساني، وبدا أن الأثاث الموجود يقتصر على السرير الذي نام عليه. وقد أثلج بطنه قدره عليها، وثمة صورة معلقة عليها فتاة صبية سعيدة ملاك، وتحتها سطر بحاسي، وكانت على الجدار بالقرب منها من الخارج شبك خشبي.

نهضت فكتوريا مترنحة عن سريرها وهي تشعر بصداع شديد وحالة غريبة وتقدمت من النافذة. وكان بوسعها أن ترى بوضوح من خلال الشبك الخشبي حديقة تنتصب حولها أشجار النخيل. كانت الحديقة جميلة بالمقاييس البرية، مع أن من شأن ملاك إنكليزي أن ينظر إليها باستخفاف كان فيها الكثير من الأشجار المتقلبة، وبعض أشجار الكاليبتوس التي يعلوها عبار، وشجيرات أخرى دائمة بعض

الشيء. وكان ثمة عمل يعمل بكرة ودراعه مسلحة بالأربطة، وهو يغني بصوت عالٍ يخرج من أنفه بعضه مسحاً كموسيقى الغرب.

صرفت فكتوريا انتباهها بعد ذلك إلى الباب الذي كان ضخماً ثقيلاً. وهب إليه دون كبير أمل وعالجته، فوجدته مقفلاً. فعادت وجلست على طرف السرير. ترى من هي؟ من المؤكد أنها ليست في بغداد. وما الذي ستفعله الآن؟

تعب مبهمها بعد محاولتها أن سؤالها الأخير هذا لا معنى له في الواقع. فالأجدى أن تسأل نفسها ما الذي سيفعله الآخرون بها؟ وتذكرت وعد الشيخ حسناس مرجح في فمه معدنية. نصيحة السيد دكين بها بأن تقول كل ما تعرفه. ولكن ربما كانوا قد حصلوا منها على كل ذلك وهي مجدرة.

ومع ذلك عادت فكتوريا إلى تلك النقطة بقرع مقصود فكرة أنها ما زالت حية. فلو استطاعت أن تبقى على قيد الحياة حتى يجدها إدوارد. ماذا سيفعل إدوارد عندما يكتشف أنها اختفت؟ هل سيذهب إلى السيد داكين؟ هل سيصرف بمفرده؟ هل سيخيف كالڤرين ويجبره على الكلام؟ هل سيشك بكالڤرين أصلاً؟ ومع ازدياد محاولات فكتوريا لتحيين صورة مُطمئنة لإدوارد في حالة التصرف والسيطرة كانت صورة إدوارد تتلاشى شيئاً فشيئاً بتصبح أقرب إلى تجريد لا ملامح له. ما مدى ذكاء إدوارد؟ هذا هو جوهر القضية. لقد كان إدوارد مجبوراً دوماً سحر، ولكن هل يمتلك عقلاً رجحاً؟ ذلك أن من الواضح أنها ستحتاج عقل في محنتها الحالية.

من شأن السيد داكين أن يمتلك عقلاً رجحاً، ولكن هل

ستوفر لديه الحماسة؟ أم أنه سيكتفي بشطب اسمها من دفتر عملاء؟ أو يكتب أمام اسمها بخط مبسم (رحمها الله)؟ فهي بالنسبة للسيد داكين لا تعدو أن تكون في نهاية الأمر واحدة من آلاف غيرها يجدرون فإن حدهم الحظ لا يُختبر ذلك إلاّ من سوء طالعهم. كلا، لم تستطع تصور السيد داكين يقوم بعمليه إعدام. فلقد حذّرها على أية حال.

كما أن الدكتور رانيون قد حذرها أيضاً (هل حذرها أم هددها؟)، وحين رفضت الخضوع للتهديد لم يتأخر كثيراً تنفيذ التهديد. كررت فكتوريه مع نفسها بإصرار على رؤية الجانب الإيجابي من الأمور "ولكنني ما أزال حية"

فتح صوتٌ خفيٌ في الخارج، ثم جاء صوت إدارة مفتاح في قفل صدئ. أصدر الباب صريراً من مقاومته وانفتح، وفي فتحته ظهر رجل عربي يحمل صينية مدببة من الخشب عليها أطباق. وقد بدا الرجل في مرح جيد، فقد ارتسم ابتسامة عريضة وتطن ببعض العبارات غير المفهومة باللغة العربية. وأخيراً وضع الصينية وفتح فمه وأشار إلى مجرى الطعام في صدره وغادر الغرفة بعد أن أقفل الباب خلفه من جديد.

اقترب فكتوريه من الصينية بانتباه، فوجدت طبقاً كبيراً من الأرز، وشيئاً أشبه بأوراق الكرنب المحشوة، ورغيف خبز عربي كبير، وكان على الصينية أيضاً إبريق ماء وكأس.

بدأت فكتوريا بشرب كأس كبير من الماء، ثم شرعت بالأرز، ثم الخبز، ثم أوراق المحشوف التي كانت مليئة بلحم مفروم ذي

طعم غريب بعض الشيء. وعندما أنهت كل ما في الصينية شعرت بتحسن كبير.

حاولت جهدها لتفكر بالأمور بوضوح. لقد تم تحذيرها بالكتوروفورم وخطفها. متى حدث ذلك؟ لم تكن واثقة أبداً من الإجابة على هذا السؤال، ولكنها حسبت من تكرار نومها وصحوها أن ذلك كان منذ عدة أيام. وقد تم خروجها من بغداد إلى أين؟ وهي - أيضاً - لم تكن تدري وسيلة لمعرفة الإجابة. وبسبب جهلها اللغة العربية لم تكن بمقدورها حتى طرح أسئلة. لم تستطع العثور على مكان أو اسم أو تاريخ.

بعد ذلك عدة ساعات من المثل القائل وفي ذلك المساء ظهر خاطفوها مرة أخرى ومعه صينية طعام، وقد جاءت معه هذه المرة امرأتان، كانتا ترتديان ملابس سوداء وتحجبان وجهيهما. لم تدخلا الغرفة، بل بقيتا خارج الباب مباشرة، وكانت إحداهما تحمل طفلاً بين ذراعيها. وقف هناك يضحكان ضحكاً مكتوماً. فلقد كان وجود امرأة أوروبية مسجونة هنا أمراً مثيراً بالنسبة إليهما.

تكلمت فكتوريه معهما بالإنكليزية والفرنسية، ولكنها لم تلق جواباً إلاّ الضحك المكتوم. ورأت أن من الغريب أن لا تستطيع التفاهم مع بنات جنسها. قالت ببطء وصعوبة إحدى العبارات التي سبق وتعلمتها: الحمد لله.

وقد كررت هي نفسها لهذه العبارة سيل فرح من الكلام العربي. فقد أومأت المرأتان برأسيهما بقوة وتحركت فكوهما بحماس، ولكن بخادم عربي (أو كانتا ما كانت صفته) سارع إلى

سد الطريق عليها، ثم أمر المرأتين بالرجوع وخرج هو أيضاً وأقفل الباب وراءه. ولكن قبل أن يفعل ذلك نطق كلمة واحدة عدة مرات "بكرة بكرة ..."، وكانت تلك كلمة سمعتها فكتوريا من قبل، وهي تعني غداً.

جلست على سريرها لكي تفكر في الأمور. يعني غداً؟ غداً سيأتي أحدٌ أو سيحدث شيءٌ ما. غداً سينتهي سجنها. أم ترى لن ينتهي؟ ربما تأتي مع نهاية سجنها نهايتها هي أيضاً! وبالرغم من الوضع بالحسبان لم تأبه فكتوريا كثيراً لفكرة الموت. غريباً أنه سيكون من الأفضل كثيراً لها أن تكون غداً في مكان آخر.

ولكن هل كان ذلك ممكناً؟ أعطت كل انتباهها لهذه النقطة لأول مرة. ذهبت أولاً إلى الباب وفحصته. من المؤكد أن شيئاً لا يمكن فعله بخصوص الباب. فهذا ليس من الأفعال التي يمكن للمرء فتحها بدبوس شعر. هذا إن كان بمقدورها حقاً أن تفتح أي قفل بدبوس شعر، الأمر الذي تشك به كثيراً.

بقيت النافذة. وبرغم أن النافذة تعطي أملاً أكثر بكثير من بقية الباب، فقد كان سيئ الحظ الذي يعطيها في المراحل الأخيرة من الهشاشة والعطب. فإذا ما افترضت أنها ستستطيع كسر قضبانها تحرج منها في الخشب الهش، فربما لا تكاد تستطيع القيام بذلك دون إحداث أصوات كثيرة من شأنها أن تجذب الانتباه لها. والأسوأ من ذلك هو أن الغرفة التي سُجنت بها تقع في الطابق العلوي، مما يعني أن عليها إما أن تجد حبلاً تتدلى منه أو أن تحاول بطريقة ما القفز إلى الأرض.

فكتوريا أن المجهود في الروايات أن يضع المرء حبلاً من شراشف السرير، ثم يطرق بالباب إلى وقت الشرشف العلوي السميك وربما البطانية الصديقة. ثم يبدأ أي مجهد يناسب غرضها، ويبني عليها ما يستطيع به قص شرشف إلى شرائح طويلة. ومع أنها كانت تستطيع تمزيق البطانية فإن بعضها يجعل الفعل في إمكانية تحملها بدون فكتوريا أمراً مستبعداً.

قالت بصوت عالٍ "تباً"، وقد اقتنعت -أكثر فأكثر- بفكرة الهرب. أحست من كل ما رأته بأن سجانيها كانوا أناساً ذوي عقلية بسيطة جداً يظنون معها أن مجرد إقفال باب الغرفة عليها يعني نهاية الأمر. لن يتوقعوا هروبها لسبب بسيط هو أنها أسيرة، ولا يستطيع الهرب إلا من حمتها بالمحذر وأحضرها إلى هنا (كائناً من كان) ليس موجوداً هنا الآن. هذا ما كانت واثقة منه. إلا من حقنها أو من حمتها أو حقنوها بتوقع حضورهم لفكرة. بعد تركها في مطعمه بعيداً في عهدة الناس يعتقد من شأنهم أن يطيعوا الأوامر. ولكن ليس من شأنهم لأنهاء تفكير وسعة الحيلة، ويُفترض أنهم لا يمتلكون تفكيك الخلاّقة التي يمكن أن تتوفر لشابة أوروبية يعترضها خوف شديد من الله.

قالت لنفسها: سأخرج من هنا بطريقة ما.

عادت إلى الطاولة وأكلت من الوجبة الجديدة التي أُحضرت لها، فمن الأفضل أن تحافظ على قوتها. كان يوجد أرز مرة أخرى، وبعض الفريقان، وبعض لحم الضأن التي طبخت بشكل رائع على الفور.

أكلت كل ما في العصبة، ثم شربت ماء. وعندما أعادت الإبريق إلى الطاولة لاحظت الطاولة مبللاً وبعض شيء من الماء على الأرض. وسرعان ما أصبحت الأرض في نصف البقعة بالماء عبارة عن طين سائل. وبينما نظرت فكتوريا إلى ذلك خطرت بعقلها الخصب دائماً فكرة.

كان السؤال هو: هل تُرك المفتاح في الباب من الخارج أم لا؟

كانت الشمس تغرب الآن، وسرعان ما سيحل الظلام. ذهبت إلى الباب فجثت أمامه ونظرت من الثقب المصمم للمفتاح فلم ترَ أي نور من خلاله. كان ما بمقدورها الآن شيئاً يمكنها أن تدفع به المفتاح. فتحت رصاص أو طرف قلم حبر. كم هو مرجح أن يأخذوا حقيبتها منها. نظرت حولها بمطبخ الجيب. لم يكن هناك من أدوات المائدة إلا ملعقة صغيرة، وهي لا تنفع حاجتها الحالية، رغم أنها قد تفيد لاحقاً. جلست فكتوريا تفكر وتحتال بنفسها، وسرعان ما هتفت بفرح وقامت لمرتبة حذائها واستطاعت نزع نعلها الجلدي الذي في قدمها. ثم لفّت النعل بإحكام مع وجدها قاسية بما يكفي. عادت إلى الباب فركعت أمامه وأدخلت اللفافة بقوة في فتحة المفتاح. وكان من حسن حظها أن المفتاح المصمم لم يكن محكم الثبات في موضعه داخل القفل. وبعد بضع دقائق استجابت لمحاولاتها ووقع خارج الباب دون أن يصدر صوتاً عالياً في وقوعه على أرض طينية.

وفكرت فكتوريا في أن عليها أن تسرع لأن قبل أن يتلاشى تماماً ضوء النهار أحضرت إبريق الماء وصبت قليلاً من الماء بحذر

على إطار الباب مقابل النقطة التي تدرك أن المفتاح قد سقط فيها بعد ذلك استخدمت المطبخ كما استخدمت صابونها في كشط وإزاحة بقعة الطين التي سببت وشبّاً فشيئاً، وسكبت بعد مرات عديدة على الطين، استطاعت أن تحفر ثغرة صغيرة تحت الباب بعمق وحذرت الإطلاق منها، ولكن لم يكن من السهل رؤيته شيء أبداً. ثم رفعت كُمّ قميصها وحاولت إدخال يدها في الثغرة فوجدت أن بالإمكان إخراج يدها وذراعها من فوقها خارج الباب. تحسست الأرض خارج الباب بأصابع مثلهة إلى أن لمست برأس أحد أصابعها شيئاً معدنياً في النهاية. لقد حددت مكان المفتاح، ولكنها لم تكن قادرة على إخراج ذراعها بما يكفي لتناوله. وبعد محاولات عديدة (كادت أن تبكي منها قنوطاً) استطاعت أن تمسكه بأصابعها، ثم سحبته من خلال الفتحة الطينية إلى داخل الغرفة.

جلست فكتوريا على مؤخرة قدميها وكلها إعجاب بعقريتها. مسكت المفتاح بيدها التي ملأها بالوحل، ثم نهضت وأدخلته في القفل. انتظرت بحماس حتى انطلق حولها كلاب نباح في الجوار وأدارت المفتاح، واستجاب الباب لدفعها وانفتح قليلاً. فأصاب منه بحذر لترى أنه يفضي إلى غرفة صغيرة أخرى بها باب مفتوح في الجانب الآخر. انتظرت بحذر ثم خرجت من الباب على رؤوس أصابعها. كان لهذه الغرفة النوافذ خارجية فتحات كبيرة في السقف وفتحة أو اثنتان في أرضيتها، وكان بابها يفضي إلى ممر قصير خشن مبلط بطرف البيت يؤدي مروراً إلى الحديقة.

كان هذا هو كل ما أرادت فكتوريا رؤيته. عادت على رؤوس

أصابعها إلى عرفة سجنها، ولم يكن من المحتمل أن يذهب أحد مرة أخرى هذه الليلة. وبعدئذ سوف تنتظر إلى أن يحل الظلام ثم تخرج.

وقد لاحظت أمرٌ آخر. فعند الباب الخارجي كان ثمة قطعة سوداء من القماش البالي مكومة هناك. ورأت فكتوريا أنها عباءة قديمة ستكون مفيدة في إخفاء ملابسها الغريبة. ولم تعرف فكتوريا كم من الوقت انتظرت هناك. بدت ساعات لا تنتهي بالنسبة إليها، وأخيراً خمدت الأصوات المحتجة المختنقة، وتوقفت أنه غرامونوف بعيداً عن اطلاق الأغاني الغريبة، وسكتت الصيحات العالية وضحكات النساء الحادة وبكاء الأطفال.

أخيراً لم تعد تسمع إلاّ أصوات عواء بعيدة خلتها أصوات ذئاب آوى، وموءاة سناح الكلاب فجأة بين الحين والآخر. وهو ما تعرف أنه سيستمر طوال الليل. فالت نفسها وهي تهمس خلسة إلى العمة!

بعد لحظة من التفكير أقفلت باب سجنها من الخارج وأبقت المفتاح في القفل، ثم تحسست طريقها عبر الغرفة الخارجية وأخذت بندقية المكومة من القماش الأسود وخرجت إلى أعلى الدرج الطيني. كانت السماء مقمرة، ولكن القمر لم يكن قد بدأ بعد في السطوع من كان هناك من الضياء ما يكفي فكتوريا لترى طريقها. تركت الدرج بهدوء ثم توقفت قبل نحو أربع درجات من نهايته. فقد كانت هناك على مستوى السياج الطيني الذي يحيط بالحديقة فوق ما استمرت في تذكره. درج سيتعين عليها أن تمر بمحاذاة البيت كان موسكو مستلقياً

الشجيرات في الطريق الضيق. ومع كان من الأفضل أن تذهب عن طريق هذا السياج، فقد كان سياجاً عريضاً يمكن السير عليه.

اختارت هذا الخيار الأخير ومضت بسرعة وحذر إلى حيث كان الجدار يستدير بزاويه قائمة. وهناك ألقت في الخارج ما بدا لها حديقة نخيل. وكان الجدار في أحد مواضعه مهدماً. تسلقت فكتوريا طريقها هناك وزحفت الجدار بضعف تعبن وبضعف قوة. وبعد بضعة كاسب سير بسرعة بين أشجار النخيل باتجاه ثغرة في الجدار البعيد. خرجت إلى رقاق ضيق بدا لها أنه يمر به مسار. ولكنه يصبح ممراً الحمير. وكان على جانبي الرقاق جدران من الآجر الطيني، وهرعت فكتوريا تقطع الرقاق بأكل ما وتيسر من سرعة.

وهنا بدأت الكلاب تنبحها بكل شدة، وجاءها من أحد الأبواب كلبان أبرشان يزمجران، فما كان منها إلاّ أن التقطت قبضة من الحجارة والحصى ورمتهما بها، فصاح الكلبان وابتعدا راكضين، وأسرعت فكتوريا استدارت عند منعطف لتجد نفسها وسط ما بدا أنه الشارع العام. وكان الشارع ضيقاً مرصوفاً بحصى بيوت الطينية لمقربه التي تبدو جميعها بلون البن في ضوء القمر. كانت أشجار النخيل تطل من فوق الجدران، والكلاب تزمجر وتنبح. وقد خلت فكتوريا بعد عميقاً وركضت، واستمرت الكلاب بالنباح، ولكن أحداً من البشر لم يهتم لاحتمال وجود فاطمة طريق في هذا الليل. وسرعان ما وصلت فكتوريا إلى فضاء رحب فيه جدران مبنية موحشة وعرفه حمير مقيدة أصابه الذي، وبعد الخير بدا أن يطريق أو تمشي الرابي يمتد عميقاً في الريف لا حدود لها. واستمرت فكتوريا في الركض حتى تقطعت أنفاسها.

أصبحت القرية الآن بعيدة عنها إلى الخلف، وتوسط القمر السماء وإلى يمينها وشمالها وما بين يديها لم يكن هناك إلا الأرض الحجرية الجرداء، أرض لم تتعهدها يد إنسان وليس فيها أثر يدل على أي عمران بشري بدت الفلاة مسطحة سهلية، ولكنها لم تكن تخلو في الواقع من مرتفعات ومنخفضات بسيطة، ولم تعرف فكتوريا إلى أين يمضي هذا الفلاء، كما لم تكن تعرف بكثير عن البحوم حتى تعرف على الأقل في أي اتجاه يسير كان في هذه الأرض الشاسعة أمر غامض يبعث الرعب، ولكن كان من المستحيل العودة، ولم يكن أمامها سوى أن تستمر

توقفت لحظات تلتقط أنفاسها وتطمئن نفسها بالنظر إلى ما خلفها والتأكد من أن أحداً لم يكتشف هروبها، ثم انطلقت من جديد تمشي بثبات قاطعة ثلاثة أميال ونصف الميل في الساعة باتجاه المجهول، وبزغ الفجر أخيراً فوجدت فكتوريا نفسها بقعة صغيرة التضاريس تكاد تكون على شعير الانهيار تتعصبي تأكدت من خلال ملاحظة الضوء في السماء بأنها تتجه نحو الجنوب الغربي بشكل عام، ولكن بما أنها لا تعرف أين هي فإن هذه المعلومة لم تكن ذات فائدة تُذكر لها

كان أمامها إلى جانب الطريق شيء ما أو بقع صغير تركت فكتوريا الطريق الترابي واتجهت إلى ذلك الشيء الذي كان حوافه شديدة الانحدار، فتسلقتها وصولاً إلى قمته ومن هناك كان بوسعها أن ترى المنظر العام بمنطقة حولها، وعاودها شعورها بالذعر الذي لا يفسر فقد كان الخواء في كل اتجاه كان ينظر حيالاً في ضوء الصباح الباكر، وامتدت الأرض والأفق بعلان بعيد من

مختلف الألوان الحمراء والبرتقالية التي كانت مزيجاً شكلاً مذهلاً من الجلال كان ذلك جميلاً ومخيفاً وقالت فكتوريا لنفسها عرف الأمر معي أن يقول المرء إنه وحيد في هذا العالم!

كانت بقع من الأعشاب القصيرة تغطي التربة هنا وهناك، بالإضافة إلى بعض الأشواك المتناثرة وليس هذا كل شيء لم يكن هناك أي شجر أو ظل على الإطلاق لم يكن هناك سوى الكثير والكثير من الحجارة كما لم يكن هناك أي أثر يشير إلى هروب منهم كان الطريق الذي جاءت منه يمتد رجوعاً إلى ما بعد أفق الأرض خلاء لا نهاية له، وقد بدا لها أمراً لا يُصدَّق أن يكون قد قطعت كل هذه المسافة بحيث غابت القرية تماماً عن مجال بصرها، وأنها بمفردها تقريباً وقوى بعقولها بالذعر والرعب شوقي لأن تستعيد شكلي أو بآخر صلتها مع بني البشر!

ثم عادت فنظرت خلفها، فقد أرادت أن تعرف، وهربت، ولكن بدلاً من أن تنهي مشكلاتها بمجرد أن وضعت بينها وبين سجانيها بضعة أميال إن من شأن سيارة -مهما كانت قديمة وخربة- أن تقطع تلك الأميال بكل سهولة وبمجرد اكتشاف أمر هروبها سيقوم أحدهم بالبحث عنها، فكيف ستعثر عليها؟ لا يوجد بحوزتها أي مكان يمكن الاختباء فيه ثم لن تتحمل معها تلك الحقيبة السوداء الثقيلة، وقد جربت لأن تضع نفسها بين طياتها وتسحبها بعطي وجهها، دون أن تعرف كيف تفك شكتها، إذ لم تكن معها مرآة لتنظر بها خلفها لأوروبي وحواريها وشبح حافلة القديس، لعلها تستطيع تخمين مكان أمرها كانت تعرف أن من شأن امرأة غريبة فاتنة ترتدي الجلد

أن تحطى بكل الحصانة الممكنة مهما ساءت حالتها أو بدع شكلها، ويشعر منهى سوء الأحلاق أن يعتدى أى رجل بمضايقتها. ولكن هل سيخدع دب الكلكا أحداً غريباً بعد انطلاقه خلفها بسيارته سيحث عليها؟ إنها -على أية حال- الفرصة الوحيدة أمامهم.

كانت قد مالت من التعب ما لا تستطيع معه متابعة المسير حالياً، وكانت تحس بعض شبهه أيضاً، ولكن كان من المستحيل التفكير على هذا النحو، ولذا قررت أن أفضل شيء هو أن تضطجع في ظل بعض النباتات بعيداً عن هناك أن تسمع صوت أية سيارة قادمة، ويمكنها أن تحمي نفسها بالانكفاف إلى مؤخرة الشاحنة بحيث يبقى بعيداً عن أنظار من يأتي في هذا الطريق. ومن وجهة أخرى فإن ما كانت بحاجة ماسة إليه هو العودة إلى الحضر، والطريقة الوحيدة التي رأتها لتحقيق ذلك هي إيقاف سيارة يقودها أوروبيون والطلب منهم نقلها معهم.

ولكن عليها أن تتأكد من أن أولئك الأوروبيين ليسوا من الأوروبيين غير المرغوب فيهم. ولكن كيف عساها أن تتأكد من هذه النقطة؟ ظلت تفكر في هذه النقطة حتى غلبها النوم على غير توقع منها، وقد أنعشتها الرحلة القصيرة والإغفاءة القوية. وعندما أفاقت كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء، وشعرت بالحر والتشنج والدوار، وكان عطشها قد أصبح الآن عذاباً مضنياً. أدركت أنها من شدة الجوع المرير، وعندها تجمدت فجأة واصغت! فقد سمعت صوت صفير (ولكنه موكد) لسيارة. رفعت رأسها بحذر شديد فرأت أن السيارة لم تكن قادمة من جهة القرية، بل ذاهبة باتجاهها، وبدت بعض أنها ليست سيارة مُغادرة. كانت السيارة ما تزال بقعة

سوداء بعيدة تماماً عند نهاية الطريق الترابي. تشددت فكتوريا لتحمي نفسها قدر الإمكان واستمرت في مراقبة السيارة. ولكم تمنت لو أن لديها منظار مقرب.

غطت السيارة مسافة معدودة في منحدر من الأرض، ثم غابت بضعة دقائق في منخفض مرتفع غير بعيد. كان فيها سائق عربي وفي داخلها رجل يرتدي ملابس غربية. وفكرت فكتوريا لنفسها: الآن علي أن أقرر. كيف يجب أن أتصرف؟ هل أركض مرولاً إلى الطريق وألوح للسيارة لتوقفها؟

وبينما كانت تستعد للقيام بذلك انتابها فزع مفاجئ أوقفها. فماذا لو افترضت، مجرد افتراض، أن هذا هو العدو؟ كيف يمكنها أن تحمي ذلك؟ من المؤكد أن هذا الطريق مهجور تماماً، إذ لم تمر به سيارة أخرى، ولا شاحنة، ولا حتى قافلة جمال. ربما كانت هذه السيارة مجهزة بشرطة التي هرب منها بعيدة المضيفة. فماذا عساها تفعل؟ كان من المفترض أن تضطر لاتخاذ قرار حطير كهذا في ظروف تختلف تماماً. إن كان هذا هو العدو فربما انتهى كل شيء. ولكن إن لم يكن العدو فربما كان أملها الوحيد بالنجاة، لأنها إن استمرت في التجول على غير هدى فربما ماتت عطشاً. ماذا عساها تفعل؟

وبينما كانت تعمي مشورة لا يستطيع أحد قراءة غير صوت السيارة المقتربة، فقد خفضت سرعتها ثم انعطفت وخرجت عن الطريق نحو الأرض المليئة بالأحجار متجهة نحو البقعة التي تجلس فكتوريا خلفها. لقد رآها! إنهم يتجهون نحوها!

انزلقت مرولاً من المنحدر الذي اختبأت به وركضت حول

مؤخرة البيت منعطفة عن السيارة المقبلة، ثم سمعتها توقف، وسمعت صوت صفق بابها بعد نزول أحدهم منها. بعد ذلك قال أحدهم شيئاً بالعربية، ولم يحدث شيء. وفجأة، ودون أي إنذار، ظهر رجل أمام نظرها. كان يمشي حول البيت صاعداً إلى منتصفها، وكانت عيناه تبحثان في الأرض، وكان يحني من وقت لآخر لينقط شيئاً عن الأرض. ولما كان يبحث عن شيء فإن ذلك الشيء لم يكن أبداً فتاة تدعى فكتوريا جونز! وفوق ذلك فقد بدا إنكليزياً لا يمكن تدعى أن يخطئه.

تهدأت فكتوريا بارتياح وجاهدت بشدة على قدميها وتقدمت من الرجل الذي رفع رأسه ونظر إليها دهشاً. قالت له من فصلك إني في غاية السعادة لحضورك.

بقي يحدق إليها، ثم بدأ قائلاً: من تكونين بالله عليك؟ أأنت إنكليزية؟ ولكن

رمت فكتوريا عن نفسها العباءة بعيداً من الصخرة وقالت: نعم أنا إنكليزية طبعاً! وهل يمكنك -رجاءً- أن تعيدني إلى بغداد؟

- لست ذاهباً إلى بغداد، بل لقد جئت منها لتوي. ولكن ما الذي تفعلينه -بربك- هنا وحيدة في وسط الصحراء؟

عانت فكتوريا لاهثة بعد خطفت دهشة لأعمال شعري تحدروني بالكلورفورم، وعندما صحوت وجدت نفسي في بيت عربي في قرية هناك.

ثم أشارت نحو الأفق، فقال لها: في بندلي؟

- لا أعرف اسمها. هربت لينة أمس، ومشيت طوال الليل، ثم حسبت عندما النهار حسبة أن تكون عدواً.

كان منقذها ينظر إليها وعلى وجهه تعبير شديد الغرابة. كان رجلاً أشعر الشعر في نحو الخامسة والثلاثين، يبدو عليه شيء من التعالي، وإذا تكلم تكلم بحديث أكاديمي دقيق. وضع لأن نظره على عينيه وحدق إليها من خلال نظاراته وعلى سيماء التقزز، وأدركت فكتوريا أن هذا الرجل لم يصدق كلمة واحدة مما كانت تقوله. وتحولت مشاعرها -فوراً- إلى سخط غاضب وقالت: إنها صحيحة تماماً، بكل كلمة فيها.

بدا الغريب أبعد من أي وقت مضى عن تصديقها، ثم قال ببرود: أمر رائع جداً.

انتاب فكتوريا اليأس، كم هو مؤسف أن لا تمتلك قوة الإقناع عندما تحكي الحقائق المجردة، وهي التي تستطيع دوماً أن تجعل الكذب يبدو معقولاً. لقد كانت تروي الحقائق العارية بشكل سيء يفتقر إلى الإقناع. قالت للرجل: وإذا لم يكن معكم ما أشربه فوسي سأعطك عطشاً. وسأموت عطشاً على أية حال إن أنت تركتني هنا وذهبت.

قال الغريب بتشنج من الطبيعي أن لا أحتمل بعمل شيء كهذا، إذ لا يناسب امرأة إنكليزية أبداً أن تتيه وحيدة في البراري. يا إلهي! إن شعرك متشققان تماماً.. يا عزيزتي.

- نعم؟

ظهر السائق عند طرف التلة، وعند تسليمه التعليمات باللغة العربية مرّ نحو السيارة ليعود بعد لحظات حاملاً حافظة ماء صغيرة كروية الشكل وكأساً من البلاستيك

شربت فكتوريا بشراهة ثم قالت أووه! هكذا أفضل

قال الإنكليزي اسمي ريتشارد بيكر

وأنا فكتوريا جونز

ثم أراد استعادة ما خسره من ثقة الإنكليزي وتحويل تكديره بها إلى انسياه واحترام فقالت باوسعوت جونز إني مصحوبة بعمي الدكتور باوسعوت جونز في موقع حفرياته

قال بيكر وهو ينظر إليها باستغراب يا للمصادفة العربية! إني في طريقي إلى موقع الحفريات أنا الآخر إنها لا تبعد عن هنا إلاّ نحواً من خمسة عشر ميلاً إني الشخص المناسب الذي أرسلته العناية الإلهية لإنقاذك، أليس كذلك؟

لعل القول إن فكتوريا قد توجّست بكون مهويّ تحفيظة صديقنا قد أسقط في يدها تماماً، إلى الحد الذي لم تعد معه قادرة على النطق بأية كلمة تبعت ريتشارد بخوع وصعد إلى السيارة وركبت فيها وقال ريتشارد وهو يُجلسها في المقعد الخلفي بعد أن حدّه الكثير من الأعراض أظنك أنت عالمة الآثار الشاب لقد سمعتُ أنك قادمة، ولكني لم أتوقع وصولك في مثل هذا الوقت المبكر

وقف لحظة يرتب شظايا الصخار التي أخرجها من جيبه، والتي أدركت فكتوريا أن أنها هي التي كان ينتقطها عن الأرض عند التلة،

ثم أشار إلى التلة وقال يبدو من المحتمل أنه كان تلاً أثرياً، ولكن ليس فيه ما يوحي بالقيمة كما أرى معظم ما فيه من أواني العهد الأشوري المتأخر وشيء من آثار البارثيين وغيرهم ثم استسمح وأضاف قائلاً إني سعيد إذ أرى أن عربتك الأثرية قادرة رغم متاعبك- لتفحص هذا التل الأثري

فتحت فكتوريا فمها ثم عادت فأغلقته، ثم انعطف السيارة

ما الذي يمكنها قوله في نهاية المطاف؟ صحيح أن أمرها سيكشف سيجرد وصولهم إلى مقر البعثة الأثرية ولكن الأفضل بالتأكيد أن يكشف أمرها هناك وتعترف بذنبها مكفّرة عما اقترفته من تقصير من أن تعترف لسيد ريتشارد بيكر وسط هذا التيه بالأحرى إن أسوأ ما يمكن أن يفعلوه لها هو إعادتها إلى بغداد وفكرت فكتوريا (التي لا تنوب أبداً) أنها ربما استطاعت التفكير بعدئذٍ ما قبل الوصول إلى هناك، وقد بدأ حياتها النشيط عند مبشرة فقدان مؤقت للذاكرة؟ لتقل إنها سافرت مع فتاة طيبة منها أن ولكن لا، يبدو أن الأمر سينطلي منها روايته كاملة هذه المرة ولكنها كانت تفضل بالتأكيد أن تفرغ مكنونات صدرها لبدكتور باوسعوت جونز من أن تفضي بها إلى ريتشارد بيكر بالطريقة المتعالية التي يرفع فيها حاجبيه ويتكلم الصريح بنصف الدقيقة الصحيحة التي رويتها له

قال السيد بيكر وهو ينتقد في كرسيه الأمامي إنك لا تدخل مصري تماماً، بل ستعطف عن الطريق لتدخل الصحراء بعد نحو ميل

من هنا يكون من الصعوبة أحياناً العثور على النقطة تلك في عباب الشواخص

وسرعان ما قال شيخ لعبدو فانعطفت السيارة بحدة عن الطريق الترابي واتجهت مباشرة إلى عمق الصحراء، وقد قام ريتشارد ببكر بتوجيه السائق بإشارات منه دون أن يرى فكتوريا وجود شواخص يستهدي بها وكانت السيارة تذهب تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال وسرعان ما أطلق ريتشارد صيحة ارتياح وقال إننا نسلك الطريق الصحيح الآن.

لم يكن بوسع فكتوريا رؤية أي طريق ولكنها أخذت تلاحظ بين الحين والآخر وجود آثار عجلات لا تكاد تُرى، وبعد قليل اجتازت السيارة آثار عجلات أوضح قليلاً، وما أن اجتازتها حتى صاح ريتشارد وأمر عبدو بالتوقف، ثم قال لفكتوريا هاهو منظر مثير لك لم تريه من قبل عالماً أنك جديدة على هذا البلد

كان هناك رجلان يعربان من السيارة، وكان أحدهما يحمل مقعداً خشبياً قصيراً على ظهره، فيما حمل الآخر جهازاً خشبياً كبيراً بحجم البانو جاءهما ريتشارد، وردّا عليه بحبه بكل ترحيب وسعادة، ثم أخرج ريتشارد لفافات تبغ ورعها عليهما، وبدا أن جو صداقة دافئاً يسود الجميع ثم التفت ريتشارد إليها وقال هل تحبين السيما؟ ينبغي أن تشاهدي عرضاً إذن

تحدث مع الرجلين فابتسما بفرح، ونصب المقعد وأشارا لفكتوريا وريتشارد بأن يجلسا عليه ثم ركّب الجهاز المستدير على قاعدة ما، وكان فيه فتحتان للنظر من خلالهما، وحالما نظرت

فكتوريا مهما صاحت فائلة إنه صندوق العجائب!

- بالضبط، نسخة بدائية منه

وكرّت فكتوريا عينيها حين فتحتي النظر المستطيلتين بفرح، وبدا أحد الرجلين يدير ذراعاً متحققاً بالأيد، فيما أخذ الآخر يغني أغنية فيه بعض الرتابة سألت فكتوريا ما الذي يغنيه؟

ترجم لها ريتشارد فيما مضى الرجل في غنائه يقول بحال وجهر مسك لتكثير من العجائب والمتعة تجهز برؤية عجائب الزمان

ورأت فكتوريا من الفتحة صورة بدائية الألوان لزوج يحصدون القمح، فيما شرح لها ريتشارد ترجمة «فلاحون في أمريكا» ثم جاء شرح لصورة أخرى «زوجة الشاه الأكبر للعالم العربي»، فيما ابتسمت الإمبراطورة بوجهي وعبثت بخصلة من شعرها ثم ظهرت صورة لقصر الملك في مونتي سترو وصورة أخرى للاستعراض العظيم

وتتابعت بعد ذلك مجموعة غريبة متنوعة من الصور لا يجمعها جامع، ويتم الإعلان عنها أحياناً بأغرب التعابير «وجه الأمير، جليج البرويج، متزوجون في سويسر كل ذلك توالى لتكمل هذه المسحة الغريبة عن الأيام البعيدة الخوالي ثم أنهى الرجل عرضه بالكلمات التالية وهكذا أيتها تكم بعجائب الدنيا القديمة وغرائبها في أماكن أخرى بعيدة، فنكن مساهمكم سعيدة بسرى العجائب التي رأيتموها، لأن كل هذه الأمور حقيقية

وانتهى العرض، وأشرق وجه فكتوريا سعادة وقالت كان هذا حقاً رائعاً ما كنت لأصدق وجوده

وفيما كان أصحاب السيما المتفقة يتسمرون بمقعد بهفت فكتوريا عن المقعد الذي كان ريتشارد يجلس عليه وقد الأخير من أدى إلى خلاف توارد ريتشارد ووقوعه أرضاً تشكل محرج اصدرت فكتوريا دون أن تسمع بذلك تنحيص فرحها وقام ريتشارد بمكان الرجلين اللذين غادر بعد عبارات الوداع المعتادة وبعد أن عبر الطرفان عن اهتمام كل منهما بالآخر والدعوة بالتوفيق من الله لكل منهما، ثم عاد ريتشارد وفكتوريا إلى السيارة وانطلق السائق في الصحراء سألت فكتوريا: إلى أين يتجهان؟

إنهما يسافران في طول البلاد وعرضها لقد قابلتهما أكثر من مرة في الأردن وهما يتجهان الآن بين البحر الميت وعمان، وهما لأن ذاهبان إلى كربلاء دون شك، وهما يتجهان غير طرق فرعية لا تستخدم كثيراً بحيث يتجنبان عروضهما في نقاط التفتيش

ألا يقلهما أحد في سيارته في تلك الطرقات؟

ضحك ريتشارد وقال: قد لا يقبلون ذلك لقد عرضتُ مرةً على رجل عجوز أن أحمله بسيارتي، وكان يقطع الطريق بين البصرة وبغداد ماشياً سألته كم ستأخذ منه الرحلة برأيه فأجابني أنها ستستغرق نحو شهرين، فطلبت منه أن يصعد سيارتي ويكون في بغداد في وقت لاحق من ذلك اليوم، ولكنه شكرني ورفض العرض، فالوصول بعد شهرين سيناسبه أكثر إن توقف لا يعني شيئاً هنا، ويتجرد أن يقنع المرء بذلك فوراً بعد رفضاً غريباً بالأمر

- نعم! يوسعني تخيل ذلك

- إن العرب يجيدون في بعض عبرة والتحاجا على إنجاز الأمور

بسرعة أمرٌ يصعب فهمه كثيراً، كما أنهم يرون طريقة في الدخول مباشرة في الموضوع طريقة تفتقر معها بعض المهذبين والأدب إذ يبقى عندك دوماً أن تجلس وتبدأ بتقديم الملاحظات العامة بحوالي ساعة قبل ذلك!

سيكون وقت عربة إن قضاه في مكان في لندن فبذلك يهدر المرء الكثير من الوقت

- نعم، ولكن وقتاً يقودنا من جديد إلى نفس السؤال، ما هو الوقت؟ وما هو الهدر؟

أخذت فكتوريا تتأمل في هذه النقطة فيما بدا أن السيارة مستمرة في تقدمها في هذه المتاهة بأكبر قدر من الثقة قالت أخيراً أين هذا المكان؟

بل أشوذ؟ إنه بعيد في وسط الصحراء سوف نرى الزقورة بعد قليل، ولكن حتى ذلك الحين اتجهي إلى شمالك هناك حيث أشير

- هل هناك غيوم؟ لا يمكن أن تكون جبالاً

- بل هي جبال، جبال كردستان التي تغطيها الثلوج لا تستطيعين رؤيتها إلا عندما يكون الجو صافياً جداً

جاح فكتوريا شعور بالغ الروعة شيء بالحلم، وتمنت لو كان بوسعها أن تستمر في مثل هذه الرحلة إلى الأبد لو أنها فقط لم تكن تلك الكذبة تعيسة، التي تحول بفكرة المكاشفة الكريهة

التي تنتظره. ترى أي نوع من الرجال هو الدكتور باوسفوت جونز؟ طويل ذو لحية طويلة بيضاء وقطبية صارمة قاسية؟ ولكن لا بأس، مهما كانت درجة انزعاج الدكتور باوسفوت جونز فإنه استطاعت التخلص من كاترين والدكتور رالبون وانقض الزبون!

قال ريتشارد "ها قد وصلنا"، ثم أشار أمامه، فنظرت فكتوريا لترى شيئاً لم يبدُ لها إلا كتلة من الأمل البعيد. قالت بدور على بعد أميال كثيرة.

آه، لا! لم تبق إلا أميال قليلة الآن، وسترين.

وبالفعل تطورت الشامة بسرعة مذهلة لتصبح كتلة صغيرة في البداية، ثم تلة صغيرة، ثم أصبحت -أخيراً- تلاً ترابياً ضخماً مهيباً. وعلى أحد جوانب التل امتد بناء طويل من الآجر الطبي. قال ريتشارد "هذا مقر البعثة".

ثم تقدمت السيارة وهم يلوحون وسط نباح الكلاب، فيما اندفع الخدم بأثوابهم البيضاء نحيهم بوجوه بشوشة. وبعد تبادل التحيات قال ريتشارد الواضح أنهم لم يتوقعوا حضورك بهذه السرعة، ولكنهم سيُعِدّون لك سريرك، وسيهيئون لك ماء حاراً حتى الفور. أحسب أنك تودين الاستحمام والراحة؟ الدكتور باوسفوت جونز خرج إلى التل، وأن ذاهب إليه سوف يعني بك إبراهيم.

ثم مضى يعيد فيما لحقت هي بإبراهيم إلى البيت وهو يبتسم. بدا البيت مظلماً من الداخل في بداية الأمر لمن يدخل من الخارج حيث الشمس الساطعة. وعبر الأثاث عرفه معيشة فيها بعض

الصالونات الكبيرة والكراسي القديمة، ثم قادها إبراهيم حول باحة لتدخل غرفة صغيرة بيضاء لها نافذة صغيرة واحدة، وكان في الغرفة سرير وخزانة أدراج قديمة وطاولة عليها إبريق وزهرية ماء كبير وأمامها كرسي. ابتسم إبراهيم وأومأ لها برأسه. ثم أحضر لها إبريقاً ضخماً فيه ماء حار موحل المنظر ومشبع بعشبة الملبس، ثم عاد بابتسامة اعتذار حاملاً معه مرآة صغيرة علّقها بحرص في مسمار صدئ في الجدار.

كانت فكتوريا مبتهجة لفرصة الاستحمام التي وافتها. كانت قد بدأت تدرك الوهن مدى تعبها وإنهاكها ومقدار انسلاخ جسمها بالأتربة التي تلصقت به. وقالت لنفسها وهي تتقدم نحو المرآة: أحسبني سأبدو مخيفة تماماً.

ثم حدقت إلى صورتها المنعكسة للحظات لا تكاد تفهم شيئاً. هذه لم تكن هي. ليست هذه فكتوريا جونز!

ثم أدركت أخيراً بأن ملامحها الدقيقة الجميلة -رغم أنها ملامح فكتوريا جونز نفسها- إلا أن شعرها كان لون أشقر بلاتيني!

* * *

الفصل التاسع عشر

وجد ريتشارد الدكتور باوسموت جونز في موقع الحفريات بجنس المرعصاء قرب رئيس عماله وينر «بحدر» حذار مستخدماً منقاره صغيرة حيا الدكتور جونز وميله بأسلوب ودعي قائلاً مرحباً بصغيري ريتشارد، هل قد ظهرت بدن كتاب لدي فكرة بأنك ستعمل يوم الثلاثاء، لا أدري لماذا؟

واليوم هو الثلاثاء

قال الدكتور باوسموت دون اهتمام أهو حقاً الثلاثاء؟ تعال هنا وانظر هذا يرى بشأن هذا جدران سيبدو جداً تضهر وبحن لم نحفر بعد سوى ثلاثة أقدام يبدو لي أنه يوجد بعض آثار بطلاء هنا تعال وأعطني رأيك.. يبدو لي الأمر واعداً جداً

نظر ريتشارد إلى الحدق، واستمع الآثاريان لمدة ربع ساعة بحديث متخصص جداً، ثم قال ريتشارد بالمناسبة، لقد أحضرتُ فتاة

- آه، حقاً؟ فتاة من أي نوع؟

- تقول إنها ابنة أخيك

- ابنة أخي؟

حدق الدكتور باوسموت لبعيد بعقله من بطلانه في الحدران الغريب، ثم قال بارتباك وكأنه يُحتمل أن تكون له ابنة أخ قد نسي أمرها لا أظن أن لدي ابنة أخ

- فهمت أنها جاءت للعمل معك هنا

أشرق وجه الدكتور باوسموت وقال آه، بالطبع، هذا يعني أنها فيروبك

أظنها قالت فكتوريا

نعم، نعم، فكتوريا لقد كتب لي إيميلين عنها من كامبريدج فهمتُ أنها فتاة قديرة جداً عالمة بالأجناس لا أرى سبباً يدعو المرء لأن يصبح عالم أجناس، أترى أنت سبباً؟

لقد سمعتُ أن عالمة أجناس سافرت في طريقها إليك

ليس لديّ شيء يتطلب تخصصها حتى الآن، ولكنه ما زال في البداية طبعاً لقد فهمت أنها ستأتي قبل منتصف أسبوعين تقريباً، ولكني لم أقرأ رسالتها بإمعان، ثم أضعت الرسالة، ولذلك فإني لا أتذكر حقاً ما قالته ستصل روحي في الأسبوع القادم أو في الأسبوع الذي يليه ثُرى ماذا فعلتُ برسالتها؟ ولقد علمتُ أن صبيتها ستأتي معها، ولكن ربما فهمتُ الأمر كله خطأً بالطبع حسناً،

حسناً أظن أن بوسعنا أن نستفيد منها، فكثير من الفضائيات ستظهر معنا

- هل في تلك الفتاة أي شيء غريب؟

نظر الدكتور باوسفورت إليه وقال غريب؟ بأي معنى؟

أعني هل تعرضت لانهيار عصبي أو ما شابه ذلك؟

أذكر أن إيميرس فان بالفعل - إنها كانت تدرس بكل جد، قبل شهادة أو درجة أو شيء من هذا، ولكني لا أظنه قال شيئاً عن انهيار عصبي لماذا تسأل؟

لقد التقطتُها على جانب الطريق وهي تتجول هناك بمفردها تماماً وحدتها هناك عند ذلك التل الأثري الصغير الذي ذهبت إليه على بعد ميل قبل أن تترك الطريق العام

نعم، تذكرت أنكم أنني وجدت في ذلك التل مرة قطعة من حجر مورو من الغريب جداً العثور عليها في هذا البعد جنوباً

ولكن ريتشارد رفض الانجرار إلى موضوعات أثرية ومضى يواصل قائلاً لقد روت لي قصة أغرب من الخيال ذهبت إليها لتغسل شعرها فقام بعضهم بتحذيرها بالكوروفورم واختطافها وأخذها إلى منزلي وسجنها في بيت هناك، وإنها هربت في منتصف الليل هراء عجيب ما سمع امرؤ مثله

هز الدكتور باوسفورت جوبر رأسه حيره وقال لا يبدو ذلك محتملاً أبداً فالبلد هادئ جداً ولم يسبق له أن كان بمثل هذا الأمان.

- بالضبط يبدو واضحاً أنها اخترعت القصة كلها، ولهذا سألت إن كانت قد عانت من انهيار عصبي لا بد أنها من تلك الفتيات الخياليات وربما سببت لك الكثير من المتاعب

قال الدكتور باوسفورت متفائلاً لقد أعطيها سبعة وتستمر أين هي الآن؟

قال ريتشارد تركتها للحم ونصائح من أمرها" ثم تردد لحظة وقال إنها لا تحمل معها أية أمتعة أبداً

حقاً؟ هذا أمر يصبح فعلاً أتحسب أنها تتوقع مني إعارتها ملابسي؟

- سيتعين عليها تدبير أمرها كيف اتفق ريثما تذهب الشاحنة في الأسبوع القادم إنني لعجب ما الذي كانت بصدده وهي تتجول وحيدة وسط تلك المتاهة

قال الدكتور باوسفورت بعضوض الشفاه مدهشات هذه الأيام. يعهرن في كل مكان، وهو ما يشكل إزعاجاً عظيماً إذ ما كنت تريد بجوار أعمالك وربما خطر لك أن هذا المكان أبعد وأنأى من أن يرتاده الزوار، ولكنك ستدهش أن علمت كيف تظهر السيارات وتختفي هنا في الوقت الذي لا وقت لديك لخدمتهم يا إلهي، لقد توقف الرجال عن العمل لا بد أنه وقت الغداء من الأفضل أن نعود إلى البيت

* * *

وجدت فكتوريا بعد انتظار قدر أن الدكتور باوسفورت جوبر

ابعد ما يكون عن تحسسه كان رجلاً ضئيل الجسم ممتلئ الوجه أشيب شبه صلع وعينين لا تفكان ترمشان، وقد ادهشها جداً انه تقدم منها بيدين ممدودتين قائلاً: هلاّ، أهلاً بك فيك... أعني فكتوريا هذه مفاجأة بكل معنى الكلمة. لقد دخل في روعي أنك لن تأتي حتى الشهر القادم، ولكني سعيد برؤيتك. سعيد فعلاً. كيف حال إيمبرس؟ أرجو أنه لا يعاني من الربو كثيراً؟

استجمعت فكتوريا حواسها وملكاتها المشتتة وقالت بحذر إن الربو لم يكن يهدد السوء مؤخراً.

إنه شديد الحرص على نفسه كثيراً، وهي عقبة كبرى. وقد قلتُ له ذلك إن أولئك الأكاديميين الذين يقضون عمرهم الوقت في حجراتهم يشعرون كثيراً بصحتهم لكي يبقى المرء سليماً عليه أن لا يفكر بالأمر حسناً، أرجو أن يستمر هذا الشتاء وحتى في الأسبوع القادم أو الذي بعده. لقد كتب مريضه بعض الشيء جداً أن أعثر على رسائلها جداً بعد أخبرني ريتشارد أن أنعشك قد فقدت طريقها. كيف ستتدبرين أمرك؟ إذ لا تستطيع إرسال الشحنة حتى الأسبوع القادم.

- أظني سأتدبر أمري حتى ذلك الحين.

فهمهم الدكتور باوسفورت وقال: لا تستطيع أبداً وريتشارد ان يعيرك الكثير بالتأكيد. نفرشاة الأسنان لا توجد مشكلة، إذ يوجد أكثر من عشرة في محلات... وماذا بعد؟ بعض مساحيق التجميل، وبعض الجوارب والمناديل الاعتيادية. ولا يوجد الكثير غير ذلك.

قالت فكتوريا وهي تبتسم بسعادة: لا بأس بذلك.

نبههم الدكتور باوسفورت قائلاً: لا تر تتغاير بمتاعبك من خلالها اختصاصك. تظهر الآن بعد بعض التحذيرات الرائعة وكتبت من قطع الصخار ظهرت في الصناديق البعيدة، وربما اكتشفنا بعض العظام لاحقاً. ولكنا سنجد لك ما يشغلك بشكل ما. هل تستطيعين التصوير؟

قالت فكتوريا بحذر: أعرف شيئاً عنه، وأحست بالارتياح لتذكر شيء لديها خبرة عملية فيه بالفعل.

حسناً، جيد. أتستطيعين تخمين الأفلام؟ أن مختلف في هذا المجال ما زلت أستعمل الألواح. عرفه التخمين استخدمه ما فيه بعض الشيء، ولكن الشباب الذين اعتدتم على الأجهزة يفكرون عادة أنهم يجدون هذه الظروف البدائية مرعبة بعض

- لن أهتم لذلك.

بعد ذلك عمدت إلى مخازن البعثة فأخذت فرشاة ومعجوناً للأسنان وإسفنجة وبعض مساحيق التجميل.

كان ذهنها ما يزال مشوشاً حائراً وهي تحاول أن تفهم بانضباط حقيقة ما كان من الواضح أنهم أخطروها عنه أخرى تدعى جيب من المعارض أن تأتي لتنضم للبعثة، وهي عالمة بالأجناس ولم تكن فكتوريا تعلم حتى معنى علم الأجناس! لو أنها عثرت فقط على قاموس ما أو هناك، إذ ان عليها ان تبحث عن معنى ذلك العلم. لا يُفترض ان تصل البعثة الأخرى قبل مضي أسبوع على

Chassey

الأقل حتى يدن، من الآن وحتى مضي أسبوع، أو حتى دهاب تلك السيارة أو الشاحنة إلى بغداد، ستكون فكتوريا هي فيليا، وستقوم بدورها بأفضل ما تستطيع، رغم المصاعب! لم يساورها الخوف من الدكتور ماوسفوت جونر الذي بدا سعيداً عندما عاد في طرحه، ولكنها كانت تحس بالارتياح والقلق من ريتشارد بيكر، فقد كرهت تلك الطريقة المتأملة التي ينظر بها إليها وساورتها فكرة تقول إنه سرعان ما سيكتشف ادعاءاتها إن لم تكن في غاية الحذر وقد كان من حسن حظها أنها عملت لفترة قصيرة كسكرتيرة طابعة في معهد الآثار في لندن، ولديك فإن لديها حصيلة مناسبة من المفردات والجمل التي ستكون مفيدة الآن. ولكن ينبغي عليها أن تحذر أشد الحذر من ارتكاب خطأ حقيقي فاضح. ورأت أن من حسن الحظ أن الرجال يتمتعون دوماً بإحساس بالتفوق على النساء بحيث أن أي هفوة ترتكبها لن يظن الرجال هي أنها حدث غريب بقدر ما يرون فيها دليلاً على مدى سخف وغباء النساء جميعاً!

ستكون هذه الفترة فترة راحة أحست فكتوريا أنها في أمس الحاجة إليها، ذلك أن اجتماعها الدم سيكون مرهقاً لحواسها. لقد هرب من سجنها، ولكن سيكون من الصعب جداً عليهم تتبع ما حدث لها بعد ذلك. فسيارة ريتشارد لم تمر في صدلي، بحيث لا يمكن لأحد أن يحس بأنها الآن في بلاد أسود. نعم، سيرون أنها بحرت في الهواء، وربما استنجوا على الأرجح أنها ماتت تاهت في الصحراء وماتت جوعاً وإعياء.

حسناً، فليظنوا ذلك. وإن كان من المؤسف -طبعاً- أن يظن بدوارد ذلك أيضاً! ولكن لا بأس، عليه أن يتحمل ذلك. فهو لن

يضطر لتحمله طويلاً في كل الأحوال. إذ سيعود له فجأة وقد بعث من عالم الموتى... غير أنها بُعثت شقراء لا سمراء محمرة.

وقد أعادها ذلك إلى التفكير الثاني. بعد عودته إلى صبغ شعرها؟ راب فكتوريا أن تفعل ذلك دون ريب، ولكنها لم تستطع تحديد هذا السبب. لقد أحبها وتحاشه هذه سرعان ما ستظهر جذورها غريب جداً عندما يبدأ شعرها الأسود عند الجذور. ويكن فكتوريا قالت لنفسها: لا بأس، ألست حبيبة زرق؟ ومنذ أن رأى سبباً يدعي من السماح بذلك فيه قدر استطاعتي. لأسبوع واحد على الأقل. كانت فكرة كبيرة حقاً أن تكون مع بعثة أثرية وترى كيف تعمل مثل هذه الحفائر. لو أنها فقط تستطيع الابتعاد عن المارون وعدم فضح نفسها.

لم تجد دورها سهلاً بشكل عام. إذ يعني التعامل يحذر مع الأحاديث التي تتناول الناس والكتب المنشورة، وأصناف الفحم المختلفة، والأساليب المعمارية. ومن حسن الحظ أن الناس يغادرون دوماً شخصاً حسن الإصغاء. وقد كانت فكتوريا مستعدة لتسجيل بوحيتين، وقد بدأت وهي تحس طريقها بكل حذر من خلال مفردات المهنة وعباراتها بسهولة كبيرة.

وعندما كانت تجد نفسها بمفردها في حجرتها كانت تمرن نفسها بشكل محموم، وكانت هذه مكنة أثرية جيدة ساعدت فكتوريا في تعلم شيء عن الموضوع بسرعة. وعلى غير توقع منها، وجدت فكتوريا نفسها بعد أسبوع تتحدث بها بانسيابي صاحبة. ثم تخرج إلى موضع الحفر لتساعد بيشر في عمل فتتوبه.

وتحاول بجميع وسائل فتح الصدر المكسور، ويرفع الرجال وهم يعملون، ويعجب بمقدار خبرة وحذر المسؤولين عن استخراج الآثار، وتستمع بأغاني وضحكات بعض عمال الدير يركضون لتوزيع أقفتهم من التراب في مكبّ الأتربة. وقد أتعب تغيير الفترات التاريخية، والمستويات المختلفة التي يجري بها الحفر، وتعرف على ما تم من عمل في الموسم الماضي. كان الأمر الوحيد الذي يحشه هو ظهور مدافن أثناء الحفر، إذ لم يستطع - من كل ما مرانه أن تكوّن فكرة عما يُنتظر منها فعله كعالمة أحياء متمرسة! وكانت فكتوريا نفسها، قد ما ظهرت بديه عظم أو عود فسيتعين على الوقوع فريسة لزكام شديد. كلا، بل نوبة آلام شديدة في تكبد وألم مزاجي!

ولكن لم تظهر أية قبور، بل ظهرت -بدل ذلك- جدران أحد القصور ببطء. وقد اقتنت فكتوريا أنه لم تُتح لها فرصة إظهار أية مواهب أو مهارة خاصة. ولكن ريتشارد بيكر هل يغفر إليها بشيء من التساؤل أحياناً، وكانت تجلس بعيداً المكتوم، ولكن طريقة تعامله جعلت وجوده مريحة، وقد أُعجب فعلاً بحماسها. فإن لها يوم بعد لأمر جديد عليك تماماً أن تخرجي من بكتير. أتذكر كم كنت متعجلاً في أول موسم حفرت به

منذ متى كان ذلك؟

ابتسم وقال: منذ وقت طويل. منذ خمسة عشر عاماً تقريباً

- لا بد أنك تعرف هذا البلد جيداً

- لم يقتصر عملي على هذا البلد وحده. سوريا وإيران أيضاً

- إنك تتكلم العربية بشكل ممتاز. أليس كذلك؟ لو أتيحت لك تماماً عربياً فهل تستطيع إفهامهم بأنك عربي؟

هز رأسه نفياً وقال: آه، لا.. هذا يحتاج بجهد كبير. وإني أشك في أن بكتيرياً قد استطاع أبداً إفهام العرب بأنه عربي. أعني لمجرد محاولته

وبورس؟

- لا أحسب أن لورنس استطاع إفهامهم أبداً بأنه عربي. كلا، رجل الوحيد الذي أعرفه ولم يكن بالإمكان تمييزه عن أهل البلد هو صاحبي لي وُلد عملياً في هذه المناطق. كان والده عملاً في كاشغار وفي أماكن بالقرب حتى، وكان يتحدث كل اللهجات المحلية منذ طفولته، وأظنه حافظ عليها لاحقاً

- وماذا حدث له؟

- لم أره منذ أن تركنا المدرسة. لقد كنا في مدرسة واحدة، وقد عندما أن تسميه الصغير، لأنه كان يستطيع التجوّل هناك تماماً وكأنه في بغداد. لا أدري ماذا يفعل الآن. مع أن يوسفي أن أخمّن تخميناً لا يبعد كثيراً عن الصواب

ألم تره أبداً بعد المدرسة؟

العربي التي صادفته بعد أيام فقط. وكان ذلك في البصرة كان مرّ عربة بمجمعه

- غريباً؟

نعم، فأنا لم أميزه، إذ كان يرتدي ربّ غريباً، كوفيه وقفطان مقلماً وسترة عسكرية قديمة، وكان يحمل سبحه من مسابح الكهرمان تلك التي يحملونها أحياناً، وكان يطقطق حباتها بين أصابعه بشكل يوحي بالتحدي، إلا أنه كان يستخدم في الواقع شيفره عسكريه بتلك الأصوات، شيفرة مورس. وكان بتلك الطقطقة يبعث برسالة في أن

وما هي قالت الرسالة؟

ذكر فيها اسمي أو بالأحرى لقبي أيام المدرسة، ولقبه، وبعدها بداة للوقوف بجانبه قائلاً إنه يتوقع مشكلات

وهل حدثت مشكلات؟

- نعم، فحينما نهض ليخرج من الباب قام رجل عادي يوحي شكله بأنه تاجر سجون وأخرج مسدساً وضربت أن يده وهرب كارمايكل

- كارمايكل؟!

التفت اليها بسرعه لشيرة التي ذكرت بها الاسم وقال كان هذا اسمه الحقيقي لماذا هل تعرفينه؟

فكرت فكتوريا هنيه نفسها "كم سيبدو الأمر غريباً إن قلت له إن الرجل مات في سريري" ولكنها قالت بعد نعم، كنت أعرفه

- كنتِ تعرفينه؟ لماذا هل

- نعم! لقد مات

متى مات؟

ماتت في بغداد، في فندق بير، ثم أضاف بسرعة ولكن تم التكتم على الأمر .. لا أحد يعرف بذلك

أومأ برأسه ببطء وقال لهجت كان منخرطاً في هذا النوع من النشاط ولكنك

نظر إليها ثم قال كيف عرفت بذلك؟

تورطتُ في الأمر صدقه

رماها بنظرة طويلة متأملة، سألته فجأة أكان تلقيبك في المدرسة هو الشيطان؟

بدا مدهوشاً وقال الشيطان؟ لا، كانوا يسمونني بومة لأني كنت أضع نظارات لأنه دوماً

- ألا تعرف أحداً يسمونه الشيطان في البصرة؟

هز ريتشارد رأسه بالنفي وهو يراقبها من كثب كانت تفكر مقطبة الجبين، ثم ما لبثت أن قالت: لهذا تخبرني بما حدث في البصرة بالضبط

لقد أخبرتك

- لا، أعني لماذا كنت أنت عندما حدث كل ذلك؟

- آه، فهمت. كان ذلك في غرفة الانتظار في القنصلية. كنت أنتظر رؤية كلايتون، القنصل.

- ومن كان هناك غير هذين الاثنين - كارمايكل وذلك التاجر المنجول؟ هل كان هناك غيرهما؟

- كان ثمة اثنان آخران، رجل اسمه سليم فرنسي أو سوري، وهجور أفغاني إيراني.

- والساحر أخرج مسدساً فأطلقه، فخرج كارمايكل. كيف حدث؟

استدار - بداية - باتجاه مكتب القنصل، وهو عند النهاية الأخرى من الممر وخلفه حديقة.

فاطمأنه قائلة: عرف؛ لقد أمضيتُ هناك بضعة أيام. والحقيقة أن ذلك كان بعد مغادرتك مباشرة.

قال: "أكان ذلك حقاً؟"، ثم عاد ليراقبها عن كثب. ولكن فكتوريا لم تكن مسلية بدرجة كافية لتجعل الممر الطويل في القنصلية، ولكن بابٍ مفتوح عند نهايته، مفتوح على أشجار خضراء وشمس مشرقة.

قال ريتشارد: وكما كنت أقول، فقد اتجه كارمايكل في ذلك الاتجاه في البداية، ثم استدار بعدها واندفع في الاتجاه الآخر إلى الشارع. وكان ذلك آخر ما رأيته منه.

وعاد هو التاجر المنجول؟

رفع ريتشارد كتفيه عجزاً وقال: "لقد فهمتُ أنه روى قصة مهمة حول رجل هاجمه وسطا على ممتلكاته في البيت السابق، متعلقاً بهذا تحديداً. السارق هو ذلك العربي في القنصلية، وقد أسمع المزيد عن الأمر لأنني سافرت إلى الكويت".

من كان يقيم في القنصلية في ذلك الوقت؟

- رجل يدعى كروسبي. من الصعب في النفط، ولا أحد غيره آه، نعم، أظن أن شخصاً آخر كان هناك، وقد أتى من بغداد لتحقيق كتب أو شيء من هذا القبيل، ولكني لم أقابله ولا أذكر اسمه.

رددت فكتوريا مع نفسها اسم كروسبي، وتذكرت الكابتن كروسبي الجسيم عصبي المزاج وحديث المقطع. كان شخصاً عدوانياً تماماً، رجلاً متسلطاً يملي بديهيات الكثير من البراعة وسعة الحيلة. وكان كروسبي قد عاد إلى بغداد في المدينة التي جاء فيها كارمايكل إلى حتفه. لم يكن ممكناً أن يكون كارمايكل قد عاد بدراجته فجأة في ذلك الممر في القنصلية واتجه إلى الشارع بدلاً من الدخول على القنصل لأنه رأى كروسبي في الطرف الآخر من الممر؟

كانت مستغرقة في التفكير بتفسير ذلك، وقد جذبت مع شيء من الشعور بالذنب إلى وقت تصرفها قرأت ريتشارد بريد فيها بإجمال سألها فالاً: "لماذا تريدين معرفة كل ذلك؟"

- إنني مهتمة بالأمر فقط.

هل من أسئلة أخرى؟

- هل تعرف أحداً باسم لوفارج؟

لا، لا يمكنني تذكر اسم كهذا. أهو رجل أم امرأة؟

لا أدري

كانت تتساءل عن كروسي، كروسي؟ الشيطان؟

* * *

في تلك الليلة، عندما تمت فكتوريا بالرجلين بقيه سعيدة وعقب إلى فراشها، قال ريشارد للدكتور باوسفوت جونز: إني أتساءل إن كان بوسعي إلقاء نظرة على تلك الرسالة التي جاءتك من إيميرس. أرغب في أن أرى ما قاله بالضبط عن هذه الفتاة.

- بالطبع يا صديقي العزيز، بالطبع. إنها موجودة في مكان ما هنا. أذكر أنني كتبتُ بعض الملاحظات على ظهرها. لقد أسهب في مدح ميرويك إلى درجة تحير الذاكرة. قال إنها شديدة الحرص تبدو لي فتاة رائعة، رائعة تماماً. كما أنها كانت شجاعة جداً. لم تفعل صنعاً كبيراً بسبب فقدان ساعتها. لقد كان من شأن أغلب الضباط أن يطلبوا تعويضاً دون إبطاء لتعذر شراء ملابس جديدة. إنها فتاة بسيطة غير معقدة. بالمناسبة، كيف حدث أن فقدت أمتعتها؟

قال ريشارد بحياد بارد. لم تحذرها بالكلوروفورم، واختطافها، وسجنها في بيت محلي.

- نعم، يا إلهي! لقد قلت لي ذلك من قبل. تذكرتُ الآن، وهي قصة غير عادية. وهي تذكرني. بماذا تذكرني؟ آه، نعم،

تذكرني بالبرابيب كاسع. لعلك تذكر كيف خرجت عن بقية مسحيه التصديق بعد أن قضيت لمدة أسبوعين كان في لأدته التي ساعتها تحيط مثير جداً. ب كانت هي القصة نفسها التي أتذكر فيها. وقد كانت فتاة ذميمة جداً بحيث لم يبدُ من المرجح وجود رجل في بعثة أما فكتوريا الصغيرة. و فيرويك. لا أستطيع بعد تذكر اسمها بشكل صحيح. ولها فتاة جميلة جداً، ويُحتمل كثيراً أن يكون في قضيتها رجل ما.

قال ريشارد ببرود. كانت ستسر أجمل لو لم يضيع شعرها.

- وهل تضيعه؟ يا لاتساع معرفتك بهذه المسائل.

- وماذا بشأن رسالة إيميرس يا سيدي؟

- طبعاً، طبعاً. لا أدري أين وضعتها. ولكني ابحث حيث شئت، فأنا حريص على العثور عليها على أية حال، بسبب تلك الملاحظات التي كتبتها على ظهرها، وبسبب رغبة سمعها عليها تلك السيدة الدائرية.

* * *

WWW.LILAS.COM
CHASSEY

الفصل العشرون

في عصر اليوم التالي اطلق الدكتور باوسفورت جرس إنذار من عنده يناديني إلى مختبره صوتٌ صفيرٌ قصيرٌ تقريباً، وسرعان ما حدد موقع السيارة التي كانت تدور الصفيرة باتجاه التل

قال محمد رويد ويأتون في أسوأ الأوقات أيضاً! أريد الإشراف على معالجة بعض العظام التي تشبه الورده و سي عثر عليها في الزاوية الشمالية الشرقية، إذ يجب معالجتها بالسيليكون لا بد أنهم بعض اليهود الذين لم يمر بعداد لشعب بكثير من التراث الاجتماعية، ويتوقعون أن يريهم موقع الحفريات كله

قال ريتشارد، هنا تكمن الفائدة من فكتوريا أنصحني يا فكتوريا؟ عبيث أن تشرحي بعض جوله لهم في الموقع

أجاب فكتوريا وبعد كل المعلومات التي أعدتها لهم معلوطة كلها؟ فأنا حقاً قليلة الخبرة كما تعلم

قال ريتشارد ترحاً بل احسبك تقدمين بشكل رائع في الحقيقة بعد الملاحظات التي بدينها هذا الصباح عن الأحجار المحدب بشكل

يعد، أن يحسبها بعد مشوره من كتاب «ديبوبصيره»

احمر وجه فكتوريا قليلاً وقررت أن تتعمد -عند انقاء ثقتها الموضوعية- بي بعض التغيير في بعض الذي قرأتها بعد كتاب جيرد ريتشارد المستعمله من خلف نظارته بركيها حيناً قال بامتعلام: سأبدل ما في وسعي

قال ريتشارد إننا ندفع إليك بكل المهمات بصعبه

احمرت فكتوريا لقوله والحقيقة أن أشغلها خلال الأيام الخمسة الماضية قد أدهشها كثيراً، فقد حفضت أغلاماً باستخدام مرشحه غير الضوء وبحب ضوء مشكاة بدائية ركبه البوب فيها شمعه بعطي دوء في أحرج الأوقات، وكانت طريقه عرفه المخيمين المقيمة عبارة عن عشة كرتون كبيرة، وكان عليها -وهي تعمل- أن تقعي أو تجثو على ركبتيها أما غرفة التحنيص نفسها فقد كانت موضع تندر ريتشارد وسخريته، وقد أكد لها الدكتور باوسفورت أن بانتظارها المزيد من المفاجآت السارة القادمة

لقد أثارت تلعف المحار المكسور في البدايه سخريتها ودهشتها رغم حرصها على عدم اظهار ذلك، إذ ما الفائدة من كل هذه بقطع الخشنه من الحجر؟ وبكل هدوء وجدت بعد ذلك الأجزاء المفردة التي تجمع هذه الشظايا، وتصنفها بعضها بعض وتدعمها فوق صناديق من الرمل بدأت عندها بهم بعد بقعه بعضها بعض بأشكال و لأنماط الأثريه، وتصبح خبراً الى ان حاولت أن تتخيل لماذا وكيف كانت تلك الأواني تستخدم في بعض ثلاثة آلاف عام وفي المنطقه الصغيره التي تم العثور فيها على بيوت صغيره

بسيطة لأشخاص عاديين قامت فكتوريا بتحويل تلك البيوت كما كانت في الأساس، بالناس الذين عاشوا فيها، بحاجاتهم وممتلكاتهم الصغيرة وأحلامهم، وبآمالهم ومخاوفهم. وبما أن فكتوريا كانت ذات خيال خصب، فقد كانت الصور تهطل في مخيلتها بسهولة. وفي ذلك اليوم الذي عثرت فيه على إناء فخاري صغير مخبوء في أحد الجدران وجد فيه أكثر من ستة أقراط ذهبية انتصب فكتوريا أيضاً انفعال، وقال ريتشارد -وهو يبتسم- إن ذلك ربما كان مهراً لابنة صاحب البيت.

صحون مليئة بالحنطة، أقراط ذهبية ثم ادخارها لتكون مهراً، إبرٌ من العظم، مطاحن يدوية وأجران، تماثيل صغيرة وتمائم. كل ما يمثل الحياة اليومية، ومخاوف وآمال مجتمع من الناس بسطاء العاديين. قالت فكتوريا لريتشارد: هذا أجده ساحراً جداً، فقد كنت أحسب دوماً أن الآثار لا بد أن تكون قصوراً ومقابر ملكية.

ثم أضافت بابتسامة غريبة صغيرة: ملوك بابل! ولكن ما أحبه كثيراً في هذا الأمر كله هو أنه يحدثك عن أناس عاديين بسطاء أناس مثلي.

كانت تفكر في هذه الأمور وهي تراقب الراقدين بصعداب جانب التل، وذهب ريتشارد لاستقبالهم وتبعه فكتوريا. كانا رجلين فرنسيين مهتمين بالآثار، وكانا يقومان بجولة تشمل سوريا والعراق. وبعد تحيات المجاملة أعدتهم فكتوريا في جولة على موقع الحفريات وردت عليهما بطريقة بيانية- طبيعة ما يجري من عمل. ولكن بما أنها كانت فكتوريا التي لا تستطيع مقاومة طبعها،

قد أضاف ثرثرات مختلفة من عندها. غيرة ذلك لنفسها ضرورة جعل الأمر أكثر إثارة.

لاحظت أن بول أحد الرجلين كان متجهماً بعض الشيء، وكان يحمر بعينه جراً دون كبير اهتمام، ثم ما لبثت أن طلب إلى بعدره فكتوريا لأنه يريد العودة بالسيارة، إذ أن لا يشعر بأنه على ما يرام منذ صباح ذلك اليوم. والشمس مزيد حالته سوءاً.

ثم غادر باتجاه بيت البعثة، وشرح بها الأخر بصوت منخفض أن علة صاحبه تكمن في معدته مع الأسف، وأن طعام بغداد لم يناسبه كما يبدو، ولذلك ما كان عليه أن يخرج في هذه الرحلة اليوم.

انتهت الجولة وبقي الفرنسي يتحدث لفكتوريا، واخيراً تودي الرجل، واقترح الدكتور باوسفوت جونز -بكل إصرار الضيافة الأصيلة- ضرورة بقاء الزائرين لتناول الشاي قبل المغادرة. ولكن الفرنسي عذر عن ذلك بدعوى أن عليهما ان لا يتأخرا في الرحيل حتى يحل الظلام ولأن عليهما أن يجدا طريقهما بدقة. وقد قال ريتشارد بكل فور أن ذلك صحيح تماماً. وهكذا ما استدعاه الرجل بعربته من البيت وانطلقت السيارة بأقصى سرعة.

ذهب الدكتور باوسفوت جونز قائلاً: أحسب أن هذه لا بد أن تكون البداية، وسيتابع هذا الزوار الآن في كل يوم. ثم أخذ قطعة كبيرة من الخبز العربي وذهب يغرس الخوخ بكفه.

ذهب ريتشارد إلى غرفته بعد تناول الشاي، فقد كانت لديه

وسائل يريد الإجابة عليها وأخرى يريد كتابتها استعداداً لمقابلات أخرى بعد في اليوم التالي وفجأة تعب جيمس فرغم أنه لم يكن امرأ شديد التهذيب فيما يخص المظاهر الخارجية، إلا أن به بعض تهذيب ملابسه وأوراقه عزيزة لم تكن تتغير أبداً. وقد لاحظ لأن أن كل درج من أدراج مكتبه قد عبث به، وكان متأكداً أن ذلك لم يكن من فعل الخدم لا بد إذن أنه ذلك الزائر الغريب الذي انتظر عدداً ليعود إلى البيت وفتش كل أغراضه بدقة. تأكد من عدم فقدان شيء من أغراضه، كما لم يتم لمس ماله في الصندوق الذي كان يختبئ فيه. ثم اتجهم وجهه وهو يفكر فيما ينطوي عليه الأمر

ذهب إلى غرفة الآثار ونظر في الدرج الذي يحتوي على الأختام وطبعاتها، ثم صدرت منه ابتسامة أقرب إلى التكشيرة. لقد لم يتم لمس شيء أو أخذه. ذهب إلى غرفة المعيشة، وكان الدكتور واتسون جالساً في الباحة مع رئيس العمال، ولم تكن هناك إلا فكتوريا عازفة في كتاب تقرؤه.

قال ريتشارد دون مقدمات: لقد فتش شخصٌ ما غرفتي.

رفعت فكتوريا بصرها مدهوشة وقالت: لماذا؟ ومن فعلها؟

- ألم تكوني أنت؟

قالت فكتوريا بسخط: أنا؟ بالطبع لا. ولماذا تعتقد أني عبثت بأغراضك؟

نظر إليها بإمعان ثم قال: لا بد أنه ذلك الغريب الذي أدعى المرض ورجاء إلى البيت

هل سرق شيئاً؟

لا، لم يفقد شيء

ولكن يبدو أنه فتش كل أغراضي مرتين

قاطعها ريتشارد قائلاً: حسناً، أنت أيضاً كنت تعرفين الجواب

- أنا؟

ربما أنك عرفت بأن الأمور غريبة قد حدثت لك

- آه، هذا ما تعنيه. نعم

بدا وكأنها قد جمدت قليلاً، ثم مشت ببطء. ولكني لا أرى سبباً يجعلهم يفتشون غرفتك أنت. فليس لك علاقة بالأمر

بماذا؟

ثم توجه فكتوريا بصرها نحو الحقائب التي غادرته في أكسفورد، ثم قالت أخيراً: إنني آسفة، ماذا قلت؟ لم أكن منتبهة

لم يكرر ريتشارد سؤاله، بل سألها بدل ذلك: ماذا تقرئين؟

ليس لدى المرء خيارات كثيرة لقراءة قصص حقيقية هي لا توجد إلا «قصة مدينتين» و«الكتاب» و«الهوى» وربما عدد من اقترا «قصة مدينتين»

- ألم تقرئيها من قبل؟

أبداً، كنت دوماً أرى أن من شأن تشارلز ديكنز أن يكون مملاً

يا لهذه الفكرة!

ولكني أجدها ممتعة جداً

- إلى أين وصلت فيها؟

ثم نظر من فوق كتفها وقرأ من الرواية ثم هدأت المرأة الحائكة واحدة،

إني أراها امرأة مخيفة جداً

السيدة دوفرج؟ نعم، شخصية متقنة مع أني كنت أشك دوماً في قدرة المرء على الاحتفاظ بسجل للأسماء عن طريق الحياكة ولكني لست حائكاً بالطبع لأجزم بذلك

قالت فكتوريا وهي تفكر في المسألة أعلى ذلك ممكن تقوم بغرزة عادية وغرزة معقودة، ثم تقوم بغرزات متنوعة، ثم غرزة خاطئة بين هذين والأخرى أو بعمل غرزات معينة، وكل غرزة تقوم مقام حرف أو اسم. نعم، يمكن القيام بذلك وهي عملية تحويه بالطبع، بحيث يبدو الأمر وكأن الحائكة لا تنفي الحياكة وتركب أعطاء فيها

فجأة، وبسماع هذي كاسماع البوق، تمثل لذهنها المرأة في وقت واحد وكان لها تأثير الانفجار عليها اسم صورة ذهنية بذكرتها الرجل يرتدي لأحمر الخشن الذي جلب بدوياً، وقد

طبق عينيه بيديه الوضاح هذي سارعت لالتقاطه لاحقاً ودسته في حد الأدراج ومع ذلك الأسم دوفرج بين لوفرج بين دوفرج، السيدة دوفرج!

عادت إلى نفسها على صوت ريتشارد وهو يقول لها بلطف أتوجد مشكلة؟

لا لا، لقد كنت أفكر فقط في شيء ما

فهمت

فكرت فكتوريا في أنهم سيذهبون جميعاً إلى بغداد غداً. غداً ستنهي فترة استراحتها فلقد مر أكثر من أسبوع تمتعت به بالأمن والسلام والوقت الذي ستعيد به رباطة جأشها وقد استمتعت بهذا الوقت استمتعت به كثيراً وخاطبت نفسها قائلة ربما كنتُ جبانة، نعم ربما كان ذلك هو السبب كانت قد تحدثت عن المغامرات بمرح، ولكنها لم تحبها كثيراً عندما جاءها فرصة ذلك الصراع ضد الكبرياء والغرور، وذلك الاختبار البطولي، ولقد خانت كثيراً في تلك الغرفة العلوية عندما قال ذلك العربي، البكرة،

وها هي الآن مضطرة للعودة إلى ذلك كله؛ لأنها كانت مرغمة على تسديد دكين وتتخلص منه أخيراً، ولا بد لها أن تفعل ما يبرر ذلك الأجر وتظهر بمظهر شجاع! بل ربما كان عليها أن تعود حتى إلى «عصى الزنوج» وتعتدي فيلاً بدكرت الدكور والنيوب وتعريه الغاضبة البائسة لقد حذرها

ولكن ربما لا يكون لزاماً عليها أن تعود إلى هناك وربما قال

سيد داكين إن من الأفضل أن لا تعود، خاصة وقد عرفوا الآن بأمرها ولكن سيتعين عليها العودة إلى مكان سكنها لأحد اسبابين، لأن الوشاح الأحمر كان منفى في حقيبتها دون اهتمام كانت قد حشرت كل شيء في الحقائب عندما غادرت الى البصرة، وبمجرد أن سلّم ذلك الوشاح الى السيد داكين ربما ينتهي مهمتها، وربما قال لها كما يقولون في الأفلام "أحسنت عمل جيد يا فكتوريا"

رفعت بصرها نحو ريتشارد براقبها، ثم قال، بالمناسبة، هل ستكونين قادرة على الحصول على جواز سفرك غداً؟

- جواز سفري؟

فكرت فكتوريا في الموضوع. كان أمراً يلائم طبيعتها أنها لم تحدد بعد خطة عملها فيما يخص وجودها ضمن البعثة الأثرية وبما أن فيرونيك الحقيقية (أو فيبيسيا) سوف تصل من بكلدر، فربما كان الضروري الانسحاب بهدوء، ولكن المشكلة هي أنها لم تكن قد طرحت نفسها امامها بعد هي إن كانت ستكتفي بالاختفاء ببساطة أو ستعترف بمكرها وتبدي الندم المطلوب، أم ستقرر أمراً آخر كانت فكتوريا تميل دوماً إلى تبني موقف خلاصته أن أمراً ما سيتسبب

قالت كمن يكسب الوقت "حسناً، لست متأكدة من ذلك"

شرح لها قائلاً إنه ضروري، بشرطة هذه المحافظة، فهم يسجلون رقمه واسمك وعملك وعلامات الغارقة وغير ذلك من تلك التفصيلات، ولكن بما أنها لا تحمل الجواز فإني أرى أن علينا

يسأل اسمك وأوصافك بهم وبالمناسبة، ما هو اسم عائلتك؟ لقد كنت أناديك فكتوريا دوماً

استجمعت فكتوريا قواها بشجاعة وقالت "هيا، لا تتذاك، أنت تعرف اسم عائلتي كما أعرفه أنا"

- هذا ليس صحيحاً تماماً

انثنت ابتسامة تلاعبي لشفتي ريتشارد شيئاً من القسوة، ثم قال أنا أعرف اسم عائلتك بالفعل، ولكني أظن أنك أنت التي لا تعرفينه

بلى أعرف اسمي بالطبع

إذن سأتحداك أن تقوله لي الآن

أصبح صوته فجأة قاسياً لاذعاً، وقال لا فائدة من الكذب، لقد انتهت اللعبة، وقد كنت ذكية جداً فيها، فقد درست دورك جيداً وأديت ملاحظات توحي بالثقافة والعلم ولكن هذا النوع من الاحتيال لا يمكن الاستمرار فيه طويلاً الوقت الذي سببتُ لك متاعب، ووقعت فيها لقد اكتشفتُ لك مبكراً على أنها من كذب، وكانت هوية بحتاً، ولكنك تقبلتها

توقف قليلاً ثم أضاف أنت لست فيبيسيا سافيل فمن أنت؟

- لقد قلتُ لك من أنا في أول مرة التقينا بها أنا فكتوريا جوردن

- ابنة أخ الدكتور بارنستون جوردن؟

لست ابنة أخيه.. ولكن اسم عائلتي جونز بالعمل

- لقد قلت لي أشياء كثيرة أخرى.

- نعم، لقد قلت وكانت كلها صحيحة! ولكني رأيت أنك لم تصدقني. وقد أثار ذلك جنوني، فرغم أني أكذب أحياناً (بل في أغلب الأحيان في الواقع) إلا أن ما أخبرتك به لم يكن كذباً. وهكذا، ولكي أجعل منهي مقنعة أكثر قلت لك إن اسمي هو باوسفوت جونز. ولقد قلت ذلك من قبل في هذا البلد وكان وقعه ممتازاً. من أين لي أن أعرف أنك قادماً إلى هذا المكان؟

- لا بد أنها كانت صدمة كبيرة لك عندما علمت بذلك، ولكنك تعقب الأمر بشكل رائع. سيرود كبيرود الثلج

ليس من الداخل، فقد كنت أرتجف بشدة. ولكني رأيت أن أنتظر لأشرح الأمر. في كل الأحوال سأكون في مأمن من

في مأمن؟

فكر في الكلمة لحظة ثم قال: اسمعني يا هكتور، أكنت صحيحاً تلك القصة الخرافية السخيفة التي رويتها حول تخديرك بالكلوروفورم؟

بالطبع كانت صحيحة! ألا يمكنك أن ترى، لو أردت تلفيق قصة بديلة أكثر إقناعاً بكثير، ولفقتها بشكل أفضل أيضاً!

بعد ارتياح معرفتي بك قليلاً لأن يمكني أن أصدق ذلك

منك. ولكن يسعني أن أعرفي أن القصة كانت تبدو مشوهة جداً لأول وهلة

- ولكنك مستعد لأن ترها ممكنة الآن. لماذا؟

قال ريتشارد ببطء: لأنك إن كنت متورطة -كما تقولين- بحادث مثل كارمايكل.. فربما كانت القصة صحيحة

- من هناك بدأ الأمر كله

- من الأفضل أن تخبريني بالقصة كلها

نظرت فكتوريا إليه بإمعان ثم قالت: اسمعني أولاً إن كان بوسعي أن أثق بك

بسبب من بعض الاحوال رأت على عقلها من تدريبي شكاً قوية كانت تراودني بأنك ربما تعمل لهذا السبب مستعداً للحصول على معلومات مني أن؟ وربما كان هذا فعلاً ما تعتقده

أتعني أنك تعرف شيئاً عن كارمايكل يودون هم لو يعرفونه؟

- من هم بالضبط هؤلاء الـ هم؟

قالت: سأضطر لإخبارك كل شيء، وقد لا توجد لي طريقة أخرى. وإن كنت واحداً منهم فأنت تعرف ذلك أصلاً، ولذلك لا يهم

ثم أخبرته بما حدث بينه وبين كارمايكل، وبمقابلتها بداكين،

ورحتها إلى البصرة، ووظيفتها في «عصر بريتور» والدكتور الثوب وتحذيره لها، والخاتمة التي جرت بها، تما في ذلك لعر شعرها المصنوع لأمراء الوحدان الذين استبعدهم بنفسها هي الوشاح الأحمر وقدام دوفارج

توقف ريتشارد عند نقطة الدكتور الثوب قائلاً الدكتور الثوب؟ أتعني أنه متورط في هذا الأمر أو يقف خلفه؟ ولكن يا هوبرتي إنه رجل مرموق بالغ الأهمية إنه معروف في كل أنحاء العالم وتحصل عليه التبرعات من كل مكان لدعم مشروعاته

سألته فكتوريا ألبس محتملاً بكون كلّ ذلك الذي ذكرته عن يحيح في أمر كهذا ؟

قال ريتشارد متأملاً لقد كنتُ أعتبره دوماً حميراً متحمساً

- وهذا -أيضاً- خطأ وتمويه ممتاز

- نعم نعم، أظنه كذلك ومَن هذا لودارج الذي سألتني عنه؟

- مجرد اسم آخر، ويوجد اسم آخر أيضاً آنا شيل

آنا شيل؟ لا، لم أسمع بها أبداً

- إنها مهمة، ولكني لا أعلم بالضبط كيف ولماذا؟ الأمر كله محتلط معقد

- أخبريني فقط مرة أخرى، من هو الرجل الذي وضعك على هذا الطريق كله؟

- إدوارد آه، تعني السيد داكين أظنه يعمل في قطع النفط

أهو رجل متعب محني الظهر يبدو فارعاً؟

- نعم ولكنه ليس حقاً كذلك .. أعني ليس فارعاً

استند ريتشارد إلى الخلف في جلسته ونظر إليها وقال هل ما أراه حقيقي؟ هل أنت حقيقية؟ وهل هذه البقعة الملاحظة أم المغامرة الشريرة؟

قالت فكتوريا بأسلوب عملي النقطة الأساسية هي هذه ستقول للدكتور باوستوت جونز هي؟

- لا شيء، لن يكون ذلك ضرورياً

* * *

الفصل الحادي والعشرون

انطلق القطار من بغداد مبكراً. وكانت معلومات فكتوريا محدودة عن الشرق الأوسط، بل إنها أحست بغصة في حلقها وهي تلتفت إلى مقر البعثة، ولكن ما سبب الارتجاج العنيف المحسوس بالشاحنة من عدم ارتياح وألم ساعد في صرف ذهنها عن كل ما عدا هذا الألم المفاجئ. بدا لها غريباً أن تستقل سيارة على هذا الطريق مرة أخرى، وهي تمر بقوافل الحمير والشاحنات التي يعبرون الزاب، وقد انقضى ما يقرب من ثلاث ساعات قبل أن يصلوا إلى ضواحي بغداد. أنزلتهم الشاحنة في فندق بور، ودهشت وهم الصباح والسائق بالقيام بشراء الحاجات الضرورية، ووجد الدكتور ماوسفوت جونز وريشارد بيكر رومة ضخمة من الرسائل بانتظارهم في الفندق.

ثم ظهر ماركوس ببيته الغربة ووجهه المستدير فحيا فكتوريا بكل مرحه ووده المعهود قائلاً: آه، لقد مضى وقت طويل منذ أن رأيتك آخر مرة، فأنت لا تأتين إلى منزلي أبداً، لا تأتين لأسبوع أو أسبوعين؟ سوف تتغدين هنا اليوم، وسيكون لك كل ما تريدين من لحوم ودجاج.

بدا واضحاً أن أحداً في فندق بور لم يلاحظ مسألة اختطاف

فكتوريا، وربما كان بدوارد قد نجح في إبلاغ الشرطة سلفاً عن تصيحه من السيد داكين. سألت فكتوريا: أتعرف إن كان السيد داكين في بغداد يا ماركوس؟

السيد داكين؟ آه، نعم، شخص لطيف جداً. وهو صديق لك بالطبع كان هنا بالأمس. لا، أول أمس. والكس كرومبي أيضاً. أتعرفينه؟ إنه صديق السيد داكين. سيغدو اليوم من كركوك.

أتعرف أين مكتب السيد داكين؟

أعرف بالتأكيد. الجميع يعرفون شركة النفط العراقية الإيرانية.

أريد الذهاب إلى هناك الآن بسيارة أجرة، ولكني لا أعرف بالتأكيد من معرفة السائق للمكان.

قال ماركوس متلعثماً: "سأدله بنفسي". ثم صحبها إلى رأس الرفاق وصاح بكل قوته على عدته، فهرع إليه خدم أجفته الضيعة، وطلب منه ماركوس إحضار سيارة أجرة. ثم رافقها ماركوس إلى السيارة فتكلم مع السائق، ثم عاد حتى وقف إلى الوراء منوحاً بيده تعالت له فكتوريا: كم أني أريد شرفة، فهل هذا ممكن؟

- نعم، نعم، سأعطيك غرفة رائعة، وسأطلب لك البيه فطعة اللحم الضخمة، وعندي بعض الكافيار الجيد جداً.

- ممتاز. آه يا ماركوس، هل لك أن تقرضني بعض المال؟

- بالطبع يا عزيزتي. ها هو المال، خذي كل ما تريدين

انطلقت السيارة بعد ان أطلقت بوقاً عالي الصوت . واسندت فكتوريا إلى ظهر مقعدها وهي تمسك بزهرة من الأوراق المعدنية والعملة المعدنية . وبعد خمس دقائق دخلت مكاتب شركة النفط العراقية لإبرامه وطلب السيد داكين . وعندما أدخلوه اليه رفع بصره عن المكتب الذي كان يكتب عليه، ثم نهض وصافحها بأسلوب رسمي قائلا الآنسة الآنسة جونز . أليس كذلك؟ أحضر لها قهوة يا عبد الله

وعندما أغلق الباب الكاتم بصوت خلف الموظف قال داكين بهدوء ما كان ينبغي لك القدوم إلى هنا

- لقد اضطررت إلى ذلك هذه المرة بسبب شيء لا بد لي من إطلاعك به على الفور قبل أن يحدث لي المزيد

- يحدث لك المزيد؟ هل حدث ذلك شيء؟

- ألا تعرف؟ ألم يخبرك إدوارد؟

- ما أعرفه هو أنك ما زلت تعملين في تفحص الزيتون، لم يخبرني أحد بشيء

هتفت فكتوريا كاثرين!

- عفواً، عما تتحدث؟

سألت الليدي كاثرين: أرجو ألا تقولي أنك تعلقت قصة أنت بها إدوارد، وصدقتها المغفل

قال: "حسناً، دعينا نسمع القصة"، ثم مضت عيناه إلى ساعة

فكتوريا وقال اعذريني إن قلت ذلك، ولكني اقصدك بشعرك الأحمر تحديداً

هذا ليس إلا جزءاً من المشكلة

طرق الخادم الباب، ثم دخل بفنجانين صغيرين من القهوة المحلوة، وعندما ذهب قال داكين: والآن حدثي كل وقتك وأخبريني بكل شيء! لا يمكن التنصت على كلامنا هنا

انطلقت فكتوريا تروي قصة مغامراتها، وكعادتها عندما كانت تتحدث مع داكين، استطاعت الكلام بطريقة متماسكة وموجزة، ثم أنهت قصتها بذكر الوشاح الأحمر الذي أسقطه كرمايكل وربطه بينه وبين السيدة دودارج. بعد ذلك نظرت بلهفة إلى داكين

كان داكين قد بدا لها -عندما دخلت- أكثر انحناء وتعباً من المعتاد، أما الآن فقد رأت الملامح جديدة تبرق في عينيه. قال: ينبغي علي قراءة مجموعة روايات ديكنز من جديد

إذن فأنت ترى أنني على حق؟ أنظن أن الكلمة التي قالها هي دودارج بالفعل وأن رسالة ما قد حبكت على الوشاح؟

أظن أن هذا هو أول إنجاز حقيقي بحقك وأنت من يجب أن يشكره على ذلك ولكن المهم هو الوشاح، أين هو؟

مع أنني دسسته في أحد الأدراج في تلك الليلة وأذكر أني وضعت كل شيء في الحقائب دون ترتيب عندما حزمت أمتعتي

ألم يحدث أن ذكرت لأحد، لأي أحد كائناً من كان، أن الوشاح يعود لكاترمايكل؟

لم أفعل لأنني نسيت أمره تماماً، وقد حشرته مع بعض الثياب الأخرى في حقيبة عندما ذهبت إلى البصرة. حتى إنني لم أفتح الحقيبة منذ ذلك الحين.

إذن لا بد أن يكون هناك. حتى لو عثروا على الوشاح فلن يولوا اهتماماً لوشاح مثل هذا. إلا إن كانت بحوزتهم معلومات عنه، وهو أمر مستحيل فيما أرى. كل ما عليه فعله الآن هو جمع كل أمتعتك وإرسالها لك في البصرة. هل لديك مكان تقيمين فيه بالبصرة؟

لقد حجزت غرفة في فندق تيز.

أومأ داكين برأسه وقال: هذا أفضل مكان لك.

- هل عليّ أن... هل تريدني أن أعود إلى «عصر الزيتون»؟

نظر إليها داكين بإمعان ثم قال: أأنت خائفة؟

برز ذقن فكتوريا للأمام وقالت متحدية: كلا، سأذهب إن رغبت بذلك.

لا أظن ذلك ضرورياً. ولا حكيماً. وكما ذكرت سابقاً، فإن الطريقة التي عثروا بها على الأمر تعني أنهم ربما لن يحاولوا مضايقتك. ولن تستطيعي، وبحالته هذه، أن تحصلي على المزيد من المعلومات، ولذلك من الأفضل أن تبقي بعيدة.

ثم ابتسم وأضاف: ولاً فربما وجدتُ صبغة شعرك حمراء فاتنة في المرة القادمة.

صاحت فكتوريا: هذا ما أريد معرفته أكثر من أي شيء آخر! لماذا صبغو شعري؟ لقد فكرتُ وفكرتُ ولم أجد تفسيراً. فدلني، هل تستطيع تفسيره؟

لا أجد إلاّ تفسيراً بشعاً واحداً، وهو أن جثتك سيصعب التعرف عليها.

ولكن لم أرادوني جثة هامدة بحق؟ لماذا لم يقتلوني مباشرة؟

هذا سؤال مهم جداً يا فكتوريا، وهو السؤال الذي أريد إجابته أكثر من أي سؤال آخر.

أليست لديك أية فكرة عن السبب؟

قال داكين وهو يبتسم ابتسامة باهتة: ليس لديّ أي مؤشر يدل على السبب.

- على ذكر المؤشرات: هل تتذكر قولي إنني رأيت في السيارة كروفتن في شبابه عند مخرج ضيعتي في ذلك الصباح في عمق بيرو؟

نعم؟

أنت لم تعرفه شخصياً، أليس كذلك؟

بلى، لم أكن قد قابلته من قبل.

- هذا ما خمنته؛ ذلك أنه لم يكن السير دوبرت كروفتن في

ثم انطلقت من جديد في سرد حيّ ابتداءً بالدقائق التي كانت على رقبة السير روبرت، وعندما أكملت قال د. كيس هكذا تمت العمليه إذن. لم أفهم أبداً كيف أمكن لكارمايكل أن يكون مطمئناً إلى الحد الذي يُقتل فيه في تلك الليلة. لقد وصل سالماً إلى كروفن لي. وكروفن لي هو الذي علمه، ولكنه يمكن من تغيرات، واندفع إلى عرفك قبل أن ينهار، وظل متمسكاً بالوشاح متمسكاً بائساً بالمعنى الحرفي للكلمة.

أتعني أنهم خططوا لأمي كي تقدمه للإعدام بدلك؟ ولكن أحداً لم يكن يعرف، باستثناء إدوارد.

- أظنهم شعروا بضرورة التخلص منك بسرعة. لقد بدأت تفهمين بسرعة الكثير مما يدور في أعصن الزيتون.

لقد حذرني الدكتور رالبون، بل كان تحذيره أقرب إلى التهديد، وأظنه أدرك أنني لست كما أدعي.

قال ذاكيس ببرود: ليس رالبون بالأحمق.

أنا سعيدة لعدم اضطراري للعودة إلى هناك. لقد تظاهرت بالشجاعة قبل قليل. ولكني مرعوبة جداً في الواقع. ولكن كيف يمكنني الاتصال بإدوارد إن لم أذهب إلى هناك؟

ابتسم ذاكيس وقال: إن لم يكن بمقدورك الذهاب إلى الجبل فسيجعل الجبل يأتي إليك. اكتبي له ملاحظة. أجل، قولي له فقط إنك في فندق بيرو، واطلبي منه أن يجمع أمتعته ويأتي بها هناك. أنا ذاهب لاستشارة الدكتور رالبون هذا الصباح بخصوص إحدى

النهوات التي يعيشها في باديه، وسيكون من السهل عليّ أن أدس ملاحظة لسكرتيره إدوارد. أم أنت تدعيني بالصدق وتلقي هناك واسمعي يا فكتوريا.

نعم؟

- إذا ما وجدت نفسك في ورطة مهما كان نوعها، فاتصلي بي في وسعنا لإنقاذ نفسك. إن أهدافنا شديدة الحراس، وأنت بعرضين الكثير منا لأسف. وبمجرد أن يصبح متاحاً في فندق بيرو تكون التزاماتك تجاهي قد انتهت. أرجو أن تفهمي ذلك.

* * *

WWW.LILAS.COM
CHASSEY

الفصل الثاني والعشرون

بعد أن صفّف شعره بكل عناية ووضع المسحوق على وجهها، جلست فكتوريا على شرفة فندق بير لتنعم مرة أخرى بدور جولييت المعاصرة التي تنتظر روميو. وقد جاء روميو في نهاية الأمر، حيث ظهر على العشب أسفل منها ينظر هنا وهناك. نادته فرفع بصره وقال: آه، ها أنت يا فكتوريا

قالت: "اصعد إلى هنا" وبعد دقيقة وصل إلى الشرفة التي كانت مهجورة. قالت فكتوريا: هنا أكثر عذوبةً"، فيما كان إدوارد ينظر إليها حائراً، ثم قال: هل فعلت شيئاً لشعرك يا فكتوريا؟

أطلقت فكتوريا زفرة عميقة وقالت: إنْ ذكّر لي أحدٌ الشعر فإني أظن أنني سأضربه على رأسه حقاً

لقد كنت أحب شعرك كما كان من قبل

قل ذلك لكاثرين!

- كاثرين؟ وما علاقتها بذلك؟ ثم أين كنت طوال هذه المدة يا فكتوريا؟ لقد قلقتُ عليك كثيراً

أحقاً قلقت؟ أين بالضبط كنت؟

لقد أوصيتُ لي كاثرين برسالتك. قالت إنك أوصيتها أن تسعى وذلك سافرت إلى لندن فجأة لأمر مهم جداً، وأنني سأتلقى منك رسالة فيما بعد

قالت فكتوريا بصوت يكاد يوحي بالشفقة: وأنت صدقت ذلك؟

- ظننت أنك وجدت رأس خيطٍ بلغز ما، ومن الطبيعي -في هذه الحالة- أن لا تستطيعي قول الكثير لكاثرين

ولم يخطر لك أن كاثرين تكذب، وأنهم قد خدعوني؟

حدق إدوارد وقال: ماذا؟!

- خدعوني بالكثير والكثير، وأخافوني

نظر إدوارد حوله نظرة حادة وقال: يا إلهي! لم أحلم أبداً بسماعي، إنني لا أحب الكلام هنا، مع كل هذه الموائد. ألا نستطيع الصعود إلى غرفتك؟

حسناً. هل أحضرتَ أمتعتي؟

نعم، أودعتها لدى الحمّال.

لأن المرء عندما لا يملك أن يغير ملابسه لمدة أسبوعين

فكتوريا، ما الذي كان يحدث؟ اسمعي، معي سيارة، دعينا نذهب إلى مكان ما معاً؛ فنحن لم نجلس بمفردنا منذ قرون

- منذ أن كنا في نابل!

نزل الاثنان الدرج ركضاً وخرجا إلى حيث سيارة إدوارد وقف إدوارد السيارة في شارع عريض من شوارع بغداد مسقوفاً جزئياً، وركب السيارة نهر ونخيل وهي تسير عبر جسر يحمل فوق جسور صغيرا بيت فوق قنوات الري. وأخيراً وصلا إلى أيكة الأشجار صغيرة يحيط بها الجداول، وكانت أشجار لايكه (ومعظمها أشجار لور ومشمش) قد زهرت توها كانت بقعة في غاية الجمال والهدوء، وعلى بعد قليل خلفها كان ينساب نهر دجلة

خرجا من السيارة وسارا معاً بين الأشجار المزهرة وقالت فكتوريا وهي تشهد بعض مكان الخ؛ كأن المرء في بكنغز في الربيع!

كان الهواء رقيقاً دافئاً، وما لبث الاثنان أن جلسا على جذع شجرة ساقطة وفوق رأسيهما تتدلى براعم الوردية وقال إدوارد والآن، أخبريني بما حدث معك؛ لقد كنتُ في غاية القلق والتعاسة

أخبرته بما جرى معها أخبرته بأمر مصطفى الشعر المزهرة، والكلور وفورم وأخبرته عن اصطحابها مخدره بعيداً من العشاء، وكيف هربت، وعن لقائها العرضي مرينيارد بيكر، وكيف ادّعت أنها ابنة أخ الدكتور باوسفورت جونز وهي في طريقها إلى موقع الحفريات، وكيف استطاعت بمعجزة المحافظة على دورها كطالبة في علم الآثار وصلت من إنكلترا

عند هذه النقطة صاح إدوارد ضاحكاً أنت رائعة يا فكتوريا بكل هذه الأمور التي تفكرين بها وتخترعينها

اعرف ما تعنيه أصمي، الدكتور باوسفورت جونز، وقبله الأسقف

وعند هذه النقطة تذكرت فجأة- ما هو ذلك الشيء الذي أرادت منذ إدوارد عنه في البصرة عندما قاطعهما السيد كلايبورن ودعاهما لتناول الشاي قالت لقد أردت أن أسألك من قبل كيف عرفت بأمر الأسقف؟

شعرت باليد التي تمسك بها تتصلب فجأة، ثم قال بصوته المتسلط بسرعة كبيرة أنتِ أخبريني، أليس كذلك؟

نظرت إليه فكتوريا، وقد فكرت فيما بعد- كم كان غريباً أن تحقق تلك الهفوة الطفولية الصحيحة ما حصل؛ ذلك أنه فوجئ بحيث لم يكن لديه تفسير جاهز وعاد وجهه فجأة عاجزاً دون قناع

وفيما هي تنظر إليه تغيرت الأشياء كلها وأحدث هو فجأة نظام في نمط منجنس، ورأت الحقيقة ربما لم يكن الأمر مفاجئاً فعلاً ربما كان ذلك السؤال القاتل كيف عرف إدوارد بأمر الأسقف؟ يُلمح ويتفاعل في عقلها الباطن، وربما كانت تضرب بعقله من الجواب الوحيد والحتمي إن إدوارد لم يعلم بأمر الأسقف لأنه هو نفسه، والشخص الوحيد الآخر الذي كان يمكن لإدوارد أن يعرف ذلك منه هو السيد أو السيدة كلايبورن ولكن لم يكن من الممكن أن يكون أي منهما قد شاهد إدوارد بعد وصولها إلى بغداد، لأن إدوارد كان

في البصرة في ذلك الحين، ولذلك لا بد أنه عرف ذلك سلفاً قبل مغادرته هو شخصياً إنكلترا لا بد [illegible] أنه عرف مَنْ الوقت بأن فكتوريا قادمة معهم. وهذا يعني أن الصدمة الرائعة كانت لم تكن صدفة في نهاية الأمر، بل كانت مخططة ومقصودة.

وهما هي تحدق إلى وجه إدوارد الذي سقط عنه القناع عرفت فجأة ما الذي عناه كارمايكل بكلمة «الشيطان». عرفت ما الذي رآه في ذلك اليوم عندما نظر عبر النهر إلى حديقة القصبة. لقد رأى ذلك الوجه الشاب الجميل الذي تنظر هي إليه الآن!

لم يكن الدكتور رالنيوز هو الشرير. بل إدوارد! إدوارد، الذي يلعب دوراً ثانوياً، دور السكرتير، ولكنه يحكم ويخطط ويوجه، ويستخدم رالنيوز تستراً للاسم فقط. ورالنيوز هو الذي حذّرهم بأن تذهب قبل أن يموت الأوان!

وهما هي تنظر إلى ذلك الوجه الجميل الشرير يبحر كل ذلك الحب السحيق المراهق الصبياني، وعرفت أن ما أحسّت به تجاه إدوارد لم يكن حباً أبداً، بل كان ذلك انبهاراً. كما أن إدوارد لم يحبها أبداً. فقد مارس سحره والفه على عمد. لقد تعمدها في ذلك اليوم مستخدماً سحره بكل بعد الشهوانية والطبيعية بحيث وقعت في الخديعة دون مقاومة. لقد كانت مغفلة تماماً!

غريب كم يمكن لحماقة كثيرة أن تضيء فجأة في ذهن المرء في لحظة خاطفة! والمرء لا يضطر إلى إعمال التفكير لاستخراجها، فهي تأتي تلقائياً على شكل معرفة كاملة وفورية. وربما كان ذلك لأن المرء - في أعماقه - كان يعرف تلك الحقائق طوال الوقت.

وفي نفس الوقت فإن غريزة معينة من غرائز البقاء، سريعة كسرعة كل الميكانيكات العضوية بتكوينها، جعلتها تُبقي على وجهها بتعبير محبب لأنه عاملاً. ذلك أنها عرفت غريزياً أنها في خطر ماحق، وأن شيئاً واحداً فقط يمكن له أن ينقذها. وربما واحدة ستطيع بعدها. وقد سارعت لتعلمها فعلاً. لقد كنت تعرف طوال الوقت! كنت تعرف أمر خدعة بي هذا، ولا بد أنك رأيت ذلك آه يا إدوارد، أنت رائع!

ما وجهها، ذلك الوجه البلاستيكي الذي لا يعبر فيه، فقد أظهر عاطفة، جديدة، عاطفة الوله الشاذج. وقد رأت لاستجابته رأت الابتسامة التي تكاد تشي بالارتياح، ورأت الا يرتاح أيضاً. وكادت أن تشعر بإدوارد وهو يقول لنفسه "يا لبساطة الصغيرة من شأنها أن تصدق كل شيء! أستطيع أن أفعل بها ما أشاء!

قالت: ولكن كيف رتبت ذلك؟ لا بد أنك واسع النفوذ، لا بد أنك مخيف تماماً عما تظاهر به.

رأت الكبرياء الذي أضاء وجهه رأت نفوذ والقوة والقسوة التي كانت مخبأة كلها تحت قناع شاب المتواضع المحبوب. ثم قالت بسرعة وبهمة، وكلتيهما فيه أخيرة (مع أن أحداً لن يعرف أبداً كلفة هذه العبارة على كبريائها) ولكنك تحبني بالفعل، أليس كذلك؟

كان الاحتقار في عينيه الآن لا يكاد يخفى. (هذه المخلوقة الصغيرة. كل هؤلاء النساء المغفلات! لا أسهل من جعلهن يصدقن أنك تحبهن، وهذا هو كل ما يهمهن؛ فكل ما يفعله هو التباكي طلب

لنحب! لقد كنّ مثل الأمراء وقد استحوذتهن بوصون إلى غايتك،
قال طيماً أحبك

- ولكن ما معنى هذا كله؟ أخبرني يا إدوارد؟

- به عالم جديد يا فكتوريا، عالم جديد سينهض على أنقاض العالم القديم ورماده

أخبرني عنه

أخبرها، وكدت أن تجزم رغماً عنها مؤمن بالحتم الأشياء العديمة السنين يسعى ليدمّر بعضُه بعض الرجال العجائز اللاهثون وراء مكاسبهم والذين يعبدون التقدم، والشبوعيون لأعباء المتعصبون الذين يحاولون به جنبهم المركسية يسعى ان يقع حرب شاملة وأن يحدث دمار شامل، وعندها، العصبة الصغيرة المحتارة من الإداريين والشباب (من أمثال إدوارد) سيتقدمون ويتولون زمام الموقف كان ذلك جنونا ولكنه كان أمراً يمكن ان يتحقق في عالم تمزق وتفكك

قالت فكتوريا ولكن فكّر في كل الناس الذين سيُقتلون قبل ذلك

أنت لا تدركين يا فكتوريا هذا لا يهم

لا يهم، تلك كانت طريقة إدوارد! أما هي فرأت أن ذلك كله يهم كل الألوف المؤلفة من الناس البسطاء العاديين على هذه الأرض، المشغولين بمشاغلهم الخاصة يُشوون عذابات ويضحكون

ويبكون، ويهتمون في الصباح ويأوون إلى فرشهم في الليل أليست هم الناس الذين يهمون، وليس هؤلاء الأشرار

وبكل حدر قالت فكتوريا وهي تتمسّ طريقها [illegible] في الصوت هل هذا يكون فريدا حقا؟ أليس ربيع حقا يريد ولكن ماذا عني أنا؟ ما الذي أستطيع فعله؟

أتريدين المساهمة؟ الزمي بعضنا؟

ولكنها كانت عاجزة لا يقبل الانقلاب المتفاجئ؟ فكيف يبدو مثاله وبدت وكأنها تسمع أومن بك أنت فقط وكل ما عليه أنت هي يا إدوارد سأفعله!

- أنت فتاة عظيمة

- لماذا خططت تقدمي إلى هنا بداية؟ لا بد من وجود هدف

- يوجد هدف بالطبع هل تذكرين أني صورتك يوما؟

قالت "نعم، أذكر" (وفكرت قائلة لنفسها يا لك من غبية، لكم رهوت بدلك، وكيف ابتسمت عجباً!)

- بعد ان ابتعاني السكن الجنبي توجهت وشبهك بوجدي مساء، فأخذت تلك الصورة بغية التأكد

عن التي أشبهها؟

- امرأة تسبب لي الكثير من المتاعب آنا شيل

نظرت فكتوريا إليه بدهشة وعدم استيعاب؛ فقد بدا لها كل شيء إلا هذا. قالت أخيراً: .. أنه تشبهني أنا؟

تشبهك شبهاً بالغاً من الجانب؛ فملامحكما من هذا الجهة تكاد تكون واحدة تماماً، وأنتما متشابهتان في نظرتي وتسريحة، وإن تكن تكبرك بخمس سنوات تقريباً. الفارق الحقيقي في الشعر؛ فأنت ذات شعر أسود صارخ للحمرة، وهي شقراء. وطريقة تصفيف شعرك مختلفة تماماً. كما أن عينيك أشد زرقة، ولكن دينك لا يهم عند استعمال النظارات الملونة.

وبهذا أردت إحضاري إلى بغداد؟ لأني أشبهها

نعم؛ فقد رأيت أن الشبه يمكن أن يفيد.

وهكذا رتبت الأمر كله. والروجان كليف .. من هما؟

ليسا مهمين؛ إنهما بفعلان ما يُطلب منهما وحسب.

شيء ما في نبرة إدوارد جعل فكتوريا ترتعد من أعماقها، ولكنها ظلت متظاهرة بالهدوء. لقد قلتَ لي إن آن شيل كانت هي المسؤولة، هي ملكة السر في مشروعكم، أليس كذلك؟

اضطررت لأن أقول لك شيئاً ما بخصوصك عما كنت سعيى إليه؛ إذ كنتِ قد عرفتِ أكثر مما ينبغي.

فكرت فكتوريا عاتبة نفسها. ولو صدق أني لم أكن أشبه آن

إنها السكرتيرة الخاصة لنيلسون في الأمريكي والدوبي. وهو مورغانثال، ولكن ليست هكذا فحسب؛ بل لديها عقلاً مالياً شديد الخبير والذكاء، ولديها من الأسباب ما يدعوها للاعتقاد بأنها استطاعت تتبع الكثير من عمليات المالية. لقد كان يوجد ثلاثة أشخاص خطيرين عليه: كروتش هي، وكارمايكل، وكلاهما تحت إبراجهما، وبقيت آن شيل. وسوف تصل إلى بغداد في غضون ثلاثة أيام، ولكنها هي هذه الأثناء- اختفت تماماً.

اختفت؟ أين؟

- في لندن، والواضح أنها تتحرك على وجه الأرض.

ألا يعرف أحد أين هي؟

ربما كان ذاكين يعرف.

ولكن ذاكين لم يكن يعرف. كانت فكتوريا تعلم ذلك، مع أن إدوارد لا يعلمه. ابتسمت آن شيل إذن؟ سألته. أليست لديكم حقاً أية فكرة؟

قال إدوارد ببطء: لدينا فكرة.

وما هي؟

من بابع الأهمية أن تكون آن شيل هي في بغداد لحضور المؤتمر، وهو سينعقد -كما تعلمين- بعد خمسة أيام.

بهذه السرعة؟ لم أعرف ذلك

لقد ضربنا طوقاً حول كل مدخل من مداخل هذا البلد من المؤكد أنها لن تأتي إلى هنا باسمها الحقيقي، ولن تأتي على متن طائرة حكومية عادية، عندي وسائلنا في التحقق من بعض الرحلات ولدينا دقلنا في كل المحجوزات الخاصة يوجد مقعد محجوز على متن إحدى خطوط الطيران باسم غريت هاردن، وقد تتبعت أمر هذه المرأة فلم يجد أحدٌ بهذا الاسم، فهو اسم مستعار إذن كما أن العنوان الذي تم تقديمه وهمي لا وجود له. إنني أرى أن غريت هاردن هي آن شيل

ثم أضاف قائلاً ستهبط طائرتها في دمشق بعد غد

- وعندها؟

نظر إدوارد إليها فجأة وقال هل يأتي دورك يا فكتوريا

- دوري؟

- سوف تأخذين مكانها

قالت فكتوريا ببطء كما حدث للسير روبرت كروس بي؟

كانت جملتها تلك أقرب إلى الهمس، بعد عمليه الاستبدال تلك حاول السير روبرت وعندما تأخذ فكتوريا مكان آن شيل أو غريت هاردن فإن الأخيرة ستموت

وكان إدوارد ينظر بوشك بقبضه وجهه في صدقها ورقائها

وإنها هي التي ستموت وستموت دون إمكانية تحذير أحد لا، ينبغي أن توافق ثم تقسم فرصة لتبلغ السيد داكين بذلك

سحبت نفساً عميقاً وقالت إنني . آه، لا أستطيع القيام بذلك يا إدوارد سوف يكتشفون أمري، فليس بوسعي تقليد اللهجة الأمريكية

- ليس لأنا شيل لهجة محددة تميزها وعلى كل حال سوف نكوبين مصابة بالتهاب الحنجرة، وسيشهد على ذلك واحد من أفضل الأطباء في هذا الجزء من العالم

فكر فكتوريا قائلة لنفسها إن لديهم أتباعاً في كل مكان

تطيرين من دمشق إلى بغداد باعتبارك غريت هاردن، ثم تواصلين طيرانك إلى طشقند ولا يسمح لك طبيبنا بشهير بمغادرة الفراش إلا عندما يحين وقت حضور المؤتمر وهناك ستسلمين جميع الوثائق التي أحضرتيها معك

سألت فكتوريا الوثائق الحقيقية؟

- كلا بالطبع، ستستبدل بها نسخة من عندنا

وعند ستُظهر الوثائق؟

ابتسم إدوارد وقال تفصيلات مهمة عن أكبر وأخطر مؤامرة شيوعية في أمريكا

قالت فكتوريا لنفسها يا لدهشة تحفظهم للأمر!، ثم قالت لإدوارد أتظن أن بوسعي أن أنجز بمعلتي هذه يا إدوارد؟

كان من السهل تماماً عليها الآن، وهي تمثل دورَ، أن تطرح ذلك السؤال بكل مظهر من مظاهر الإخلاص المشهد قال إدوارد أنا واثق أنك قدره على ذلك؛ لقد لاحظتُ أن تمثيلك للأدوار يبعث فيك متعة كبيرة بحيث يبدو من المستحيل تقريباً الشك فيك

لمست فكتوريا شاملة ما زالت الشعر بأسي بمتعة كبرى عندما أفكر بعالمه كليب

ضحكت بأسلوب فرقي وفكرت فكتوريا قائلة بنفسها ووجهها ما يزال مشعاً للون والتعلق "ولكنك أنت أيضاً كنت متعلقاً تماماً إذ وقعت بمثل هذه البهجة الخاصة بأسعف الأنواع، ولو لم تقع بها لما أمكنني كشفك أبداً" قالت فجأة بصوتٍ عالٍ ماذا عن الدكتور رائيون؟

ماذا تعني بقولك؟

- هل هو مجرد رئيس صوري؟

انحنت شعت إدوارد بشكل يوحي بالتسلي بمشهي القاسي وقال رائيون مضطر للإذعان لما تريد أتعلمين ما الذي كان يفعله طوال هذه السنين؟ كان يستعمل بذكاء- ثلاثة أرباع التبرعات التي تنصب على مؤسسته من جميع أنحاء العالم ويحولها لمصلحته الخاصة بنعم، إن رائيون في جيبنا تماماً سنطيع كشفه في أي وقت، وهو يعرف ذلك جيداً

شعرت فكتوريا بامتلاء مفاجئ بدوار الصخور في الرأس المتعب والنفسية العادية ربما كان محالاً، ولكن الشفقة عرفت

طريقها إلى قلبه وقد حاول أن يدفعها للنجاة بنفسها في الوقت المناسب

قال إدوارد كل الأمور تجري باتجاه عالمنا الجديد

فكرت فكتوريا بالمشهد (الذي يبدو غافلاً جداً) مجنون في توقع؛ فالمرء يصاب بالجنون عندما يحاول وضع نفسه موضع الإله؛ لقد فهمت دوماً أن التواضع فضيلة، ورسي أدرك الآن لماذا هي كذلك؛ فهو ما يُبقي المرء عاقلاً وإنسانياً

نهض إدوارد وقال "آن لك أن تذهبي، يجب أن توصلك إلى دمشق وبعد حطتنا هناك بعد غد

نهضت فكتوريا محترسة، فبمجرد أن تعود إلى بغداد وإلى فندق نيو سيزون الخطر القريب الداهم الذي يمثله إدوارد الآن كان دورها يقضي بأن تلعب دورَ مزدوجاً تستمر فيه بخداع إدوارد بتمثيل دور الوليمة الخاضعة، في نفس الوقت الذي تقاوم فيه خطته بالسر قالت "أتظن أن السيد داكين يعرف مكان آن شيل؟ وهل استطعتَ معرفة ذلك منه وربما صدرت عنه إشارة ما

هذا غير محتمل، وعلى كل حال فأنت لن تري داكين

لمست فكتوريا كتفه وقد دهمها شيء من الرعب لقد أوصاني بأن أذهب فرؤيته هذا المساء، وسيرى الأمر غريباً إن لم أذهب

لا يهم ما يراه في هذه المرحلة لقد وُضعت خطتنا، ولن يراك أحد في بغداد ثانية

ولكن كل أمنعتي في الفندق يا إدوارد! وقد حجزتُ غرفه

(الوشاح الوشاح الثمين)

لن يحتاجي أمتعتك في المستقبل القريب. لقد جهزتُ لك ملابس تتغطرك، هب

صعدا في السيارة ثانية، وقبل فكتوريا نفسها. كان عليّ أن أعرف أن إدوارد ليس على تلك الدرجة من الغباء التي يسمح لي معها بأن أتصل بداكين بعد أن كشفتُ أمره. صحيح أنه يعني معرفته به، وأظنه واثقاً من ذلك، ولكنه مرغم ذلك كله. ليس مستعداً بالمجازفة" قالت له "ألي يتم البحث عني إن أنا لم أظهر؟

- سنعني نحن بذلك، من الناحية الرسمية الظاهرية سنودعيني على الجسر وتسافرين لرؤية بعض الأصدقاء في الضفة الغربية

ومن الناحية الفعلية؟

انتظري وسترين

جعلت فكتوريا صامتة فيما كانت سيارة تهتز فوق الطريق الوعر وتنعطف حول بساتين نخيل ومجاري جسور ري صغيرة. وتمتم إدوارد قائلاً لوفارج "ليت تعرف ما الذي قصده كارمايكل بهذه الكلمة

دق قلب فكتوريا متعالياً وقالت "آه، لقد نسيت إبلاغك

لا أدري إن كانت هذه المعلومة تعني شيئاً، ولكن أ. م. لوفارج جاء يوماً إلى موقع الحفريات في تل أسود

- حقاً؟

كاد إدوارد أن يوقف السيارة في حمأة الطريق. ثم سألها "متى كان ذلك؟

آه، منذ نحو أسبوع. قال إنه جاء من موقع حفريات ما في سوريا. أتراه أتى من موقع حفريات الحمير بدرو؟

- هل جاء إليكم أيضاً رجلان باسم أندريه وجوفيت عندما كنت هناك؟

- نعم، وكان أحدهما يعاني من معدته

بعد كان أشبه من رجال

ولماذا ذهب هناك؟ ليبحث عني؟

لا، لم تكن عندي أي فكرة عن مكان وجودك، ولكن بشارة بكر كان في البصرة في نفس الوقت الذي كان كارمايكل فيها، وراودت فكرة بأن من الممكن أن يكون كارمايكل قد مرّر له شيئاً

- لقد قال إن أمتعته فُتشت. هل وجد صاحبكم شيئاً؟

لا. ولكن فكري مياً يا فكتوريا: هل جاء ذلك الرجل لوفارج قبل الرجلين الآخرين أم بعدهما؟

ثم تمتم وهو يعود لأسلوبه العاطفي "لا تحدليني يا حبيبي، أنت وحدك من يستطيع القيام بذلك. ثم أضاف فعلاً "لا بحاجة أوراقك على أفضل ما يكون وقد يجدني صعوبة عند الحدود السورية اسمك الآن بالنسبة هو لاحب ماري دير آنغير، وبدل الأحب بيرير التي مزقت كل الوثائق، وهي المسؤولة الأولى والأخيرة عنك أطيعي لأوامر يا حبيبتي ولا تنسي أحذرك بصراحة، مستحملين كل العواقب ثم تراجع قليلاً ولوح لها بانتهاج، وتعلقت سيارة الرحلات.

أستدار فكتوريا ظهرها إلى جهة معبد المسجد واستغرقت في تأملات بالبدائل الممكنة أمامها إن يمكنها بدى مرورهم في بغداد، أو عند الوصول إلى الحدود أن تفعل إشكالاً ما ويصبح طبياً مفجعة ويشرح بتأس انها قد اقتيدت رغم عنها ويمكنها اختيار أكثر من طريقة للقيام بالتصحيح مباشر ولكن هل سيحقق ذلك؟ ربما نهايه فكتوريا جوبرد فقد لاحظت أن الأحب بيرير قد دست في كمها مسدساً صغيراً آلياً يغي بالغرض

إن أفضل خيار هو التصدي لدماغ في الأمور و لإدعاء بتصنعه أن تأتي في بغداد باعتبارها آن شيل وتلعب دورها، لأنها لن تعلم ذلك فمن تكون لادوارد سيظهره على لسانها أو تصرفها من بعد إن استطاعت الاستمرار في إقناع إدوارد بأنها ستفعل كل ما يطلبه، عندها ستأتي لحظة تقف فيها مع رفاقها المرورة أمام المؤسسة وس يكون ادوارد هناك، وس يستطيع أحد وقتها أن يمنعها من القول أنا لست آنا شيل، وهذه الوثائق مزورة وكاذبة

بعجب من أن إدوارد لم يحش قيامها بذلك تماماً، ولكنها رأت أن الجبناء ميزة تنمي العمل على نحو غريب، كما توجد حقيقة يحب أحدهم في الاعتبار وهي أن إدوارد ورفاقه مضطرون لاختراع آن شيل إن أرادوا لمخططهم النجاح وإن من المستحيل أن يتمكنوا من العثور على فتاة تشبه آن شيل مثلها تماماً، لقد كانو بحاجة إليها وبهذا المعنى فإن فكتوريا جوبرد هي التي تسيطر عليهم وليس العكس

وانطلقت السيارة بسرعتها عبر الجسر، وراقبت فكتوريا نهر دجلة يشرق إلى الداخل الغربي

* * *

الفصل الثالث والعشرون

هبطت طائرة «سكاي ماستر» الضخمة من السماء، وكانت عملية الهبوط ممتازة. ثم سارت بهدوء على طول المدرج، ثم ما لبثت أن توقفت في مكانها المحدد. وقد دُعي الركاب للنزول، وتم فصل أولئك الذاهبين إلى البصرة عن أولئك الذين سيستقلون طائرة نقلهم إلى بغداد. ومن بين هذه المجموعة الأخيرة كان أربعة أشخاص رجل أعمال عراقي تبدو عليه مظاهر النعمة، وطبيب إنكليزي شاب، وامرأتان. وقد عبروا جميعاً نقاط التحقيق المختلفة

جاءت في النهاية امرأة سمراء ذات شعر أشعث لم يستطع وشاحها أن يلمه كله. ومضى التحقيق معها السيدة باوسفورث جونز؟ بريطانية؟ نعم. تريدين الالتحاق بزوجك؟ عنوانك في بغداد زوجك؟ ماذا تحملين من مال؟

بعد دقيقة أخذت المرأة الأخرى مكان زميلتها. غريب هاردن؟ نعم. جنسيتك؟ أمريكية. جئت من لندن، سبب الزيارة؟ مملكة في صندوقي؟ عنوانك في بغداد؟ ماذا لديك من مال؟

كتب غريب هاردن شيئاً بخط شقراء نصع نظارات سوداء،

وقد وضعت مساحيق بشكل أشبه بالقناع على وجهها، وكانت ترتدي ثياباً مرتبة قديمة. وكانت فرنسيتها مرتبكة ركيكة. وقد تعين من وقت لآخر إعادة السؤال عليها لتفهمه

قيل للمسافرين الأربعة إن طائرة بغداد ستقلع عصراً، وإنهم سيؤخذون لأن إلى فندق بغداسيين لتناول قسط من الراحة. وقد كانت غريب هاردن تجلس على سريرها عندما سمعت طرقاً على الباب. فتحته فوجدت شابة سمراء طويلة ترتدي الزي الرسمي لشركة الطيران. قالت: أنا آسفة جداً لإزعاجك يا آنسة هاردن. هل لك أن تأتي معي إلى مكتب شركة الطيران؟ لقد برزت مشكلة صغيرة حول بطاقتك من هنا وجده

تبعت غريب هاردن مرشدتها في الممر، وعلى أحد الأبواب كانت لافتة كُتبت بخط دهني «مكتب الطيران». وفتحت المضيفة الباب وأشارت لغريب هاردن بالدخول، وعندما دخلت أغلقت المضيفة الباب من الخارج وبرغم اللافتة فقد كان مكتباً

وعندما تحدثت غريب هاردن الباب قام رجلان (كانا يجلسان خلفه) برمي قطعة قماش على رأسها. ثم دفع كمامة في فمها، وقام أحدهما برفع كمها وحقنها بإبرة. وخلال دقائق قليلة ارتخى جسدها

قال الطبيب الشاب بمرح: هذه الحقنة ستتولى أمرها لمدة ست ساعات في كل الأحوال. هيا أنتما الاثنين، أكملا عملكما

أومأ برأسه باتجاه من يشاطرانه الغرفة، وهما رجلان كانتا

[illegible] دون حراك عبد الباقي. خرج الرجلان من الغرفة، وذهب الكبرى من الراهبين إلى غرب هاردن وبدأت تنزع الملابس عن جسدها المرمري، أما الراهبة الشابة فقد بدأت تنزع ثياب الرهبانية وهي ترتعد قليلاً، وسرعان ما كانت غرب هاردن تمدد بهدوء وتوقار على السرير وقد ألبست ثياب الراهبات، فيما كانت الراهبة العجوز ترتدي الآن ثياب غرب هاردن

حوّلت الراهبة الكبرى انتباهها الآن إلى شعر رفيقها الكتابي أخرجت من جيبها صورة ونظرت إليها أمام المرآة ثم أخذت تمشط شعر رفيقتها وتصففه إلى الخلف ثم تجعده خصلات منه بروزاً على العنق ثم تراجعت خطوة وقالت بالفرنسية مدهش كيف تغيرت، ضعي النظارات السوداء فعيناك عامتان الزرقة كثيراً نعم، هذا تام

طُرق الباب طرقاً خفيفاً، ثم دخل الرجلان ثانية وهما يتهامسان قال أحدهما إن غرب هاردن هي ان سيل دون شك بالأوراق بين أصابعها، وهي مخبأة بكل عنايه بين أوراق كتاب دليل حول التدليك الطبي، والآن يا آنسة هاردن

ثم انحنى باحترام كاذب لفكتوريا وأكمل قائلاً سوف يسعدني شرف تناول العشاء معك

تبعته فكتوريا إلى خارج الغرفة، ثم عبر الصالة كانت المرأة الصغيرة الأخرى تحاول إرضاء برقية عند مكتب الاستقبال كانت تقول لا، لا اسم هو بارسفوت الدكتور بارسفوت جونز سأصل اليوم إلى فندق تيو الرجاء جيدة

نظرت إليها فكتوريا باهتمام مفاجئ، لا بد أن هذه هي زوجة الدكتور بارسفوت جونز وقد حضرت للالتحاق به وكونها جاءت قبل أسبوع من موعدها لم يكن أمراً مفاجئاً لفكتوريا إذ أن الدكتور بارسفوت قد شكك مراراً من تقييمه لرسائلها التي تحدد وقت وصولها قائلاً إنه متأكد من أن ذلك الموعد كان السادس والعشرين من الشهر!

لو أنها استطاعت نقد تقريره أو بأخرى- إرسال رسالة ما إلى ريتشارد بيكر عن طريق السيدة جونز

قدم الرجل الذي برفقتها -وكأنه يقرأ أفكارها- مقعداً من مرفقها بعيداً عن مكتب الاستقبال قائلاً لا أحاديث مع وجود سعرك يا آنسة هاردن لا نريد أن يلاحظ بحث المرأة الطبيبة أنك تختلفين عن المرأة التي جاءت معها من لندن

أخذها لتناول العشاء في مطعم خارج الصدق، وعند عودتهما كانت السيدة بارسفوت جونز تنزل درج الصدق، وقد أومأت فكتوريا دون أي ارتياح وقالت قائلة أكنت تشرفان؟ أنا خارجة الآن إلى السوق

قالت فكتوريا نفسها لو أستطيع دس شيء في أصبعها ، ولكنها لم تُترك بمفردها لحظة واحدة

غادرت طائرة بغداد في الساعة الثالثة من بعد الظهر وكان مقعد السيدة بارسفوت جونز في مقدمة الطائرة مباشرة، أما مقعد فكتوريا فكان في الخلف قرب الباب، ومقابلها عبر الممر جلس

الشاب الأشقر الذي كان سجينها، ولقد لم يكن لديها فرصة للوصول إلى المرأة الأخرى أو حتى أي شيء في أعماقها. ولم تكن الرحلة طويلة. وبلمحة الشاب يعرف فكتوريا من الجو لترى الخطوط العامة لمدينة بغداد بنخيلها ودجلة يقسمها كأنه عِرق من الذهب في إحدى الصخور.

هكذا رأتها منذ أقل من شهر مضى. ولكم حدث أحداث كثيرة منذ ذلك الحين!

في غضون يومين أخرين سيلتقي هذان الرجلان اللذان يمثلان الأيديولوجيتين السائدتين في العالم لمناقشة المستقبل. وسيكون لها هي، فكتوريا جونز، دور تلعبه في ذلك.

* * *

قال ريتشارد بيكر: إني قلق بشأن تلك الفتاة.

قال الدكتور بارسفوت جونز بإبهام: أية فتاة؟

فكتوريا.

نظر الدكتور حوله وقال: فكتوريا؟ أين هي؟ يا إلهي، لقد غفلنا عن دورها بالأمس.

- كنت أتساءل إن كنتَ قد انتبهت لذلك.

- يا له إهمال بالغ من طرفي. لقد كنتُ شديد الاهتمام بدنك

التقرير عن الحفريات في تل بغداد. ألم تعرف فكتوريا بن مجيد الشاحنة؟

لم يكن عودتها إلى هنا واردة أبداً. والحقيقة أنها ليست فيكتوريا سافيل.

- ليست فيكتوريا سافيل؟ يا له من أمر غريب. ولكن أحسبك عنيتَ بأن اسمها الأول هو فكتوريا.

- وهو كذلك بالفعل. ولكنها ليست هانمه أجنبي، وهي لا تعرف إيميرس. والحقيقة أن الأمر كله كان سوء فهم.

قال الدكتور بارسفوت: "يا إلهي! يبدو ذلك غريباً جداً". ثم فكر قليلاً وقال: غريب جداً. إني أرجو هل ما الملام في ذلك؟ أعلم أني شارد الذهن بعض الشيء. أتراني استلمت رسالة بالخطأ؟

قال ريتشارد بيكر وهو عابس لا يلقي بالاً لتأملات الدكتور: لا أستطيع فهم الأمر. يبدو أنها ذهبت في سيارة مع شاب. ولم تعد. وفوق ذلك فإن أمتعتها كانت هناك ولم تكلف نفسها عناء فحصها. يبدو لي ذلك أمراً شديد الغرابة. إذا ما أخذنا في الحسبان رحلة بعض الملايين التي كانت تعني منها. كنت أحسبها ستحرص كل الحرص على ارتداء أفضل ما لديها. وقد بقينا على بقاء هنا بسبب العداء معها. نعم، إني لا أفهم الأمر أبداً. أرجو أن لا يكون قد أصابها مكروه.

قال الدكتور بارسفوت بارتياح: "لقد كنتُ لأظن ذلك للوهلة الأولى". ثم عاد بالحفر في الرحلة ج. أظن أن بدنك هي أفضل

فرصة لم يعثر على مكتب السجلات إن قطعة اطاوله تلك التي عثر عليها بعدُ بالكثير

- لقد حطموه مرة قبل ذلك، فما الذي يمنعهم من حطمها ثانية؟

- هذا مستبعد جداً مستبعد جداً إن اليد مستقر جداً في هذه الأيام، وأنت نفسك قلت ذلك

- لو استطعتُ فقط تذكر اسم ذلك الرجل الذي يعمل في شركة بقطنة أكان اسمه ديكون؟ دكين؟ شيء من هذا القبيل

- لم اسمع باسم كهذا أبداً أظن أني سأبدل مصطفى ومجموعته وارسلهم إلى الزاوية الشمالية الشرقية، وعندها يمكن تمديد الحديقة ط

هل تسمع كثيراً -يا سيدي- إن أن عدتُ إلى بغداد عداً؟

منح الدكتور بوسعوب كامل انتباهه لرفيقه فجأة، وحدق إليه وقال عداً؟ ونكتب كما هناك بالأمس

- إني قلق على تلك الفتاة قلق حقاً

يا عزيزي ريتشارد، لم يخطر لي وجود شيء من هذا النوع

أي نوع؟

- أنك قد تعلقت بها هذه أسوأ نتائج وجود نسائه في مواقع

الخطر وخاصة الجميلات منهن وهذه الفتاة (فكتوريا و فيكتوريا أو كائن ما كان اسمها) جميلة بما فيه الكفاية أعترفُ يا ريتشارد- بأن ذلك دوقاً رائعاً أمر غريب، فهي أول فتاة أعرف أنك تهتم بها

قال ريتشارد وقد احمرّ وجهه وبدا أكثر تعالياً من عادته لا يوجد شيء من هذا القبيل بيني فقط قلق عليها يبغي أن تعود إلى بغداد

- حسناً، إن كنت ذاهباً غداً فبإمكانك أن تحضر معك تلك الحقائب؛ فقد نسيها ذلك السائق الأحمق

* * *

انطلق ريتشارد باتجاه بغداد في وقت مبكر من فجر اليوم التالي، ثم ذهب مباشرة إلى فندق بيرو، وهناك علم أن فكتوريا لم تعد للفندق قال له ماركوس لقد كان الترتيب أن تتناول عشاءها معي، وقد حجزتُ لها غرفة رائعة الأمر غريب، أليس كذلك؟

هل ذهب إلى الشرطة؟

آه، لا يا عزيزي، لن يكون ذلك لطيفاً ربما لا ترغب في ذلك. وأنا لا أرغب به بالتأكيد

بعد قليل من السحري عثر ريتشارد على عنوان داكين وزاره في مكتبه ثم سحبه ذاكرته فيما يخص الرجل نظر إلى الجسد السمين والوجه المتورد والرعشة الخفيفة في اليدين لم يكن هذا رجلاً جيداً! تصور له عن إزعاجه وسأله إن كان قد رأى لأسنه فكتوريا حوض

لقد وارتني أول أمس

- أيمكنك أن تعطيني عنوانها الحالي؟

- أظنها في فندق تيو

- أعتقد هناك، أما هي فليست هناك

رفع السيد داكين حاجبيه قليلاً، فقال ريتشارد: لقد كنت تعمل معها في التنقيب في تل أسود

- آه، فهمت. أخشى أنني لا أعلم شيئاً قد يفيدك. أظن أن لها هنا أصدقاء في بغداد. ولكنني لا أعرفهم جيداً بحيث أعرف من هم أصدقاؤها

- أيمكن أن تكون في تلك المنطقة، أعني الزيبور؟

لا أظن ذلك، ولكن يوسعك أن تسأل

قال ريتشارد: "اسمعني. أنا لن أغادر بغداد حتى أجدها"، ثم عبس في وجه السيد داكين وخرج من الغرفة. أما السيد داكين فما أن أغلق الباب حتى ابتسم وهزّ رأسه وتمتم بهجة بالنيب "آه يا فكتوريا!

وبدى دخول ريتشارد إلى فندق تيو استقباله ماركوس ببشاشته المعتادة فصاح ريتشارد: أولد عادت؟

لا، لا، إنها السيدة باوسفوت جونز سحب لتوي إليها وصلت بالطائرة اليوم، وقد قال لي الدكتور باوسفوت جونز إنها قادمة في الأسبوع القادم

إنه يخلط بين التواريخ دوماً. ماذا عن فكتوريا جونز؟

عاد وجه ماركوس ليعبس وقال: لا، لم أسمع شيئاً عنها، وأنا غير مرتاح بذلك يا سيد بيكر. إنه أمر غير مريح. إنها فتاة شابة وجميلة، وهي شديدة المرح والابتهاج

قال: "نعم، نعم. أظن أن من المفضل أن أنتظر لتجيء السيدة باوسفوت جونز وتساءل في سره: ما الذي يمكن أن يكون قد حصل لفكتوريا

* * *

قالت فكتوريا بعدائية لا تخفيها: "أنت؟!". فبعد أن رافقوها لغرفتها في فندق قصر بابل كان أول شخص تراه هو كاثرين أرمات كاثرين ورأسها يحتقد مماثل وقالت: نعم، أنا. والآن إلى فراشك رجاء سيصل الطبيب في الحال

كانت كاثرين ترتدي ثوب ممرضة مشفى وتأخذ واجباتها بجدية، ومن الواضح أنها مصممة على عدم ترك فكتوريا لحظة واحدة. تمتمت فكتوريا وهي تتمدد بالسة على السرير: لو استطعت الإمساك بإدوارد

قالت كاثرين بتردد: "إدوارد"! إدوارد سم بهم بك أبداً أيتها العبية، فأنا هي التي يحبها!

نظرت فكتوريا دون حماسة إلى وجه كاثرين العبد المتعصب، فيما مضى. "الأخيرة بعون. لقد كرهتك دوماً، منذ ذلك الصباح الأول

الذي دخل فيه وطلب رؤية الدكتور راتيوف لكل تلك الوقاحة

قالت فكتوريا (وهي تبحث عن محفظة تنير بها عريمتها) أي
عمي أيه حال أكثر منك أهمية بحيث لا يمكن الاستغناء عني إن
يوسع به فتاه أن تقوم عنك بدور ممرضه المستشفى، أما أن فالأمر
كله يعتمد على أدائي للدوري

قالت كاثرين برصه عن الدات ما من أحد لا يمكن الاستغناء
عنه هذا ما تعلّمناه

ولكن أنا لا يمكن الاستغناء عني بالله عليك اطبي بي وجه
دسمة؛ فكيف تتوقعون مني -إن لم أكل أن أمثل دور سكرتيره
المصرفي الأمريكي بشكل جيد عندما يحين الوقت؟

قالت كاثرين متذمرة أحسب أن من الأفضل ان تكفي طالما
أن ذلك باستطاعتك الآن

ولم تنتبه فكتوريا للمغزى الشرير لذلك

* * *

قال الكابتن كروسبي فهمتُ أن لديكم مريضه وصعب لنوعا
اسمها غريث هاردن

أومأ الرجل الهندي خلف مكتب الاستقبال في فندق قصر بابل
وقال نعم يا سيدي، لقد وصلت من إنكلترا

إنها صديقة خبي هل لك ان ترسل لها بطاقي الشخصية

ثم كتب بضع كلمات على بطاقته وأرسلها في مغلف إلى الطابق
العلوي، وسرعان ما عاد الصبي الذي أحدها وقال إن السيده ليست
على ما يرام يا سيدي التهاب حاد في حنجرتها، والطبيب قادم حالاً
إن معها ممرضة مستشفى

استدار كروسبي وعاد إلى فندق بيو حيث استقبله ماركوس
قائلاً أهلاً يا عزيزي إن عندي مفاجأة لذيذة، وذلك بسبب
المؤتمر ولكن يا للأسف! لقد عاد الدكتور بوسكومب جونز إلى
موقع تنقيباته يوم أمس الأول، وها هي زوجته قد وصلت وكانت
تتوقع وجوده في استقبالها، وهي مزعجة جداً لذلك! نقول بها
أخيرته بأنها ستأتي على هذه الطائره ولكنك تعرف طبيعته إنه
يخلط كل التواريخ والأزمنة

ثم أنهى ماركوس سرده بسخائه المعتاد قائلاً ولكنه رجل
لطيف جداً، وقد اضطررتُ للعثور على غرفه لها بنفس السعر
وفقب استقبال رجل مهم من الأمم المتحده

- بدور بعداد وقد جئتُ تماماً

لقد نشروا كل الشرطة وهم يأخذون احتياطات كبيرة
هل سمعت ما يُقال؟ مؤامره شيوعيه لاغتيال الرئيس وقد اعتقلوا
خمسة وستين طالباً! هل رأيت رجال الشرطه الروس؟ إنهم يُبدون
ارتياحاً بالجميع ولكن هذا جيد جداً لأعمالك نعم، جيد جداً في
الواقع

* * *

ردّ جرمن الهاتف وجاء الجواب سريعاً من السفارة الأمريكية

- معكم فندق قصر بابل، إن الآنسة آنا شيل تقيم هنا

قال الصوت من السفارة "آنا شيل؟" وسرعان ما جاء إلى الهاتف أحد المحققين في السفارة وقال للمتحدث أيمكن أن تتكلم مع الآنسة شيل؟

- إن الآنسة شيل مريضة في فراشها تعاني من التهاب الحنجرة معكم الدكتور سمولبروك، وأنا أشرف على حالة الآنسة شيل إن لديها بعض الأوراق المهمة وتريد أن يأتي شخص مسؤول من السفارة لتتسلمها له. الآن هل؟ شكراً لك، سأكون بانتظاركم

* * *

التفت فكتوريا عن المرآة كانت ترتدي بدلة جيدة التفصيل، وكل شعرة شعرة من شعرها ضُفت بعنايه في مكانها كانت تشعر بالعصبية والارتباك، ولكن معنوياتها كانت عاليه وعندما التفت رأت وميض فرح وانتصار في عيني كاثرين فتحرست فجاه لتسأل لماذا تفرح كاثرين على هذا النحو؟ ما الذي يجري؟

سألت ما الذي يفرحك إلى هذا الحد؟

- ستترين في الحال

كان الحقد واضحاً جلياً الآن وقالت كاثرين باردة، إنك تحسبين نفسك ذكية جداً وتظنين أن كل شيء يعتمد عليك ها أنت سوى مخفقة

وبقهر كانت فكتوريا تمسك بها من كتفيها وتضغط بأصابعها في لحمها قائلة حريمي هذا تصديق أنها تعاند البعيضة

- آخ إنك مؤلمني

- اخرسي

خبطت طرقه على الباب طرقة تكررت مرتين، ثم طرقة أخرى مفردة بعد قليل وصاحت كاثرين الآن ستترين!

فتح الباب ودخل الغرفة رجل طويل يرتدي زي الشرطة الدولية أقفل الباب خلفه وأخذ المفتاح ثم تقدم من كاثرين قائلاً بسرعة

أخرج جيلاً رفيعاً من جيبه وربط به كاثرين على الكرسي بكل بجانب منها، ثم أخرج وشاحاً ولفه على فمها ثم تراجع قليلاً وهز رأسه باستحسان وقال نعم، سيكون هذا جيداً

ثم التفت إلى فكتوريا، وأراد الهراوة الغليظة التي كان يلوح بها، وتحطمه الضعف في وجهها أبعاد الحقيقة الحقيقية إنها لم يبدو أبداً تركها تمثل دور ان شيل في السفارة، إذ كيف لهم أن يحموا مثل هذه المحاولة؟ لقد كانت فكتوريا معروفة بشكل جيد في بغداد نعم، لقد كانت تحظى من البدايه بتفهي بأن تتم مهاجمة آن شيل وقتلها في اللحظة الأخيرة، فإنها بطريقة لا يمكن معها تغيير ملامحها ولن يبقى بعدها الا الأوراق التي حضرتها معها تلك الأوراق المزورة بكل عناية

استدارت فكتوريا باتجاه الباب وهي تحاول جاهدة توضيح الملتف على وجهها، وبعدم الرحيل منه وهو يبتسم لم تحدث عدة أمور. كان هناك صوت رجاج يهشم. وحدها يد تلمسه طرحتها أرضاً وراب يجوم. ثم عتمة. ثم تكلم من خلف العتمة صوت، صوت إنكليزي مُطمئن.

هل أنت بخير يا آنسة؟

تمتمت فكتوريا شيئاً ما.

سأل صوت آخر: هادا هادت؟

حك الرجل الأول رأسه وقال بارتباك: قالت إن الخدمة في الجنة أفضل من الحكم في النار.

قال الآخر: هذا قول مُقتطف. وكيف اختفت عنه.

قالت فكتوريا: لا، لم أختفِ، ثم أُغمي عليها.

* * *

رن جرس الهاتف فرفع داكين السماعة، وسمع صوت يقول تمت «العملية فكتوريا» بنجاح.

قال داكين: جيد.

وقد قبض على كاترين سركيس وانطبيت، أما الرجل الآخر فقد رمى بنفسه من الشرفة وهو مصاب إصابات بالغة.

ألم تُصب الفتاة؟

- لقد أُغمي عليها. ولكنها بخير.

- ألم تأت أخبار بعد عن آني الحقيقية؟

- لا أخبار أبداً.

أعاد داكين السماعة، وفكر في أن فكتوريا بخير على أية حال. أما آني نفسها فلا بد أنها قتلت. كانت قد أخبرت عن تصرف بمعرفة وأكدت أنها ستكون في بغداد في السابع عشر من الشهر والليوم هو السابع عشر، وما من سبيل ربما كانت مخفية في عدة أماكن بالمؤسسة الرسمية. لم يكن يدري. كانت توجد بالتأكيد خطط لتسريب المعلومات وحياتها. ولكن الواضح أن ملكاتها العقلية الطبيعية لم تساعدها بشكل أفضل. ومن دون آني قليل سيكون الدليل ناقصاً.

دخل عليه مراسل يحمل ورقة كُتب عليها السيد ريتشارد بيكر والسيدة باوسموت جونز، فقال للمراسل: لا أستطيع رؤيته حتى لأن في لهما بي أسف جداً، ولكني مشغول.

انسحب المراسل، ثم ما لبث أن عاد وسلم داكين رسالة عرف داكين العلاف وقرأ: أريد رؤيتك بشأن كارمايكل.

قال داكين: أدخله.

دخل ريتشارد بيكر والسيدة باوسموت جونز، وقال ريتشارد: لا أريد شغل وقتك، ولكني كنت في المدرسة مع رجل يُدعى هنري كارمايكل. وقد افترقنا ولم يرَ أيٌّ منا صاحبه بسنوات طويلة، ولكن عندما كنتُ في الصف قد بصقه الشيخ فاسنه في عرفه. انظار

القضية كان متكرماً بشباب عربية، وقد استطاع -دون أن يُبدي أية إشارة لمعرفته لي- أن يتفاهم معي. هل يهمك هذا الموضوع؟

- يهمني جداً.

- تكونت لدي فكرة بأن كارمايكل كان يرى أنه في خطر وسرعان ما تأكد ذلك؛ فقد هاجمه رجل بمسدس واستطعت أن أضربه وأسقطه من يده. وقد سارع كارمايكل بالهرب، ولكنه دسّ في جيبي -قبل هربه- شيئاً وجدته فيما بعد. لم يبدُ فيه أية أهمية بدا مجرد «ملاحظة» مجرد إشارة الى رجل يُدعى أحمد محمد ولكني تصرفت بناءً على افتراضي بقول إن هذه الورقة كانت مهمة فعلاً بالنسبة لكارمايكل.

ومع أنه لم يعطني أي تعليمات فقد احتفظت بها بكل حرص وعنايه معتقداً أنه سيطلبها ذات يوم، وقد علمتُ قبل أيام من أكتوبر جونز بأنه قد مات، وتوصلت -من أشياء أخرى قالتها لي- إلى نتيجة مفادها أن الشخص المناسب الذي يمكنني تسليمه هذه الرسالة هو أنت.

بهض ووضع ورقة صغيرة عليها كتابة على مكتب داكين وقال هل يعني هذا شيئاً بالنسبة لك؟

سحب داكين نفساً عميقاً وقال "نعم" إنه يعني أكثر مما يمكنك تصوره" ثم نهض وقال "أنا شديد الامتنان لك يا سيد بيكر، وأرجو أن تعذرني على قطع لقائنا هذا بمثل هذه السرعة، ولكن أمامي الكثير مما يستدعي عني متابعته مما لا أستطيع معه تضييع دقيقة واحدة.

ثم صافح السيدة بوسطون قائلاً "أحسب أنك ستلتحقين بزوجك في موقع تنقيباته. آمل أن تتمتعوا بموسم جيد.

قال ريتشارد: إنه لأمر جيد أن الدكتور باوستون جونز لم يأت معي إلى بغداد هذا. يصبح صحيحاً أن الدكتور العجوز لا يلاحظ الكثير مما يجري، ولكنه ربما لاحظ الفارق بين زوجته وبين أخت زوجته!

نظر داكين بفضول من النافذة إلى السيدة باوستون جونز، فطالب بصوت منخفض عندما بأن أخي إلسبي ما زالت في بكلند، لقد صبغت شعرها بلون الأسود وسافرت بجوار صغرها. وقد كان اسم أخي قبل زواجها بسبي شيل، أما اسمي أنا -يا سيد داكين- فهو أنا شيل.

* * *

الفصل الرابع و لعشرون

لقد تحولت بغداد أيام تحول؛ فقد ملأ الشرطة كل الشوارع، وكانت الشائعات تنشر طوال الوقت. قيل إن آية الله العظمى الكنتلي في إيران، وقيل إن الطائرة الروسية فيصل مرسى محفوفة بالعرقلة الرسمية، ثم ثبت أنها لا تحتوي لا على طيار روسي شاب! ثم انتشر أخيراً خبر يقول إن كل الأمور على ما يرام، فرئيس الولايات المتحدة الأمريكية ورومسفيلد موجودان هنا، في بغداد، وفي أحد قصورها تحديداً.

وأخيراً بدأ المؤتمر التاريخي، وفي غرفة داخلية صغيرة كانت تجري أحداث مختلفة تماماً عما كان من شأنها أن تغير مجرى التاريخ وتكتل الأحداث ذات الأهمية البالغة، ثم تكن مجريات ما يحدث في الغرفة درامية مؤثرة أبداً.

قدم الدكتور آلان بريك (من معهد هدسون الغربي) بعضاً من المعلومات بصوت منخفض وليس كان الرجل السير روبرت كروفن قد تزوج منذ بعض العباب لأغراض التحليل، وكان السير روبرت قد حصل على تلك المعلومات خلال إحدى رحلاته في الصين، ثم تركستان، ثم كردستان وصولاً إلى العراق بعد ذلك أصبحت شهادة

الدكتور بريك ذات أهمية قصوى في مجرياتها. فلأن معلومات تحتوي على بعض من السر بيوم، ومصدر خبرته البورانيوم غير معروف بالضبط. إذ أن أوراق السير روبرت ومذكراته قد دُمرت خلال الحرب نتيجة عمليات القصف

ثم تولى السيد داكين إكمال القصة، حيث قضى بعض وقت مع مدعيه هنري كارمايكل، متحدثاً عن بعض الشائعات والقصص المتعلقة عن مكان صخرة ومحتويات تحت الأرض تحمل في واد بعيد عن قصبة المدينة. تحدث عن بحث كارمايكل وعن نجاحه في ذلك البحث. وتحدث كيف وافق ذلك الرجال العظيم، السير روبرت كروفن، ذو الرجل الذي صدق كارمايكل بسبب ما يعرفه هو شخصياً عن تلك المناطق. كيف وافق على القدوم إلى بغداد، وكيف مات. ثم كيف لابن كارمايكل حتى هو الآخر على يدي من اتجل شخصية السير روبرت

ثم مضى السيد داكين قائلاً: لقد مات السير روبرت، ومات هنري كارمايكل. ولكن شاهد ثالث ما يزال حياً، وهو هنا اليوم. وإني أدعو الآنسة أماشيل لتقدم لنا شهادتها

قامت آنسة شيل هادئة رابطة الجأش (كما لو كانت في مكتب السيد مورهاوس) فعرضت الحضور قوائم من الأسماء والأرقام ومن عمق عقلها الباطني المبدع حددت بحضور المحطة العامة مشكلة المالية الصحيحة التي كانت بمنح الأموال من التداول وبعدها على تعزيز أنشطة من شأنها أن تقسم العالم المتحضر إلى طبقتين متباعدتين. ثم بكل ذلك مجرد دعوى؛ فقد أمرت حقائق

وأرقاماً لتدعم طرحها. وبالنسبة لأولئك الذين كانوا يصغون إليها فإنها كانت تملك من الإقناع ما لم تستطع قصة كارمايكل المستهجنة أن تثيره فيهم.

ثم تحدث داكين ثانية فقال: لقد مات هنري كارمايكل، ولكنه أحضر معه من رحلته الخطيرة أدلّة ملموسة وأكيدة. وهو لم يجرؤ على الاحتفاظ بتلك الأدلة معه؛ فقد كان أعداؤه يلاحقونه عن كثب، ولكنه كان رجلاً ذا صداقات عديدة. وعن طريق اثنين من هؤلاء الأصدقاء أرسل الأدلة إلى جوزٍ أمين لدى صديق ثالث له... وهو رجل يحترمه العراق كله ويقدره. وقد تلطف هذا الصديق ووافق على الحضور إلى هنا اليوم. وإنني أشير بذلك إلى الشيخ حسين الزيارة، من مدينة كربلاء.

كان الشيخ حسين الزيارة مشهوراً -كما قال داكين- في كل أنحاء العراق كعالِم كبير، وقد وقف الآن بقامته المهيبة ولحيته المحنّاة باللون البني الغامق، وكانت سترته الرمادية مطرزة الحواف بلون ذهبي تغطيها عباءة بنية رقيقة مفهافة مما يعطيه مظهراً مهيباً. وتكلم بصوت عميق رنّان فقال: لقد كان هنري كارمايكل صديقاً لي، وقد عرفته طفلاً ودرس معي شعر شعرائنا العظام. وقد جاء رجلان إلى كربلاء ممن يسافرون ومعهم صندوق العجائب يعرضون به الصور، وهما رجلان بسيطان، ولكنهما صادقان متدينان. وقد أحضرا لي رزمة قالا إن صديقاً لي اسمه كارمايكل الإنكليزي قد طلب منهما تسليمها إليّ شخصياً، وقد أوصى أن أحتفظ بها سراً في مكان آمن وأن لا أسلّمها إلاّ له نفسه، أو لأي رسول يقوم بترديد كلمات معينة. فإن كنتَ أنت حقاً الرسول فتكلم يا بني.

قال داكين: أيها السيد، إن الشاعر العربي المتنبي، الذي عاش قبل ألف سنة، كتب قصيدة للأمير سيف الدولة في حلب. وقد وردت في القصيدة الكلمات التالية: «زِدْ، مُشْ، بُشّ، تفضّل، أُذُنٌ، سُرَّ، صِلِ».

وبابتسامة منه مد الشيخ حسين الزيارة يده برزمة إلى داكين وقال: وإنني أقول كما قال الأمير سيف الدولة: «لك ما أردت».

قال داكين: أيها السادة، هذه أفلام جلبها هنري كارمايكل معه تأييداً لقصته.

ساد الصمت للحظات، ثم انبرى صوت رفيع رسمي يحمل كل حيادية البيروقراطية وبرودها فقال: سوف توضع هذه الحقائق أمام رئيس الولايات المتحدة الأمريكية والسكرتير الأول لجمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

قالت فكتوريا: إن ما يزعجني هو تلك الدانماركية المسكينة التي قُتلت خطأ في دمشق.

أجابها السيد داكين بمرح: آه! إنها بخير، فيمجرد أن أقلعت طائرتك قمنا باعتقال المرأة الفرنسية، وأخذنا غريت هاردن إلى المستشفى، وقد استعادت وعيها تماماً. كانوا يتوون تركها مخدرة لبعض الوقت ريثما يتأكدون من أن قضية بغداد قد سارت على ما يرام... وقد كانت -بالطبع- واحدة ممن يعملون معنا.

- حقاً؟

- نعم، فعندما اختفت آنا شيل رأينا أن من الأفضل أن نشغل الطرف الآخر عنها بمصيدة. وهكذا حجزنا تذكرة لغريت هاردن وحرصنا على عدم وجود أصل لاسمها وعنوانها، وقد خُدعوا بذلك وقفزوا إلى نتيجة مفادها أن غريت هاردن هي آنا شيل دون شك. وقد أعطيناها مجموعة رائعة من الأوراق المزورة لإثبات ذلك.

- بينما بقيت آنا شيل الحقيقية في المصحة حتى جاء الوقت الذي ينبغي فيه على السيدة باوسفوت جونز أن تلتحق بزوجها.

- نعم، حيلة بسيطة... ولكنها فعالة. وقد اعتمدتها آنا شيل بناء على افتراض يقول إن الناس الوحيدين الذين يمكن أن يكونوا موضع ثقة في أوقات الأزمات هم أفراد عائلة المرء. إنها شابة بالغة الذكاء.

- لقد ظننتُ أنني انتهيت. هل كان رجالكم يحرسونني عن بعد حقاً؟

- طوال الوقت. إن صاحبك إدوارد لم يكن أبداً على ذلك القدر من الذكاء كما كان يعتقد، وقد كنا نتحرى عن أنشطته منذ بعض الوقت، وعندما قلتِ لي قصتك في الليلة التي قُتل بها كارمايكل كنتُ -بصراحة- قلقاً جداً عليك، ولذلك كان أفضل تصرف يمكنني التفكير فيه هو إرسالك عمداً إلى تلك المنظمة كجاسوسة. فإن عرف صاحبك إدوارد أنك على اتصال معي فذلك يعني أنك ستكونين بأمان إلى حد بعيد، لأنه سيحرف عن طريقك ما نفكر فيه ونعتزمه، وستكونين أثمن بالنسبة له من أن يعمد لقتلك، كما أن بوسعه أن يمرر لنا معلومات مزورة عن طريقك. لقد كنتِ صلة وصل، ولكن عندما اكتشفتِ مسألة انتحال شخصية السير روبرت كروفتن لي، قرر إدوارد أن من الأفضل إبعادك حتى موعد الحاجة إليك للقيام بدور آنا شيل (هذا إن وجدوا حاجة لذلك). نعم يا فكتوريا، أنت -حقاً- محظوظة جداً جداً لجلوسك هنا معي الآن تلتهمين كل هذا الكم من الفستق.

- أعرف بأنني محظوظة.

قال داكين: إلى أيّ مدى أنت مهتمة... بإدوارد؟

نظرت إليه فكتوريا بثبات وقالت: لست مهتمة به على الإطلاق. لقد كنتُ مجرد مغفلة سخيفة، وكان ما أحسسته تجاهه مجرد افتتانٍ مُراهِقةٍ بمثلٍ أعلى لها... تصورت نفسي جولييت وغير ذلك من السخافات التافهة. عندما أُحِبُّ في المرة القادمة لن يكون الشكل هو ما يجذبني. سأحب رجلاً حقيقياً... وليس ذاك الذي يشنّف آذان المرأة بالكلام المعسول. لن أهتم إذا كان أصلع أو كان يضع نظارات. أريده أن يكون مثيراً لاهتمامي...

سألها داكين: في نحو الخامسة والثلاثين أم الخامسة والخمسين؟

نظرت فكتوريا إليه وقالت: آه، الخامسة والثلاثين.

- لقد أرحتني، فقد ظننتُ -للحظةٍ- أنك تخطبينني!

ضحكت فكتوريا وقالت: أعرف أن عليَّ عدم طرح أسئلة... ولكن هل كانت توجد رسالة على ذلك الوشاح بالفعل؟

- كان عليه اسم. إن الحائكات (اللاتي كانت السيدة دوفارج واحدة منهن) كنّ يَحِكْنَ أسماءً على منسوجاتهن. كان الوشاح -من جهة- وملاحظة التوصية التي احتفظ بها ريتشارد -من جهة أخرى- نصفين مكمّلين كلٌّ للآخر، يعطيان مؤشراً على ما يريده كارمايكل عندما يُجتمعان معاً. وقد أعطانا أحدهما اسم الشيخ حسين الزيارة، وأعطانا الآخر -بعد أن عاملناه ببخار اليود- الكلمات المطلوبة لإقناع الشيخ بتقديم كنزه لنا.

- وقد حمل السرَّ في طول البلد وعرضه ذانك الرجلان

الجوّالان بعرضهما المحمول؟ نفس الرجلين اللذين التقيناهما؟

- نعم، شخصان بسيطان ليس في عملهما ما يمتّ للسياسة بصلة، مجرد أنهما كانا أصدقاء لكارمايكل... لقد كان لديه العديد من الأصدقاء.

- لا بد أنه كان رجلاً رائعاً جداً. إنني آسفة لموته.

- سنموت جميعاً يوماً ما. وقد كان من شأن كارمايكل أن يحسّ بالرضا وهو يعلم أن إيمانه وشجاعته قد ساهما مساهمة لا أعرف أحداً ساهم بمثلها لإنقاذ هذا العالَم المجوز الحزين من هجمة جديدة للبؤس وإراقة الدماء.

قالت فكتوريا وهي غارقة في التأمل: من الغريب أن يكون ريتشارد محتفظاً بنصف السر وأكون أنا محتفظة بالنصف الآخر. يكاد الأمر يبدو كما لو أن...

أكمل داكين عبارتها وهو يرمش بعينه: كما لو أن ذلك كان بتقدير مقصود. وهل لي أن أسأل عما تنوين فعله الآن؟

- سأضطر للعثور على وظيفة... عليّ أن أبدأ البحث.

قال: "لا تبحثي عنها كثيراً، إذ أنني أحسب أن وظيفة ستأتي إليك". ثم ابتعد قليلاً بلطف ليترك المجال لريتشارد بيكر.

قال ريتشارد: اسمعيني يا فكتوريا... لن تستطيع فينيسيا سافيل الحضور في نهاية المطاف؛ إذ يبدو أنها قد أُصيبت بالتكاف. وقد كنتِ مفيدة جداً في مرفع التنقيب. هل تحبين العودة إليه؟ ولكن

www.liilas.com

أخشى أن العمل هناك لن يكون إلاّ مقابل مأكلك ومشربك (وربما عودتك إلى إنكلترا فيما بعد... ولكننا سنتحدث في ذلك لاحقاً). إن السيدة باونسفوت جونز ستأتي في الأسبوع القادم. ماذا تقولين؟

صاحت فكتوريا: آه، هل تريدونني حقاً؟

لسبب ما احمرّ وجه ريتشارد كثيراً، فدارى ذلك بأن سعل ومسح نظارته ثم قال: أظن أننا قد نجدك... مفيدة جداً.

- إنني أحب ذلك.

- في هذه الحالة، من الأفضل أن تجمعي أمتعتك وتعودي إلى الموقع الآن. لا أظنك تريدين البقاء دون سبب في بغداد، أليس كذلك؟

- مطلقاً.

* * *

قال الدكتور باونسفوت جونز: ها أنت ذي -إذن- يا عزيزتي فيرونيكا. لقد انشغل إدوارد بك انشغالاً أذهله عن نفسه. حسناً، حسناً... أرجو أن تجدا غاية السعادة أنتما الاثنين.

قالت فكتوريا متعجبة عندما ابتعد الدكتور باونسفوت جونز: ما الذي عناه بقوله؟

أجابها ريتشارد: لا شيء. إنك تعرفين طبيعته. إنه... إنه يسبق الأمور قليلاً... ولكن قليلاً جداً.

* * *